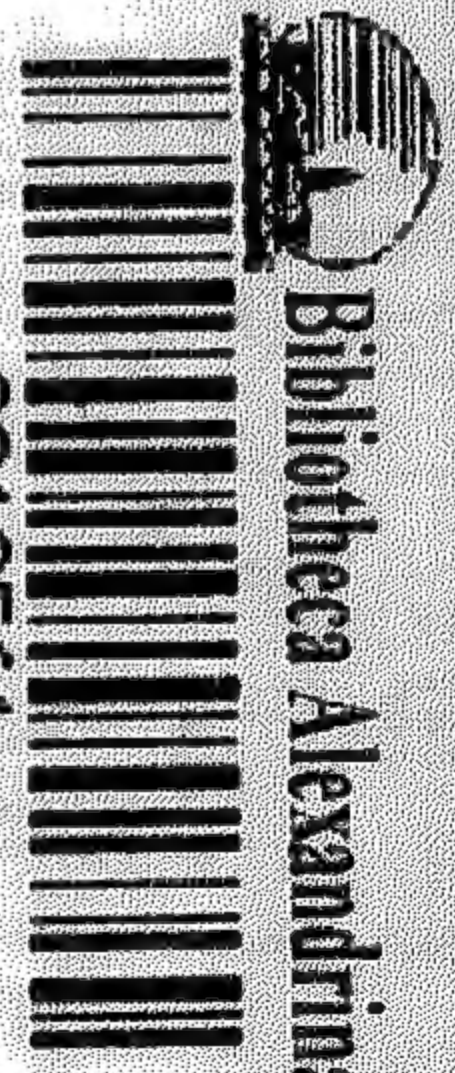
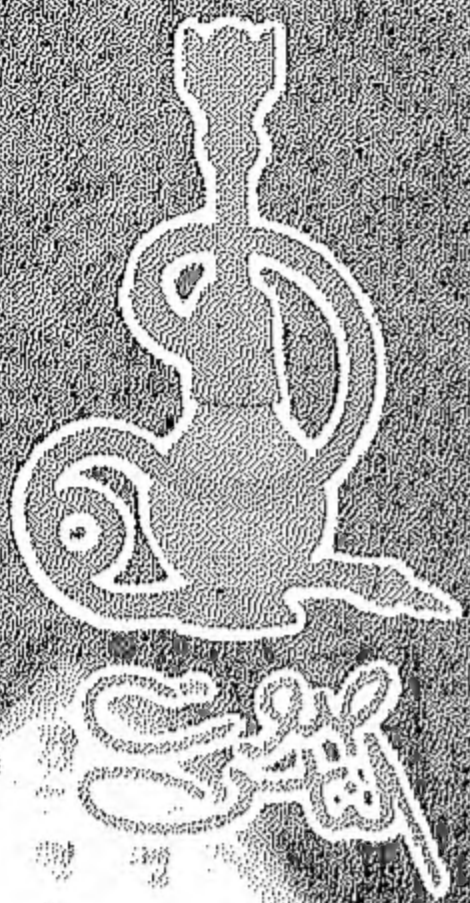


مُوريس لوبلان

السلسلة الجوفاء



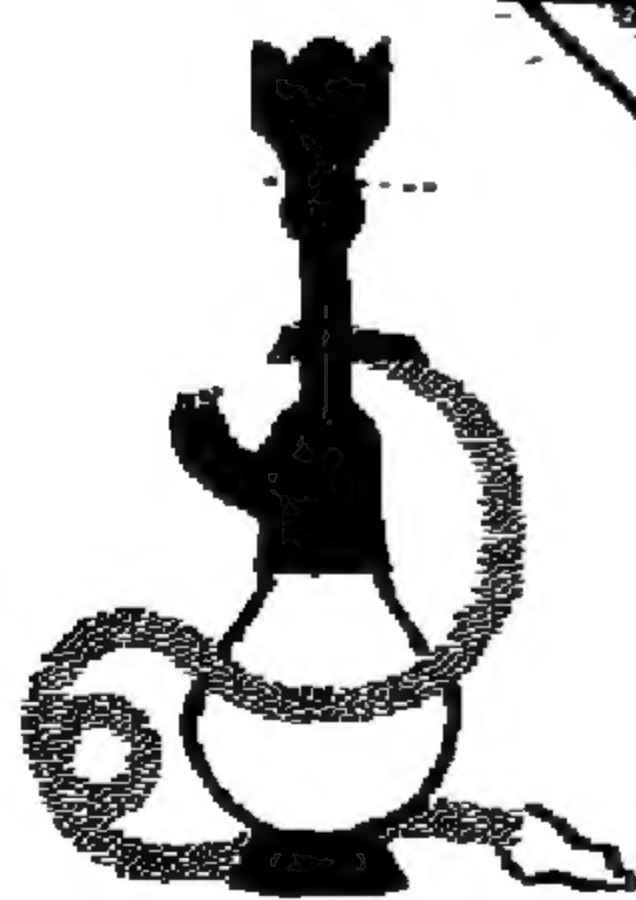
المَسِيلَةُ المَخَوَفَاءُ

مُوريس لوبلان

السَّيْلَةُ الجَوْفَاءُ

أرسين لوبين

مكتبة
الكتاب



الكتاب

L'AIGUILLE CREUSE

by

MAURICE LE BLANC
(ARSENE LUPIN)

ترجمة

بسام حجار

ARABIC EDITION 1993

© SAWT AL-NAS

P.O.Box:7038 - Limassol

CYPRUS

P.O.Box:113/5796 - Beirut

LEBANON

ISBN 1-85513-134-x

جميع الحقوق العربية محفوظة



الطبعة الاولى، ايار/مايو ١٩٩٣

الغلاف، تصميم رملة شماعة

رسوم شيفورن كوريغان

المحتويات

٩	الفصل الأول: الطلقة النارية
	الفصل الثاني: إيزيدور بوتروليه تلميذ
٤٥	علم البيان والبلاغة
٨١	الفصل الثالث: الجثة
١١٥	الفصل الرابع: وجهاً لوجه
١٥١	الفصل الخامس: إقتفاء الأثر
١٧٥	الفصل السادس: سرّ تاريخي
٢٠٢	الفصل السابع: كتاب المسئلة
٢٢٥	الفصل الثامن: من قيصر الى لوبين
٢٥٧	الفصل التاسع: إفتح يا سمسم!
٢٨٥	الفصل العاشر: كنز ملوك فرنسا

الفصل الأول

الطلقة النارية

أصغت ريموند. ومُجدِّداً سُمعت الجلبة مرّةً ثم أخرى، جلبة واضحة لا يصعب التنبُّه اليها من بين الأصوات الغامضة والملتبسة التي تنسج صمت الليل الهائل، غير أنها جلبة خافتة فلا تستطيع أن تقول إنها قريبة أو بعيدة، أو إذا كان مصدرها من الداخل من ذلك القصر الفسيح، أو من الخارج، من بين خلوات الحديقة المعتمة.

نهضت على مهل. كانت نافذتها مفتوحة قليلاً فشرعت مصراعها. كان ضياء الليلة القمرية يخيم على منظر الممرجات والأجمات الصامت حيث خرائب الدير القديم المبعثرة في الأنحاء تبرز ظلالها الصارمة. أعمدة مقطوعة، أقواس قوطية ناقصة، وبقايا أروقة وحطام قناطر. كانت نسائم واهنة تداعب سطح الأشياء، وتنسربُ بين أغصان الشجر الجرداء الساكنة وتتلاعب بوريقات الأجمات النابتة.

وفجأة، سُمعت الجلبة نفسها... وبدا أنها تصدر عن الجهة اليسرى وتحت الطبقة التي تسكنها، أي ناحية الصالات التي تقع في الجناح الغربي من القصر.

وبرغم جرأتها وقوة بأسها أحست الفتاة بقلقِ الخوف. فارتدت
بيجامتها، وتناولت علبة ثقاب.

«ريموند... ريموند...»

كان صوتاً خافتاً كالهس يُناديها من الغرفة المجاورة التي لم
يُخلق بابها. فتلمّست طريقها واتجهت نحوها عندما خرجت سوزان،
ابنة عمها، من تلك الغرفة وهرعت مرتميةً في أحضانها.

- ريموند... أهذه أنت؟... هل سمعت؟...

- أجل... أما كنت نائمة؟

- أحسب أنّ الكلب أيقظني... منذ بعض الوقت... لكنه توقف
عن الفباح. كم الساعة الآن؟

- تقارب الرابعة فجراً.

- إصغي... هناك من يمشي في الصلاة.

- ليس هناك أيّ خطر فوالدك هنا يا سوزان.

- أخشى أن يكون هو من يواجه خطراً. فهو ينام بجوار الصلاة
الصغيرة.

- والسيد دافال موجود هو أيضاً...

- في الناحية المقابلة من القصر... فكيف له أن يسمع؟..

بدتا حائرتين لا تعرفان ماذا تفعلان. أتناديان على أحد ما؟
أتصرخان طلباً للنجدة؟ كانت تتقصهما الجراءة إذ بدا لهما أنّ جلبة
صوتيهما قد تكون مصدراً للخطر. غير أن سوزان التي دنت من
النافذة في تلك الأثناء كتمت صرخةً كادت تطلقها.

– «انظري... هناك رجل قرب الحوض».

وبالفعل كان هناك رجل يبتعد هارباً بخطى سريعة . وكان يحمل تحت ذراعه شيئاً ما كبير الحجم، لم تعرفاً جيداً ما هو، إلا أنه كان يتأرجح مصطدماً بساقه فيعيق سيره. شاهدتاه يعبر بمحاذاة الكنيسة القديمة ويتجه نحو باب صغير في جدار مثقوب. لا بد أن الباب كان مفتوحاً لأن الرجل توارى منه فجأة دون أن تسمعا الصرير المعتاد للمفصلات.

– «كان قادماً من الصلاة، همست سوزان.

– لا، لو أنه جاء من ناحية الصلاة لقاده السلم ثم الرواق الى ناحية أبعد نحو اليسار... إلا إذا...».

وهزت كيانهما فكرة واحدة خطرت لهما. فانحنتا وأطلتا من النافذة. وفي الأسفل، رأتا سلماً وُضع على الواجهة الأمامية وقد أسند أعلاه على جدار الطبقة الأولى. وكانت الشرفة الحجرية مضاءة بأنوار خافتة. وشاهدتا رجلاً آخر يحمل هو أيضاً شيئاً ما، يقفز عن حافة الشرفة ويهبط السلم على عجل متوارياً بالطريقة نفسها.

لم تتمالك سوزان نفسها فخارت قواها من هول ما رآته وتهاكت راکعةً وهي تتمتم:

– «لنطلب!... لنطلب النجدة!...»

– ومن سيهرع لنجدتنا؟ والدك.... وماذا لو كان هناك آخرون فينقضوا عليه؟

- بامكاننا استدعاء الخدم... فالجرس في غرفتك موصول
بالطبقة التي ينامون فيها.

- أجل... أجل... ريمًا، إنها فكرة جيدة... وعساهم يصلون في
الوقت المناسب!..

فتشت ريموند عن زر الجرس الكهربائي وكبسته باصبعها.
فانطلق رنين في الأعلى، وبدا لهما أن صوت الجرس قد يُسمع
بوضوح في الأسفل.

انتظرتا قليلاً. كان الصمت السائد قد أصبح مُخيفاً وحتى
النسائم كفت عن التلاعب بوريقات الأجسام النابتة.
«أنا خائفة... أنا خائفة...» ردّت سوزان.

وفجأة تناهت إلى أسماعهما جلبة شجار من الأسفل اخترقت
سكينة الليل، ويصحبها ضجيج أثاثٍ يتقلب وهتافات ثم أنين
أجش، مُخيفٌ وكئيبٌ كأنه حشرة كائن يتعرّض للذبح...

قفزت ريموند نحو الباب. فتشبّثت سوزان بذراعها.

- «لا... لا تتركيني... أنا خائفة».

أبعدتها ريموند بحركة من يدها وهرعت تركض في الرواق ولم
تلبث سوزان أن تبعثها مُترنحة من حائطٍ إلى آخر دون أن تتوقف
عن الصراخ. وصلت إلى الدرج وهبطت مُتعثرة بكل درجة منه،
وهرعت نحو باب الصالة حيث وقفت مذهولة كأنها سُمرت على
العتبة فيما لحقت بها سوزان وتهالكت بجوارها. على بُعد ثلاث
خطوات، قبالتهما كان الرجل واقفاً ويده مصباح. وبحركة خاطفة
سلط ضوء مصباحه على الفتاتين فبهر أبصارهما وتأمل وجهيهما

طويلاً، ثم استدار بهدوءٍ بالغ فتناول قبعته دون استعجال ولم عن الأرض رقعةً من ورق وقشتين، ثم عمد الى محو بعض الآثار عن السجادة واقترب من الشرفة، واستدار نحو الفتاتين وحياهما بانحناء مُتمهلة ثم توارى عن الأنظار.

هرعت سوزان الى الصالون الصغير الذي يفصل الصالة الكبرى عن غرفة أبيها. ولكنها ما أن وصلت إليه حتى تجمّدت أوصالها لهول ما رآته. كان ضوء الليلة القمرية مُسلطاً، في انعكاسه الموارب، على جثتين ممدّتين بلا حراك جنباً إلى جنب.

- «أبي!... أبي!... أهذا أنت؟... ما بك؟» صرخت سوزان مذعورة وقد انحنت فوق إحدى الجثتين.

ولم تنقض هنيهة حتى دبّت الحياة في جسد الكونت دو جيفر. وقال بصوت متهدّج:

- «لا تخافي... لم أصب بأذى... ودافال ألا يزال على قيد الحياة؟ السكين؟... السكين؟...».

وفي تلك اللحظة وصل خادمان يحملان شموعاً. ارتمت ريموند أمام الجثة الأخرى وأيقنت أنه جان دافال، سكرتير الكونت والمؤتمن على أسرارهِ. وكان وجهه مُترباً يغطيه شحوب الموت.

عندئذ نهضت وعادت أدراجها الى الصالة وتناولت من خزانة السلاح المعلقة على الحائط بندقيّة محشوة بالذخيرة وخرجت الى الشرفة. لا بدّ أنّ الرجل لم يبتعد كثيراً فلم يمضِ على مغادرته الشرفة عن طريق السلم أكثر من خمسين أو ستين ثانية، هذا بالاضافة الى الوقت الذي صرفه في إزاحة السلم من مكانه لكي

يتعذر على الآخرين استخدامه. وبالفعل لم تلبث أن رآته راكضاً
بمحاذاة السور القديم المتهدم. فأسندت البندقية إلى كتفها
وسدّدت بهدوء وأطلقت النار. فسقط الرجل أرضاً.

- «لقد نلت منه! لقد نلت منه! قال أحد الخادمين، لقد أوقعنا
بأحدهم. سأنذهب إليه.

- لا، يا فيكتور، إنه ينهض مجدداً... اهبط السلم وتسَلَّ حتى
تصل إلى الباب الصغير. فهو لن يستطيع الهرب إلا من هناك».

هرع فيكتور هابطاً السلم إلا أن الرجل عاد وسقط أرضاً قبل
أن تطأ قدما الخادم أرض الحديقة. فنادت ريموند الخادم الآخر:

- «يا ألبير، أترأه من هناك؟ قرب الرواق الكبير؟...

- بلى، إنه يزحف بين الأعشاب... لقد قضي عليه...

- راقبه من هنا.

- لن يستطيع الإفلات. فإلى الناحية اليمنى من الخرائب هناك
المرجة المكشوفة...

- وأنت يا فيكتور احرس الباب من الجهة اليسرى»، قالت له وقد
حملت بندقيتها مجدداً.

- «لا تذهبي إليه يا آنسة!

- بلى، بلى، قالت بلهجة حازمة وحركاتٍ واثقة، دعني... لدي
رصاصة أخرى... ما أن يُحرّك ساكناً...».

وغادرت. ولم تمضِ ثوانٍ حتى رآها ألبير تسير في اتجاه
الخرائب. فصرخ يحذرها من النافذة:

«لقد واصل الزحف حتى توارى خلف الرواق. لم يعد في استطاعتي أن أراه... حاذري يا آنسة...».

دارت ريموند بمحاذاة السور القديم لتقطع على الرجل أي سبيل للتراجع ثم لم تلبث أن غابت عن أنظار البير. وبعد مضي دقائق كانت لا تزال متوارية عن أنظاره فانتابه القلق ولذلك حاول أن يصل إلى السلم بدل أن يهبط الدرج دون أن يكف عن مراقبة الخرائب. وما أن وصل إليه حتى هبط مُسرِعاً وهرع مباشرة في اتجاه الرواق حيث رأى الرجل لآخر مرة. وعلى بُعد خطوات وجد ريموند تبحث عن فيكتور.

«ماذا حدث؟ قال.

«لم نعثر عليه، قال فيكتور.

«والباب الصغير؟

«كنت هناك... وهذا مفتاحه.

«ولكن... ينبغي.

«أوه! إنه أمر مؤكد... عشر دقائق وننال منه، ذلك الوغد».

في تلك الأثناء وصل المزارع وابنه بعد أن أيقظهما إطلاق النار فغادرا المزرعة التي تقوم مبانيها في الجهة اليمنى على مقربة من القصر وإن كانت داخل الأسوار، ولم يصادفا أحداً في طريقهما.

«سحقاً، لا، قال البير، المؤكد أن الوغد لم يغادر الخرائب... وسنعثر عليه مختبئاً في وكر ما».

وانطلقوا جميعاً في حملة تفتيش منظمة ودقيقة، مُتفحصين كل دغل وألياف اللبلاب الثقيلة الملتفة حول جذوع الأعمدة. كما تم

التثبت من أن الكنيسة موصدة الأبواب وأن أيّاً من زجاج نوافذها لم يكسر. مشى بعضهم بمحاذاة السور وتفحص البعض الآخر كل الزوايا والخابايا. ولكن عبثاً فعلوا كل ذلك.

ولم تُسفر جهودهم إلا عن أمر وحيد: ففي الموضع الذي سقط فيه الرجل، بعد أن أصابته طلقة ريموند، عُثر على قبعة السائق المصنوعة من جلد نمر. وسوى ذلك، لا شيء.

عند السادسة صباحاً أُبلغ قسم شرطة أوفيل لا ريفير بالحادث وأُوفد من يُعاين مكان الجريمة بعد أن تمّ إخطار النيابة العامة في «دييب» بظروف الحادث والاعراب عن الأمل في اعتقال الفاعل، «والعثور على قبّعته وعلى الخنجر الذي ارتكب بواسطته جريمته». عند العاشرة كانت عربتان تهبّتان المنحدر الخفيف الذي يُفضي إلى باحة القصر. الأولى، ذات غطاء يُطوى ومن أفخم الموديلات تقلّ مساعد النائب العام وقاضي التحقيق مصحوباً بكاتبه. أما العربة الأخرى، وكانت مجرد عربة متواضعة، فتقلّ مراسلين صحافيين شابين، أحدهما يعمل لحساب «لوجورنال دورون» والثاني لصحيفة باريسية واسعة الانتشار.

ولم تلبث العربتان أن أصبحتا على مشارف القصر.

والشائع أن القصر كان في ما مضى ديراً لمصلّي «أمبروميزي»، هُدم إبان الثورة، ثمّ عمد الكونت دوجيفر إلى ترميمه بعد أن انتقلت ملكيته إليه منذ عشرين عاماً. ويتألف القصر من قسم رئيس يعلوه برج مزوّد بساعة كبيرة، ومن جناحين يُفضي إلى كلّ منهما درج مدخل بدرابزين من حجر. ومن أعلى أسوار الحديقة، الأكثر علواً من الهضبة التي تتوج المنحدرات النورماندية

الفسيحة، يستطيع الناظر أن يرى بين بلدتي سانت مرغريت وفارتجفيل، خط البحر الأزرق.

في هذا القصر يقيم الكونت دوجيفر إلى جانب ابنته سوزان، وهي فتاة شقراء جميلة ورقيقة، ومعهما ابنة أخيه ريموند دوسان فيران، التي قدمت للعيش في القصر منذ سنتين، بعد أن جعلها موت والديها المفاجيء يتيمة ووحيدة.

كانت حياة القصر هادئة ومنتظمة في القصر. ومن حين إلى آخر يستقبل ساكنوه جيرانهم في زيارات متباعدة. أمّا في فصل الصيف، فقد جرت العادة أن يصحب الكونت الفتاتين كل يوم تقريباً إلى «دييب». والكونت رجل طويل القامة جميل الطلعة رصينها وقد غزا شعره الشيب. وهو ثري جداً يشرف بنفسه على إدارة ثروته والعناية بممتلكاته بمساعدة سكرتيه جان دافال.

ما أن وصل قاضي التحقيق حتى تلقى تقارير التّحقيقات الأولية من مفوض الشرطة «كيفيُون». أما مسألة القبض على الفاعل فما تزال وشيكة ولكنها لم تتم بعد، إلّا أن المداخل جميعها قد أخضعت للحراسة المشددة ولذلك فمن المستحيل أن يُفلح في الفرار.

ثم اجتاز الجمْع الصالة الرئيسة وردهة الطعام في الطبقة الأرضية وصولاً إلى الطبقة الأولى. وأول ما استرعى الانتباه ذلك الترتيب المتقن لأثاث الصالة. فما من كنية أو كرسي أو تحفة وضعت في غير مكانها المعتاد، وما من فسحات فارغة فيما بينها. وعلى الجدران، من الجهتين اليمنى واليسرى عُلقَت سجادات حائط فلمنكية رائعة نُقشت عليها رسوم أشخاص. أمّا في صدر الصالة، على الحائط الأخير فقد عُلقَت لوحات جميلة تُصوّر مشاهد

أسطورية. لوحات شهيرة لروبنس مُنحت للكونت دوجيفر وكذلك
السجادات التي ورثها عن خاله، المركيز دوبوياديبيا، أحد نبلاء
إسبانيا. ولم يلبث السيد فيول، قاضي التحقيق، أن لاحظ قائلاً:

ـ «إذا كان دافع الجريمة هو السرقة، فالمؤكد أن هذه الصالة
لم تكن هي المستهدفة من قبل الفاعلين.

ـ من يدري؟ قال مساعد النائب العام الذي كان لا يحب الكلام
ومُقلاً فيه، إلا أنه لا يقول شيئاً، إذا تكلم، إلا بالمعنى المعاكس لآراء
القاضي.

ـ لنز قليلاً، يا سيدي العزيز، لو كانت السرقة هي الدافع لكان
أول ما فعله الجناة هو جمع هذه السجادات واللوحات الثمينة ذات
الشهرة العالمية.

ـ ربما لم يتسنّ لهم ذلك.

ـ هذا ما سنحاول معرفته».

في هذه الأثناء دخل الكونت دوجيفر برفقة الطبيب. وبادرهم
الكونت الذي بدا أنه لم يتعاف تماماً من الاعتداء الذي تعرّض له،
بالتحية مُرحباً بالمأمورين القضائيين. ثم فتح باب الصالون
الصغير.

كانت الحجرة التي لم يدخلها أحد منذ وقوع الجريمة باستثناء
الطبيب، في حالة من الفوضى التامة. كرسيان مقلوبان وطاولة
محطمة وأشياء أخرى مُبعثرة على الأرض، ساعة سفر وملفّ وعلبة
ورق رسائل. وعلى بعض هذه الأوراق البيضاء المبعثرة آثار دماء.

رفع الطبيب الشرشف الذي يُغطي الجثة. وكان جان دافال في

ثيابه المخملية العادية منتعلاً جزمته ذات المسامير، ممدداً على ظهره وإحدى ذراعيه ملوية تحته. كان قميصه حاسراً يكشف صدره حيث بدا أثر جرح عميق.

— «لا بد أن الوفاة كانت فورية، قال الطبيب... طعنة واحدة كانت هي القاتلة.

— إنه من دون شك، قال القاضي، السكين الذي رأيته فوق مدفأة الصالة بجانب قبعة من الجلد؟

— أجل، قال الكونت دوجيفر، لقد عثرنا على السكين هنا، في هذا الموضع. ولا بد أن الفاعل انتزعه من خزانة السلاح في الصالة حيث أخذت ابنة أخي، الأنسة دوسان فيران، البندقية المذخرة. أما قبعة السائق فهي من دون ريب قبعة القاتل».

تفحص السيد «فيول» بعض التفاصيل الأخرى في الحجرة، وطرح بعض الأسئلة على الطبيب، ثم سأل السيد دوجيفر أن يسرد على مسامعه كل التفاصيل التي رآها والتي يعرفها. وكانت رواية الكونت على النحو التالي:

«جان دافال هو الذي أيقظني من النوم. وعلى أية حال كان نومي مضطرباً تتخلله بوارق يقظة كنت أسمع أثناءها وقع أقدام، عندما وجدته فجأة، إذ فتحت عيني، واقفاً أمام سريرى بيده شمعة ومرتبداً ثيابه كما هو الآن، ذلك أنه غالباً ما يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل. بدا آنذاك شديد الاضطراب وقال لي بصوت خفيض: «ثمة أناس في الصالة». وبالفعل سمعتُ جلبة. فنهضتُ وفتحتُ باب الصالون الصغير على مهل. وفي اللحظة نفسها كان هناك من يقتحم ذلك الباب الآخر الذي يقضي إلى الصالة الكبيرة،

وظهر رجل لم يلبث ان اندفع نحوي وعاجلني بضربة على الصدغ
أفقدتني الوعي. أروي لك الحادثة، يا سيدي المحقق، دون أي
تفصيل كما ترى، وسبب ذلك انني لا أذكر سوى الوقائع الرئيسة
هذا بالإضافة إلى أن تلك الوقائع قد جرت بسرعة لا توصف.

— وبعد؟

— وبعد، لا أعرف شيئاً... عندما استعدتُ وعيي كان دافال
ممدداً على الأرض جثة هامدة.

— بصفة مبدئية، ألا تتهم أحداً؟

— لا أحد.

— أليس لديك أعداء؟

— لا أعرف أعداء لي.

— ولا السيد دافال.

— دافال! عدوّ لدافال؟ لقد كان من أفضل خلق الله. فمنذ ان
أصبح جان دافال سكرتيري الخاص، أي منذ عشرين عاماً،
وأستطيع ان أقول منذ ان أصبح المؤتمن على أعمالي، لم أريوماً
من يكره له سوى مشاعر المودة والصداقة.

— ومع ذلك حدث ما حدث ووقعت الجريمة، فلا بد ان يكون وراء
كل ما حدث دافع ما.

— الدافع؟ الدافع هو السرقة ولا شيء غير السرقة.

— وهل سرق الفاعل شيئاً؟

— لا، لا شيء.

— إذاً؟

– إذاً، إذا لم يُسرق شيء ولم يُفقد شيء، فلا بدّ أنهم حملوا معهم شيئاً ما على الأقل.

– وما هو هذا الشيء؟

– لست أدري. ولكن باستطاعة ابنتي وابنة أخي ان تؤكّدا لك انهما شاهدتا على التوالي رجلين يجتازان الحديقة، وان هذين الرجلين كانا يحملان معهما أشياء لا يُستهان بحجمها.

– ربما كانت الفتاتان ...

– ربّما كانتا تحلمان؟ أريد فعلاً ان أصدق انه حلم لأنني منذ الصباح أرهق نفسي في تقليب الأمور والافتراضات. ولكن قد يكون من الأفضل ان نعلم إلى استجوابهما.

تمّ استدعاء الفتاتين إلى الصالة الكبرى. وكانت سوزان تكاد لا تقوى على الكلام لفرط شحوبها واضطرابها. أما ريموند وهي أشد منها بأساً وحيوية، وأكثر جمالاً أيضاً ببريق عينيها العسليتين، فقد استطاعت أن تروي أحداث الليلة المنصرمة والدور الذي لعبته فيها.

– «أيعني هذا يا آنسة أن أقوالك نهائية وجازمة؟

– بالتأكيد. لقد كان الرجلان يحملان شيئاً ما أثناء اجتيازهما الحديقة.

– والرجل الثالث؟

– لقد غادر القصر خالي اليدين.

– أباستطاعتك أن تصفيه لنا؟

– كان يصوّب نور مصباحه إلى عيوننا فيبهر أبصارنا. كلّ ما

أستطيع قوله هو انه طويل القامة ممتلئ الجسم...
- وهل بدا لك كما وصفته ابنة عمك، يا آنسة؟ سأل المحقق
سوزان دو جيفر.

- أجل ... أو بالأحرى، لا... قالت سوزان بعد تفكير... لقد بدا
لي متوسط القامة نحيلها.

ابتسم السيد «فيول» وهو الذي اعتاد تناقض الآراء وسرد
الوقائع لدى الشهود على الواقعة نفسها.

- «ها نحن إذاً أمام واقعيتين، فمن جهة هناك شخص بمفرده،
رجل الصلاة الذي وصف في آن معاً بأنه طويل القامة وقصيرها،
وبأنه ممتلئ الجسم ونحيله - ومن الجهة الأخرى هناك
شخصان، رجلاً الحديقة المتهمان بسرقة أشياء من الصلاة... ومن
هناك أيضاً؟».

كان السيد فيول من القضاة الذين ينتمون إلى المدرسة
التكلمية، كما يقول هو نفسه. هذا بالإضافة إلى ميوله
الاستعراضية وحرصه على انتهاز كل ساحة للتباهي أمام
المستمعين بحسن درايته وعلمه؛ ولا بد أن جمهرة الواقدين إلى
الصلاة الذين ازداد عددهم تبعاً يشهدون له بذلك. فقد انضم إلى
المراسلين الصحفيين كل من المزارع وابنه، والبستاني وزوجته، ثم
كافة العاملين في القصر وتبعهم السائقان اللذان قادا العربتين من
«دييب». وأردف المحقق قائلاً:

- «المطلوب أيضاً أن تتطابق أقوال الشهود حول اختفاء هذا
الشخص الثالث. لقد أطلقت النار يا آنسة من هذه البندقية وعبر
تلك النافذة، أليس كذلك؟»

- بلى، كان الرجل قد وصل الى شاهد القبر الذي تُغطيه الأشواك
تقريباً، هناك، إلى الجهة اليسرى من السور.

- لكنه عاد ونهض، أليس كذلك؟

- ليس تماماً. ثم ذهب فيكتور لمراقبة الباب الصغير ولحقت به
بعد أن أبقيت خادمنا ألبير هنا للمراقبة».

وبدوره أدلى ألبير بإفادته، فاستنتج قاضي التحقيق قائلاً:

- «هذا يعني حسب أقوالك أن الجريح لم يستطع الفرار لا من
الجهة اليسرى، لأن رفيقك كان يراقب الباب، ولا من الجهة اليمنى
لأنه لو فعل لاستطعت أن تراه أثناء اجتيازه المرجة. إذاً المنطق
يقول أنه لا يزال حتى الآن في المساحة الضيقة نسبياً والواقعة
تحت أبصارنا المجردة.

- هذه قناعتي.

- وأنت يا آنسة؟

- أجل.

- وقناعتي أنا أيضاً، قال فيكتور.

عندئذٍ صرخ مساعد النائب العام بلهجة ساخرة:

- «إن نطاق الاستقصاءات ضيق وليس علينا إلا أن نواصل
حملة التفتيش التي بدأت منذ أربع ساعات.

- ربّما أسعفنا الحظ».

تناول السيد فيول قبعة الجلد من على المدفأة وتفحصها بعناية
ثم نادى على مفوض الشرطة وقال له على انفراد:

«أيها المفوض أرسل على الفور أحد رجالك الى «دييب» ليسأل تاجر القبعات ميغريه علّه يُطلعنا، إذا كان الأمر ممكناً، على هوية الشخص الذي ابتاع هذه القبعة».

كان «نطاق الاستقصاءات»، كما سمّاه مساعد النائب العام، ينحصر بالمساحة الممتدة بين القصر والمرجة التي تقع في الجهة اليمنى، والزاوية التي يشكّلها التقاء الحائط الأيمن بالحائط المقابل للقصر؛ ما يشكّل نطاقاً مُربّعاً لا يتجاوز ضلعه المئة متر وتتخلّله هنا وهناك خرائب «أمبيروميزي»، الدير الذائع الصيت في القرون الوسطى.

وسرعان ما عثر على أثر للهارب بين الأعشاب. وفي موضعين مختلفين عثر الباحثون على آثار دماء قانية، شبه جافة. أما بعد منعطف الرواق المقنطر الذي يحدّ طرف السور، فلم يكن هناك ما يُلفت الانتباه، فطبيعة الأرض المكسوة بإبر الصنوبر لا تسمح بتتبع أي أثر. ولكن، وهنا المسألة، كيف استطاع الجريح أن يُفلت برغم تنبّه الفتاة وفيكتور وألبير؟ تابعت المجموعة حملتها، أجمت شوكية هنا وهناك اجتازها الخدم ورجال الشرطة، وبعض القبور التي فتحت للاستطلاع وانتهى الأمر.

طلب قاضي التحقيق من البستاني المؤتمن على مفاتيح الكنيسة، أن يفتح له أبواب «لا شابيل دوديو»، وهي تحفة معمارية حقيقية، لم ينل منها الزمن أو الثورات، بل لطلما كانت موضع إجلال واعتبرت على مرّ العصور إحدى معجزات الفن القوطي النورماندي بنقوش بروازها الدقيق وجمهرة الخاشعين فيها من التماثيل المنمنمة. كانت الكنيسة من الداخل متواضعة ليس ما يزيّن بها سوى

المذبح الرخامي، ولذلك لا يستطيع الهارب أن يجد ملاذاً فيها.
وبأية حال، لم يكن بإمكانه أن يدخل إليها، فكيف يدخل؟

أفضت عمليات التفتيش الى الباب الصغير الذي يدخل منه الزائرون لمشاهدة الخرائب. وكان يؤدي مباشرة الى طريق ضيقة ومتعرجة بين السور وغابة مقطوعة الأشجار حيث يوجد عدد من المقالع المهجورة.

انحنى السيد فيول: كان التراب الذي يغطي الطريق يحمل أثر عجالات مجهزة بأربطة واقية للإنزلاق. والحال أن ريموند وفيكتور قالاً إن ما سمعاه بعد إطلاق النار، ربما كان نهج سيارة. فقال قاضي التحقيق ملماً:

- «ربما استطاع الجريح أن يلحق بشركائه.

- مستحيل! صرخ فيكتور. لقد كنتُ هنا حين كان لا يزال تحت أنظار الأنسة وألبير.

- إذاً ماذا، لا بد أن يكون في مكانٍ ما! إما في الداخل وإما في الخارج، ليس أمامنا أي خيار آخر.

- إنه هنا، قال الخادمان باصرار.

هز القاضي كتفيه وعاد أدراجه نحو القصر نكداً المزاج. فمن الواضح أن القضية مليئة بالتعقيدات. قضية سرقة حيث لا مسروقات، وسجين غير مرئي، وليس في هذا كله ما يدعو الى البهجة.

كانت الساعة قد جاوزت الظهيرة فدعا السيد دوجيفر المأمورين القضائيين الى تناول طعام الغداء برفقة الصحفيين. وكان غداءً صامتاً؛ ثم عاد السيد فيول الى الصالة حيث استجوب

الخادمين مجدداً. وسرعان ما تنهض الى سمعه وقع خبيب حصان
من ناحية الباحة، وبعد ثوانٍ معدودة، دخل الى الصالة الشرطي
الذي كان أوفده إلى «دييب»:

- «إذاً، هل قابلت تاجر القبعات؟»، قال القاضي بشبه تأنيب
متلهفاً للحصول على معلومة ما..

- «لقد بيعت القبعة لسائق».

- سائق!

- أجل، سائق أوقف سيارته أمام المتجر وسأل إذا كان بإمكانه
الحصول على قبعة سائق من الجلد الأصفر لأحد زبائنه. ولم يكن
لدى التاجر سوى هذه. فابتاعها دون أن يسأل عن مقاسها وغادر.
كان مستعجلاً جداً.

- أي طراز من السيارات؟

- من الطراز المفضل بأربعة مقاعد.

- ومتى كان ذلك؟

- متى؟ اليوم صباحاً.

- هذا الصباح؟ ما هذا الهراء الذي تقوله؟

- لقد بيعت القبعة هذا الصباح.

- ولكن هذا مستحيل، فقد عثر عليها أثناء الليل في الحديقة.

ولذلك لا بد أن تكون قد بيعت قبل ذلك.

- هذا الصباح. هذا ما أكدته لي تاجر القبعات.

للحظات ساد على الجمع مناخ من الدهول. وكان قاضي التحقيق

-
- مشدوهاً يُحاول أن يفهم. ثم انتفض بغتة كأنَّ بارقةً أيقظته.
- «ليتَّم استدعاء السائق الذي أقلَّنا هذا الصباح!».
- فهرع مفوَّض الشرطة ومساعدُه إلى الاصطبل. وبعد دقائق عاد المفوَّض بمفرده.
- «أين السائق؟»
- لقد تناول طعام الغداء في المطبخ ثم...
- ثمَّ؟
- توارى عن الأنظار.
- والسيَّارة؟
- لا. السيَّارة لا زالت هنا. لقد تذرَّع بزيارة أحد أقربائه في أوفيل، فاستعار دراجة السائس. وهذه قبَّعته ومعطفه.
- وهل ذهب من دون قبَّعة؟
- لقد أخرج من جيبه قبَّعة واعتمرها.
- قبَّعة؟
- أجل، من الجلد الأصفر، على ما يبدو.
- من الجلد الأصفر؟ مستحيل، لأنَّ القبَّعة لا تزال معي.
- بالفعل يا سيَّدي المحقِّق، ولكنَّ قبَّعته مثل هذه.
- لم يخفِ مساعد النائب العام بادرة استهزاء.
- «ظريف! ظريف جداً! هناك قبَّعتان إحداهما وهي موضوع القضية وتشكل الأدلة الثبوتية الوحيدة التي نمتلكها، فقدت عن

رأس السائق المزعوم! والثانية، وهي المزيّفة لا تزال بين يديك. آه! لقد خدعنا ذلك الرجل الطيب.

- إلحقوا به واقبضوا عليه وأعيدوه الى هنا! صرخ السيد فيّول.
أيها المفوّض كيفيون، أرسل اثنين من رجال الخيالة لمطاردة الفار.
- لقد ابتعد كثيراً، قال مساعد النائب العام.

- مهما كان بعيداً، ينبغي أن نقبض عليه.
- أمل ذلك، ولكن أعتقد يا سيدي المحقق أن جهودنا ينبغي أن
تنصبّ على ما يمكن العثور عليه هنا. هلاً قرأت ما دُون في هذه
الورقة التي عثرت عليها في جيب المعطف!
- أي معطف؟

- معطف السائق.

وأعطى المساعد الورقة للسيد فيّول. كانت ورقة مطوية بعناية
وقد كتب عليها بقلم الرصاص وبخط غير واضح هذه الكلمات:
«الويل للآنسة إذا كانت قد قتلت الرئيس فعلاً».

أشاع مضمون الكلمات مناخاً من الانفعال والقلق.

- «الكلام لمن يفهم معنى الكلام، مرحباً، لقد وصلتنا الرسالة،
قال المساعد مغمغماً.

- سيدي الكونت، أردف المحقق قائلاً، أرجو أن لا تقلق. وانتما
أيضاً، أيتها الآنستان. رسالة التهديد هذه لا قيمة لها ما دامت
العدالة تتولّى القضية وحراسة المكان. سوف تتخذ كل الاحتياطات
الضرورية. فأنا المسؤول شخصياً عن أمنكم وسلامتكم. أمّا انتما
أيها السيدان، أضيف مخاطباً المراسلين الصحفيين، فكلّ اتكالي

على تكتمكما. ذلك أن وجودكما هنا وإطلاعكما على مجرى
التحقيقات كانا بسبب كياستي ولطف طباعي، وخروجكما عن
التكتم حول هذا الأمر لا يكون إلا من باب نكران الجميل....»
ثم قطع حديثه فجأة كأن فكرة التمتع في رأسه، وحدّق ملياً في
وجه كل من الشابين تباعاً، ثم دنا من أحدهما:

- «لحساب أي صحيفة تعمل؟

- لحساب «لوجورنال دو رومن».

- أليك بطاقة إثبات؟

- ها هي».

كانت البطاقة قانونية. ولا مجال للإعتراض عليها. فخاطب
السيد فيول المراسل الآخر.

- «وأنت يا سيّد؟

- أنا؟

- أجل، أنت، لاية صحيفة تعمل؟

- يا الهي، سيدي القاضي أنا أكتب لعددٍ من الصحف...

- أين بطاقتك؟

- لا أملك واحدة.

- آه! ولم...؟

- لكي تزودك الصحيفة ببطاقة صحفية ينبغي أن تكون متفرّغاً
للعمل فيها.

- وهذا يعني؟

- هذا يعني أنني أعمل لحسابي، وأرسل مقالاتي الى عددٍ من الصحف حيث ينشر بعضها ويُرفض بعضها الآخر، حسب الظروف.

- في مثل هذه الحال، ماذا تُدعى؟ وأين أوراقك الثبوتية؟

- اسمي لن يجديك نفعاً. أما الأوراق الثبوتية فلا أحملها.

- ألا تحمل أية أوراق ثبوتية تثبت أنك تزاول مهنة الصحافة؟

- لا مهنة لي.

- ولكن اسمع يا سيّد، صرخ القاضي بنبرة لا تخلو من الفظاظة، لا تقل إنك تريد أن تبقي هويتك مجهولة بعد أن دخلت الى هذا المكان بالحيلة وأطلعت على أسرار العدالة.

- أرجو منك يا سيّدي المحقق أن تذكر جيداً أنك لم تسألني عن كلّ هذا عندما جئتُ ولذلك لم أكن مرغماً على الاعتراف بأي شيء. هذا فضلاً عن أن التحقيق لم يبدُ لي سرياً على الإطلاق لأنه جرى أمام الجميع... ومن بينهم أحد الجنّة.

كان يتكلّم بهدوء مُبدياً أقصى ما يكون عليه التهذيب. كان شاباً فتياً، طويل القامة شديد النحول يرتدي بنطالاً أقصر مما ينبغي وسترة ضيقة. وكان وجهه المتورّد أشبه بوجه فتاة، عريض الجبين أشعث الشعر وله لحية شقراء لم تشذب باتقان. كانت عيناه تشعان بالذكاء، ولا يبدى أيّاً من معالم الحرج أو الارتباك بل كان يبتسم ابتسامة مودّة لا يُخالطها أثر من السخرية.

كان السيّد فيّول يرمقه بارتياح وعدوانية. فدنا الشرطيّان منه. وصرخ الشاب مغتبطاً:

– «من الواضح يا سيدي القاضي أنك ترتاب بأمرى وتحسب
أننى أحد الجناة. ولكن لو كنت كذلك بالفعل أما كنت انتهزت أول
سانحة للفرار كما فعل زميلي؟

– ربما كنت تأمل...

– كل أمل بهذا المعنى ضرب من العبث. فكّر قليلاً يا سيدي
القاضي، وسترى أن المنطق السليم....».

رمقه السيد فيول بنظرة غيظ ثابتة مباشرة في عينه وقال بجفاء:

– «كفّ عن المزاح! ما هو اسمك؟

– إيزيدور بوتروليه؟ تلميذ علم البيان والبلاغة في ثانوية
جانسون – دو – سايبى».

مكث السيد فيول يرمقه بنظرات جفاء مباشرة في عينيه وقال:

– «ما هذا الهراء الذي تقوله؟ تلميذ علم البيان والبلاغة...

– في ثانوية جانسون، شارع دولا بومب، الرقم...

– آه! لقد طفح بي الكيل، قال السيد فيول بنبرة غضب! أتسخر

منى! يجب أن تكفّ عن هذه الألاعيب!

– لا أخفيك يا سيدي القاضي أن المفاجأة التي ارتسمت على

وجهك قد أدهشتني. فما المانع في أن أكون مجرد تلميذ في ثانوية

جانسون؟ ربّما لحيّتي هي السبب؟ اطمئن إنها لحيّة مزيّفة».

وعندئذ انتزع إيزيدور بوتروليه الشعر المزيّف الذي يغطي ذقنه

فبدا وجهه الأمر أكثر نضارة وشباباً وأشدّ تورداً، وجه تلميذ

بالفعل. فيما كشفت ضحكة طفولية عن أسنانه البيضاء:

«هل اقتنعت الآن؟ أم أنك تحتاج إلى براهين أخرى؟ خذ،
إقرأ، على هذه الرسائل التي أرسلها والدي إليّ، العنوان: «السيد
إيزيدور بوتروليه، تلميذ داخلي في ثانوية جانسون دو سايبى».
سواء أقنعه كلام التلميذ أم لم يقنعه لم يبدُ أن السيد قيول قد
استساغ الحكاية كلّها. فسأله بفظاظة:

«ماذا أتى بك إلى هنا؟»

«ولكنّي... أتعلّم».

«هناك ثانويات تتولّى أمور التعليم.. ثانوياتك مثلاً».

«لقد نسيت يا سيّدي القاضي أنّ اليوم، ٢٣ نيسان/أبريل،
وأنا في منتصف عطلة الفصح».

«إذاً؟»

«إذاً، لدي مطلق الحرية في أن أستخدم أيام العطل كما يحلو
لي».

«والدك؟»

«والدي يقطن في منطقة نائية، في وسط السافوا، وهو الذي
نصحتني بأن أقوم برحلة قصيرة على ضفاف المانش».

«بلحية مزينة؟»

«أوه! لا. فكرة اللحية من ابتكاري أنا شخصياً. ففي الثانوية
نتحدّث كثيراً عن المغامرات المشوّقة ونقرأ الروايات البوليسية حيث
تتذكر الشخصيات وتبدل مظهرها. ونتخيل عدداً هائلاً من الأشياء
المعقدة والمخيفة. لذلك أردت أن ألهو قليلاً فوضعت اللحية
المستعارة. وبهذه الطريقة استطعت أن أقنع الجميع بشخصيتي

الجديدة، واستطعت مساء أمس وبعد أسبوع من الروتين، أن أتعرّف إلى زميلي القادم من روين واقترح عليّ هذا الصباح، إذ علم بقضية أمبروميزي أن أرافقه الى مكان الحادثة على أن تكون أجرة السيّارة التي تقلنا مناصفة فيما بيننا.

كان إيزيدور بوتروليه يسرد كلّ هذا على مسامع القاضي بمنتهى الصراحة والبساطة التي تقارب السذاجة أحياناً وكان من المستحيل أن لا يشعر سامعه بمقدار السحر الذي يشيعه كلامه. حتّى أن السيّد فيّول بالذات لم يستطع برغم تحفظه الحذر، إلّا أن يأنس لما يرويه.

فسأله بتبرّة بدت أقل فظاظة:

- «وهل أنت راضٍ عن رحلتك؟»

- بل مسروراً! لم أشهد في حياتي كلّها قضية من هذا النوع، ويبدو لي أنّها قضية لا يُستهان بها.

- كما أنها لا تخلو من التعقيدات المشوّقة التي تحبها.

- تعقيدات مشوّقة بالفعل يا سيدي القاضي! فأنا لا أعرف انفعالاً أقوى من ذاك الذي تثيره الوقائع إذ يتمّ الكشف عن خباياها، الوقائع التي تجتمع ويناقض بعضها البعض الآخر ومنها تتشكل شيئاً فشيئاً الحقيقة المحتملة.

- الحقيقة المحتملة، يا لاستعجالك أيها الفتى! وهل يعني هذا أنّك اهتديت الى حلّك الخاص للغز؟

- أوه! لا، أجاب بوتروليه ضاحكاً... كلّ ما في الأمر... أنه يبدو لي أنّ هناك بعض النقاط في القضية التي لا يستحيل أن نكوّن

حولها رأياً ما، وبعض النقاط الأخرى تبدو من الوضوح بحيث يكفي أن تستخلص الاستنتاجات حولها.

- أوه! لقد أصبح الأمر مشوّقاً ويبدو أنني في آخر المطاف سأعرف شيئاً ما. ذلك أنني أعترف لك، ويا لخجلي الكبير، بأنني لا أعرف شيئاً.

- ذلك أنه لم يكن لديك الوقت لتفكر يا سيدي القاضي. التفكير هو الأمر الجوهرى في كلّ هذا. إذ يندر أن لا تكون الوقائع تحمل في حدّ ذاتها ما يفسرها. ألا توافقني الرأي؟ وعلى كلّ حال لم ألاحظ إلا ما هو مثبت في محضر التحقيق.

- يا للمعجزة! بحيث أنني لو سألتك ما هي الأشياء التي سُرقَت من الصالة؟

- أجيب بأنني أعرفها.

- أحسنت! فالسيد هنا يعرف حول هذه القضية أكثر بكثير مما يعرفه المالك نفسه! السيد دوجيفر له حسابه: أما السيد بوتروليه فليس له حسابه. فالأشياء المفقودة هي مكتبة وتمثال بحجم رجل لم ينتبه الى وجودهما أحد من قبل. ولو سألتك عن اسم القاتل؟

- أجيبك أيضاً بأنني أعرفه.

انتفض جميع الحاضرين لسماع هذا الكلام. واقترب مساعد النائب العام والمراسل الصحفي، فيما مكث السيد دوجيفر برفقة الفتاتين يصغون بانتباه وقد لفتتهم لهجة بوتروليه الواثقة:

- «أتعرف اسم القاتل؟»

- أجل.

– والمكان الذي ربّما يختبئ فيه؟

– أجل.

راح السيّد فيّول يفرك يديه:

– «يا لحسن الطالع! إن القبض على هذا المجرم سيكون ماثرة السنوات التي قضيتها في الخدمة. وبإمكانك أن تدلي بهذه المعلومات المدهشة منذ الآن؟

– منذ الآن، أجل... أو ربّما، إذا كنت لا تمانع. خلال ساعة أو اثنتين، لكي يتسنى لي أن أطلع على مجريات التحقيق الذي تقوم به حتى النهاية.

– ولكن لا، أيها الفتى، الآن وفوراً.

في تلك اللحظة تقدّمت ريموند دوسان فيران التي لم تفارق نظراتها إيزيدور بوتروليه منذ بداية الحديث، ودنت من السيّد فيّول:

– «سيّدي القاضي...

– ماذا تريد يا آنسة؟».

بدت مترددة لثانيتين أو ثلاث وهي تحدّق ببوتروليه ثمّ قالت للسيّد فيّول:

– «أرجو أن تسأل السيّد عن السبب الذي دفعه يوم أمس للتنزه عند الطريق المتعرّجة الضيقة التي تفضي الى الباب الصغير».

كان كلامها مفاجئاً أثار الدهول. وبدا إيزيدور بوتروليه مرتبكاً.

– «أنا، يا آنسة! أنا! أرايتني أمس؟».

مكنت ريموند مستغرقاً في أفكارها دون أن تفارق عيناها وجه بوتروليه، وكأنها تسعى للتثبت في أعماقها من قناعتها، وأضافت قائلة بنبرة هادئة:

«عند الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس وفيما كنتُ أجتاز الغابة، صادفتُ أثناء سيرى شاباً له قامة هذا السيد ويرتدي ثياباً مماثلة وله لحية مثل لحيته... وما أن رأيته حتى بدا لي أنه يحاول الاختباء.

— وذلك الشخص كان أنا؟

— لا أستطيع أن أكون جازمة بشكل مطلق لأن الصورة في ذاكرتي غير واضحة. ومع ذلك... مع ذلك يبدو لي أنني رأيتك أنت... وإلا فإن الشبه غريب...».

كان السيد فيول حائراً. فبعد أن انطلت عليه خدعة أحد الجناة فهل يسمح لهذا التلميذ المزعوم أن يخدعه؟

— «ما هو جوابك يا سيد؟

— جوابي أن الأنسة مخطئة ولا يصعب علي أن أثبت عكس أقوالها. لقد كنت بالأمس عند الساعة الرابعة في فول.

— أنت في حاجة إلى إثبات. وعلى أية حال ما عاد الموقف كما كان عليه. أيها المفوض فليلازم هذا السيد رجلاً من رجالك».

ارتسمت على وجه إيزيدور بوتروليه معالم انزعاج واضح.

— «وهل سيطول بنا الأمر على هذا النحو؟

— الوقت اللازم لجمع المعلومات الضرورية.

- أرجوك يا سيدي القاضي، اجمعها بأقصى السرعة الممكنة
وبأكبر قدر من التكتّم إذا أمكن...

- لماذا؟

- إن والدي رجل عجوز، ويحبّني كثيراً... فلا أريد أن أسبّب له
أيّ ضيق أو ألم.

لم ترق لهجة بوتروليه المتباكية للسيد فيّول. فقد كانت أشبه
بحوار ميلودرامي. ومع ذلك لم يبخل عليه بالوعد:

- «هذا المساء... أو غداً في أبعد تقدير أكون قد صمّمت على
رأي بشأنك».

كان النهار قد شارف على نهايته. فعاد قاضي التحقيق مجدداً
إلى خرائب السور وأمر بأن لا يُسمح للفضوليين بالدخول وراح
يقسّم بأناة ودقة، مساحة الأرض إلى أجزاء لا يلبث أن يُعاينها على
التوالي بتمعّن شديد، وأشرف بنفسه على كافة أعمال الاستقصاء
والتحرّي، إلّا أن النهار انقضى دون أن يحرز تقدماً يُذكر فصرّح
أمام جمهرة من المراسلين الصحفيين الذين توافدوا إلى القصر
تبعاً:

- «أيّها السادة، كلّ الدلائل تشير إلى أن الجريح لا يزال هنا وفي
متناول قبضتنا، كلّ الدلائل باستثناء واقع الحال. لذلك، إذا أردتم
الاستئناس برأينا المتواضع، فنحن نعتقد أنه استطاع الفرار وأننا
سنقبض عليه خارج هذا المكان».

إلّا أنه على سبيل الاحتياط أمر، بالاتفاق مع المفوض، بتنظيم
حراسة مشدّدة على الحديقة وبعد تدقيق آخر في الصالتين وزيارة

شملت كل أرجاء القصر وبعد أن توفرت لديه كل المعلومات الضرورية، عاد أدراجه الى «دييب» برفقة مساعد النائب العام.

عند حلول المساء تم نقل جثة جان دافال الى حجرة أخرى لأن الأوامر قضت بإبقاء الصالون الصغير مقفلاً. تولت امرأتان من الجوار السهر بقرب الميت تعينهما كل من سوزان وريموند. وفي الأسفل، كان إيزيدور بوتروليه نائماً فوق دكة المصلّي القديم لا تفارقه عينان يقظتان هما عينا الناظر الذي كلف بمراقبته. وفي هذه الأثناء كان عدد من رجال الشرطة وصاحب المزرعة ونحو دزينة من الفلاحين قد تولّوا، في الخارج، أعمال الحراسة بين الخرائب وعلى طول جدران السور.

لم يطرأ ما يعكّر هدوء الليل حتّى الساعة الحادية عشرة، ولكن عند الحادية عشرة وعشر دقائق دوى صوت طلقة نارية في الجهة المقابلة من القصر.

- «انتباه، صرخ المفوّض. ليملك رجالنا هنا!... فوسيه ولاكانو... وليتبعني الآخرون ركضاً».

انطلقوا جميعاً وداروا حول القصر من الجهة اليسرى. وفي العتمة المخيمة تراءى خيال شخص لم يلبث أن توارى عن الأنظار. ثم مرة أخرى سمعت طلقة أخرى استدرجتهم الى أبعد، إلى حدود المزرعة تقريباً. وما أن وصلوا مجتمعين الى سياج المرعى حتّى انبثقت بغتة نيران مستعرة الى الجهة اليمنى من المنزل الذي ينسكنه صاحب المزرعة، ثم لم تلبث أن تلتها حرائق أخرى انبثقت مستعرة كأعمدة ملتهبة. لقد كانت الحرائق تلتهم مبنى المخزن المليء بالقش.

– «الأوغاد! صرخ المفوض كيفيون، إنهم هم، هم الذين أشعلوا النيران. لننقض عليهم يا فتيان، فلا بد أنهم ما زالوا في الجوار».

إلا أن الرياح جعلت ألسنة النار تمتد في اتجاه المبنى الرئيس للقصر، فكان عليهم أن يتداركوا الخطر الداهم. ولذلك بذلوا كل ما في وسعهم لحصر النيران وشد من أزهم وعد السيد دوجيفر الذي هرع الى مكان الحريق بأن يصرف لكل واحد منهم مكافأة. وعندما تم إخماد الحريق كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل. وكان استئناف مطاردة الجناة قد أصبح مستحيلاً.

– «سنقوم بالكشف على المكان في الصباح، قال المفوض... فالمؤكد أنهم خلفوا وراءهم أثراً ما... وسنعثر عليه».

– ولن يُضيرني، أضاف السيد دوجيفر قائلاً، أن أعرف سبب هذا الاعتداء. إذ يبدو لي أن إشعال النيران في حزم القش ليس بالعمل المفيد.

– هيا يا سيدي الكونت هلاً رافقتني... فريماً أطلعتك على الأسباب التي دفعتهم إلى مثل هذا الاعتداء».

وصلاً معاً إلى خرائب السور. فنادى المفوض:

– «لوكانو؟.. فوسييه؟...».

وانضم شرطيون آخرون اليهما للبحث عن رفيقيهما اللذين تركا في مراكز الحراسة. وفي آخر المطاف عُثر عليهما عند مدخل الباب الصغير. كانا ممتدين على الأرض، مكبلين مكّمين معصوبي العيون.

– «يا سيدي الكونت، قال المفوض في ما انهمك آخرون في فك

قيود الشرطين، أحسبُ أن خدعتهم قد انطلت علينا كأننا مجرد أطفال.

- كيف؟

- الطلقات النارية.. الهجوم.. الحريق.. كل هذا كان مجرد خداع لاستدراجنا إلى هناك.. مناورة.. وفي الأثناء كانوا يكبلون رجُلينا وتم لهم ما أرادوه.

- ما أرادوه؟

- إجلاء الجريح، بحق السماء!

- هيا لا تقل لي أنك مقتنع بذلك؟

- بلى! إنها الحقيقة المؤكدة. لم أدرك ذلك إلا منذ عشر دقائق فقط. غير أنني لست سوى أحمق لأنني لم أدرك هذه الحقيقة إلا بعد فوات الأوان. فقد كان بإمكاننا أن نقبض عليهم فرداً فرداً.

وإذ انتابته موجة غضب مفاجئة راح كيفيون يضرب الأرض بقدميه غيظاً.

- ولكن أين، بحق السماء؟ من أين مرّوا؟ وفي أي مكان وجدوه؟ وهو ذلك الوغد، أين كان يختبئ؟ لقد قلبنا المكان بحثاً عنه طوال النهار، وليس بإمكان المرء أن يختبئ في غمر عشب وخاصة إذا كان جريحاً. إنها ضرب من السحر هذه الحكايات!...».

ولم تكن هذه آخر ما سيُصادفه كيفيون من مفاجآت. فعندما لاح الفجر ودخل إلى المصلّى القديم الذي تحوّل إلى زنزانة لاحتجاز الشباب بوتروليه وجد أن الشاب بوتروليه قد اختفى، وعلى كرسي مجاور جلس الناطور منحني الجذع يغطّ في نوم عميق وبجانبه

إبريق وكأسان. وفي قعر إحدى الكأسين بقايا مسحوق أبيض.

على أثر التحريات التي أجريت على الفور تبين أن بوتروليه استطاع أن يسقي الناطور مخدراً وأنه لم يستطع الفرار إلا من خلال نافذة يبلغ ارتفاعها مترين ونصف المتر عن الأرض - وأنه أخيراً، وهنا التفصيل الظريف، ما كان ليستطيع الوصول إلى النافذة إلا إذا استخدم، كمرقاة، ظهر حارسه.

الفصل الثاني

إيزيدور بوتروليه
تلميح علم
البيان والبلاغة

مقتطف من «لو غران جورنال»:

أنباء الليل

خطف الدكتور دو لاتر
عملية تنم عن جراحة مجنون

كان هذا العدد من صحيفتنا قيد الطباعة عندما وصلنا نبأ عاجل لا نجرؤ على ضمان صحته، لفرط ما بدا لنا مُختلقاً وغير معقول. لذلك نثبت فيما يلي النبأ مُعربين عن تحفظنا حياله.

مساء أمس، كان الدكتور دو لاتر، الجراح المشهور، يشاهد برفقة زوجته وابنته عرضاً لمسرحية «هرناني»، في الكوميدي - فرانسيز. وعند بداية الفصل الثالث، أي عند الساعة العاشرة تقريباً، قُتِح باب مقصورته ودخل عليهم رجلٌ يرافقه آخران، وانحنى على اذن الدكتور وقال له بصوت عالٍ نسبياً استطاعت السيدة دو لاتر أن تسمعه:

- «يا دكتور، لقد كُلِّفْتُ بمهمة هي أكثر المهام مشقةً عليّ، وأكون ممتناً لك إذا سهّلت مهمتي هذه.

... من أنت يا سيد؟

... أنا السيد تيزار، مفتش شرطة، ولدي أوامر باصطحابك الى السيد دودوي في مقر الشرطة الرئيس.

... ولكن، هذا...

... أرجوك يا دكتور لا تتفوه بأية كلمة، وعلى الأخص لا تقدم على أية حركة رعناء... ثمة خطأ مريع، ولذلك ينبغي أن يتم كل شيء بتكتم وصمت لكي لا نلفت الأنظار من حولنا. أؤكد لك أنك ستعود الى مقصورتك قبل نهاية العرض.

نهض الطبيب من مكانه وتبع المفتش. وعند نهاية العرض كان لا يزال غائباً.

فقصدت السيدة دو لاتر لشدة قلقها دائرة الشرطة. والتقت هناك السيد تيزار الحقيقي وأدركت، لهول مصابها، أن الرجل الذي اقتاد زوجها انتحل شخصية المفتش.

وقد أشارت التحريات الأولية الى أن الدكتور نُقل في سيارة وأن هذه السيارة ابتعدت في اتجاه ساحة الكونكورد.

وسنطلع قراءنا على مزيد من التفاصيل حول هذه المغامرة المستهجنة.

ومهما بدت المغامرة مستهجنة وغير معقولة إلا أنها كانت صحيحة.

كما أنها سرعان ما وصلت الى فصلها الختامي، فقد نشرت صحيفة «لو غران جورنال»، وفي طبعة الظهيرة التي أكدت فيها نبأ

الاختطاف، في سطور قليلة تفاصيل الحدث المفاجيء الذي أسفرت عنه العملية.

خاتمة الحكاية وبداية التكهّنات

هذا الصباح، عند التاسعة، أُعيد الدكتور دولاتر فقد أنزلته سيارة أمام باب الرقم ٧٨، شارع دوريه، ولم تلبث أن انطلقت بسرعة كبيرة. والرقم ٧٨ في شارع دوريه هو مبنى عيادة الدكتور دولاتر التي اعتاد أن يصل إليها كلّ صباح في تمام الساعة التاسعة.

وعندما طلب مراسلونا مقابلة الدكتور أثناء اجتماع ضمّه إلى رئيس جهاز الأمن، رحّب بهم وحدثهم.

- «كلّ ما أستطيع قوله، أجاب الدكتور، هو أنني عوملت باحترام كبير. فالرجال الثلاثة الذين رافقوني من بين أكثر الناس الذين عرفتهم ظرفاً، ويتمتعون بأقصى درجات التهذيب وحسّ الدعابة بالإضافة الى كونهم محدّثين لبقين وهو ليس بالأمر الهين نظراً لطول الرحلة.

- كم استغرقت من الوقت؟

- نحو أربع ساعات.

- والهدف منها؟

- لقد اصطحبوني لمعاينة مريض كانت حالته تستدعي عملية جراحية فورية.

- وهل كانت عملية موفقة؟

- أجل، ولكن يُخشى من المضاعفات. لو أجريت العملية هنا لضمنتُ نجاة المريض. ولكن هناك... والظروف التي يحيا في كنفها...

- أهى ظروف سيئة؟

- بل حقيرة... غرفة في نزل... واستحالة، لا بل استحالة مطلقة، أن يتلقَى أية عناية.

- إذاً، كيف له أن ينجو؟

- بمعجزة... بالإضافة الى قوّة بنيته الجسدية الاستثنائية.

- ألا تستطيع أن تخبرنا المزيد عن هذا الزبون الغريب؟

- لا أستطيع. أولاً لأنني أقسمت، وثانياً لأنني تلقيت عشرة آلاف فرنك دعماً لعيادتي الشعبية. وإن لم ألزم الصمت سيستعيدون هذا المبلغ.

- دعك من هذا! هل تعتقد هذا حقاً؟

- صدقاً أقول بلى، أصدق وعدهم. فقد بدوا لي أناساً على قدر كبير من الرصانة.

هذا وقد علمنا من مصادر أخرى أن رئيس جهاز الأمن لم يتوصّل بعد الى الحصول منه على معلومات أدقّ حول العملية الجراحية التي أجراها، وحول المريض الذي عالجه وحول المناطق التي اجتازتها السيّارة. لذلك يبدو أن التوصل الى معرفة حقيقة ما حدث أمر تعترضه صعوبات كثيرة.

تلك الحقيقة التي اعترف محرّر المقابلة بعجزه عن اكتشافها،

لم تكن بعيدة المنال بالنسبة للعقول المستنيرة بعض الشيء والتي خمنت حقيقة ما جرى عبر مقارنة بسيطة مع وقائع ما حدث ليلة البارحة في قصر أمبروميزي والتي نشرت الصحف أدق تفاصيلها في اليوم نفسه. وكان من البديهي أن يرى المهتمون رابطاً ما بين ذاك الاختفاء المفاجيء للّص جريح واختطاف جرّاح شهير.

وبأية حال فإنّ التحقيقات التي أجريت حول الموضوع برهنت على صحة تلك الفرضية. فمن خلال تتبع أثر السائق المزعوم الذي توارى بعد أن استعار دراجة هوائية تمّ التثبت من أنّه قصد غابة «الآرك» التي تبعد نحو خمسة عشر كيلومتراً عن مكان الجريمة، ومن هناك قصد بلدة سان نيكولا بعد أن رمى الدراجة في حفرة، حيث أرسل برقية هذا نصّها.

١. ل. ن، مكتب رقم ٤٥، باريس

«الحالة خطيرة. جراحة للضرورة القصوى. أرسلوا أحد المشهورين عبر الطريق ١٤».

لا سبيل لدحض هذا الاثبات. وما أن تبّلع شركاء الجناة في باريس حتّى هرعوا لاتخاذ إجراءاتهم. وعند العاشرة مساءً أرسلوا الجرّاح المشهور عبر الطريق رقم ١٤ التي تُحاذي غابة «الآرك» وتؤدي إلى «دييب». وفي هذه الأثناء استغلت العصابة الحرائق التي أشعلتها للتمويه وأفلحت في إجلاء رئيسها عن المكان ونقلته إلى نزل حيث أجريت له العملية الجراحية فور وصول الطبيب أي نحو الساعة الثانية فجراً.

لا يرقى الشك إلى صحة هذه الوقائع، فقد تثبت كل من المفتش

الممتاز غانيمار الذي أوفد خصيصاً من باريس برفقة المفتش فولانتان من عبور سيارة خلال الليل الفائت في كل من «بونتواز» و«غورني» و«فورج»... وكذلك على الطريق المؤدية من «دييب» إلى أمبروميزي وإذا كان أثر السيارة قد فُقد على بعد نحو كيلومترين من القصر إلا أن التحريات قد أشارت إلى وجود عدد كبير من آثار الأقدام بين باب الحديقة الصغير وخرائب الدير. هذا بالإضافة إلى أن غانيمار لاحظ أن الباب الصغير اقتحم بعد أن خلعت أقفاله.

لقد أصبح كل شيء واضحاً إذاً. ولم يبق سوى السعي لتحديد موقع النزل الذي تحدث عنه الدكتور دولاتر. وليس هذا بالأمر المستحيل بالنسبة للمفتش غانيمار وهو المنقّب الصبور المحنك فعدد المنازل محدود ونظراً لحالة الجريح لا يمكن إلا أن يكون النزل المقصود في جوار أمبروميزي. وبدأ غانيمار ومفوض الشرطة بحملة تفتيش واسعة. ضمن نطاق دائري بلغ قطره في البداية خمسمئة متر ثم ألف متر ثم ألفاً وخمسمئة متر، حيث تفقدا كل المباني التي يمكن أن تكون نزلاً وفتشوها. ولكن بعكس التوقعات لم يُعثر على أثر للجريح المحتضر.

فما كان من غانيمار إلا أن ازداد تصميماً وعناداً. وعاد إلى القصر لقضاء ليلة السبت فيه عازماً على القيام بتحرياته الخاصة يوم الأحد. وفي صباح الأحد أُبلغ أن دورية من رجال الشرطة شاهدت خلال الليل شخصاً يتسلل عبر الطريق المتعرجة إلى خارج الأسوار. فهل هو أحد الجناة عاد إلى مسرح الجريمة لتقصي الأخبار؟ أم ينبغي الاقتراض بأن رئيس العصابة لم يغادر خرائب الدير أو جوار هذه الخرائب؟

عند المساء أوعز غانيمار الى دورية الشرطة بالتوجه نحو المزرعة
ومكث برفقة فولانفان خارج السور قرب الباب.

وقبل منتصف الليل بقليل خرج شخصٌ مسرعاً من الغابة
وتسلّل من بينهما الى الحديقة بعد أن اجتاز عتبة الباب. ومكثا
يراقبانه طوال ثلاث ساعات يتنقل بين الخرائب، ينحني تارةً
ويتسلّق تارةً أخرى الأعمدة العتيقة أو يمكث لدقائق طويلة واقفاً
بلا حراك. ثم عاد أدراجه الى الباب واجتازه مجدداً الى الخارج بين
المفتشين.

أمسكه غانيمار بياقته فيما سارع فولانفان الى تطويق جذعه
بذراعيه. لم يبد أية مقاومة، بل انصاع لهما بهدوء فكّلاً يديه
واقْتاداه الى القصر. ولكن عندما أرادا استجوابه، أجابهما ببساطة
أنّه ليس لديه ما يقوله لهما وأنه سينتظر مجيء قاضي التحقيق.

وعندئذٍ عمداً الى ربطه بقائمة السرير في إحدى الغرفتين
المتجاورتين اللتين خصّصتا لهما.

عند التاسعة صباحاً من نهار الاثنين، أطلع غانيمار السيّد
«فيّول» على ما جرى. واستدعي السجين وكان إيزيدور بوتروليه.

- «إنه السيّد إيزيدور بوتروليه! قال السيّد فيّول مبتهجاً وقد
بسط ذراعيه ترحيباً بالوافد الجديد. يا لها من مفاجأة طيبة! لا
أصدّق أن التحريّ الهادي الممتاز موجود هنا! وبتصرّفنا!... إنها
لنعمة لا نستحقها فعلاً! يا سيّدي المفتش اسمح لي أن أقدم لك
السيّد بوتروليه، تلميذ علم البيان والبلاغة في ثانوية جانسون
دوسايي».

بدا غانيمار حائراً بعض الشيء. وبادره إيزيدور بتحيةة حارة كأنها تحية موجهة لزميل في السلك له موقعه واحترامه، ثم التفت نحو السيد «فيول» وقال:

- «بيدو يا سيدي القاضي أنك تلقيت معلومات طيبة بشأنني؟
- ممتازة! علمت أولاً أنك كنت بالفعل في «فول» فيه روزه في الساعة التي ظننت الآنسة دوسان فيران أنها شاهدتك فيها سائراً على الطريق المتعرجة. وسنتوصل الى كشف هوية شبيهك في أقرب وقت. كما ثبت لدينا أنك إيزيدور بوتروليه بالفعل، تلميذ علم البيان والبلاغة، لا بل أنك أيضاً تلميذ ممتاز ومجتهد ويتميز بسلوك مثالي لا غبار عليه. وبما أن والدك يقطن الريف، يُسمح لك بالخروج من المدرسة مرة واحدة كل شهر لزيارة وكيل ذوك، السيد برنو الذي يثني عليك باستمرار.

- وهذا يعني...

- هذا يعني أنك طليق.

- طليق تماماً؟

- تماماً. آه! إلا أنني أضيف إلى ما سبق تحفظاً بسيطاً، وهو في الحقيقة تحفظ بسيط جداً. أنت تدرك جيداً أنه ليس بإمكانني أن أطلق سراح سيد يسقي الناطور مخدراً ويفر من النوافذ ثم يلقي القبض عليه أثناء تجواله العابث داخل نطاق ممتلكات خاصة، أو على الأقل ليس بإمكانني أن أفعل ذلك دون مقابل.

- وما هو هذا المقابل.

- هو أن نتابع حديثنا الذي لم يتم، وستطلعني على كل ما تجمع

لديك من تحرياتك الخاصة... فلا بد أنك بلغت مرحلة متقدمة فيها خلال يومين من الحرية المؤقتة».

وبما أن غانيمار كان يهَمُّ بالمغادرة مبدئياً بعض الازدراء حيال هذا النوع من المناورات، صرخ قاضي التحقيق قائلاً:

«لا أبداً يا حضرة المفتش، مكانك هنا... وأؤكد لك أن لدى السيد إيزيدور بوتزوليه ما يستحق الإصغاء اليه.. ذلك أن المعلومات التي توفّرت لدي تفيد بأنّ السيد إيزيدور بوتزوليه معروفٌ في أوساط ثانوية جانسون دو سايبى بأنه مراقبٌ محترف لا يغفل عن تفصيل ما يراه، ويعتبره زملاًؤه، كما قيل لي، كمنافس لك، وكخصمٍ لـ«شرلوك هولمز».

— حقاً! قال غانيمار ساخراً.

— هذا ما يقولونه بالضبط. لقد كتب لي أحدهم قائلاً: «إذا كان بوتزوليه يقول إنه يعرف فينبغي أن تصدّقه، ولا يساورك الشك لحظة واحدة أنّ ما يقوله هو التعبير الدقيق عن الحقيقة؛ والآن يا سيّد بوتزوليه لقد آن الأوان لتبرهن على أنّك تستحق ثقة رفاقك بك. وأرجو منك أن تعبّر لنا بدقّة عن الحقيقة».

كان إيزيدور يُصغي مبتسماً وأجاب:

— «يا سيدي القاضي أعتقد أنّك لا تعوزك القوة. فأنت تسخر من تلاميذ الثانوية البائسين الذين يجدون السلوى في ما يستطيعونه. على أية حال أنت محقٌّ جداً، ولن أمدّك طوعاً بأسباب أخرى للتهكم عليّ.

— ذلك أنك لا تعرف شيئاً يا سيّد إيزيدور بوتزوليه.

– أعترف بالفعل بأنني لا أعرف شيئاً. ذلك أنني لا أستطيع أن
أسمي «معرفة بالشيء» اكتشافي لتفصيلين أو ثلاثة على وجه أدق
وأوضح وهي، بآية حال، التفاصيل التي ما كنت لتغفل عنها بلا
ريب.

– على سبيل المثال؟

– مثلاً، موضوع السرقة.

– آه! بالطبع، وأنت تعتقد أنك تعرف ما هو الشيء الذي تمت
سرقته؟

– كما تعرفه أنت أيضاً بلا ريب. وأعترف لك أنها النقطة الأولى
التي استرعت انتباهي وانكبت على تمحيصها لفرط ما بدت لي
مسألة بسيطة.

– أهي بسيطة بالفعل؟

– أجل، بحق السماء. إذ لا تستدعي المسألة أكثر من مجرد
استدلال منطقي.

– ليس إلا؟

– ليس إلا.

وما هو هذا الاستدلال المنطقي؟

– إنه التالي وبصرف النظر عن أي تعليق. من جهة وقعت سرقة،
ما دامت الآنستان قد اتفقتا على تأكيد رؤيتهما لرجلين يحملان
أشياء أثناء فرارهما.

– إذا وقعت سرقة.

– ومن جهة ثانية، لم يُفقد شيء، لأنَّ السيد دوجيفر يؤكد ذلك وهو الأدرى بهذا الشأن.

– لم يُفقد شيء.

– وانطلاقاً من هاتين البيّناتين لا بدّ أن نحصل على النتيجة التالية: فإذا كانت السرقة قد وقعت ولم يُفقد شيء فلأنَّ الشيء المسروق قد استبدل بشيء مماثل له. وهنا أسارع الى القول إنّ هذا الاستدلال قد توكّده الوقائع. ولكنني أزعّم أنّه أوّل ما يتبادر إلى الذهن ولا يحق لنا أن نستبعد معطياته إلّا بعد فحص دقيق.

– بالفعل، بالفعل.. غمغم القاضي الذي بدا منصتاً باهتمام.

– ولكنّ، أردف إيزيدور قائلاً، ما الذي استرعى اهتمام اللصوص من بين موجودات هذه الصالة: شيئان. السجاد أولاً. ولا يمكن أن تكون هي التي سرقت. ذلك أن السجادات العتيقة يستحيل تقليدها، وكانت القطعة المزيفة بدت للعين المجردة على الفور. يبقى إذاً لوحات «روبنز» الأربع.

– ماذا تقول؟

– أقول إنّ لوحات روبنز الأربع المعلقة على هذا الحائط مزيفة.

– مستحيل!

– إنّها مزيفة، بالمعنى المنطقي، وبصورة حتمية لا ناقض لها.

– منذ سنتين تقريباً، يا سيدي المحقق، جاء شاب زعم أنّه يدعى شاربونيه الى قصر امبروميزي وطلب أن يُسمح له بنسخ لوحات روبنز. وقد سمح له السيد دوجيفر بذلك. وكان يتردّد على القصر كل يوم، طوال خمسة أشهر، من الصباح حتى المساء ويعمل في

هذه الصالة. والنسخ التي أنجزها، اللوحات والأطرمعاً، هي التي استبدلت باللوحات الأصلية الأربع التي ورثها السيد دوجيفر عن خاله الماركيز دوبوباديا.

- والإثبات؟

- ليس لدي أي إثبات. فاللوحة تكون مزيفة لأنها مزيفة وأحسب أنه ما من حاجة حتى لتفحص هذه اللوحات.

كان السيدان فيول وغانيمار يتبادلان النظرات لا يخفيان ذهولهما. وما عاد المفتش يسعى للمغادرة. وفي آخر الأمر غمغم القاضي قائلاً:

- «ينبغي أن نسمع رأي السيد دوجيفر».

فوافق غانيمار:

- «ينبغي أن نسمع رأيه».

وأمر بأن يطلب من الكونت الحضور الى الصالة.

وكان ذلك بمثابة انتصار حقيقي لعالم البلاغة الشاب، ففي إقناعه رجلين عريقين في مهنتهما بفرضياته الخاصة أكثر من مجرد مديح للمكاته الذهنية، لا بل ما يدعو سواه للتفاخر والخيلاء. إلا أن بوتروليه كان يبدو مُنصرفاً عن هذه الترهات التي ترضي، ومكث ينتظر مبتسماً لا أثر لسخرية في ابتسامته. ثم أقبل السيد دوجيفر.

- «سيد الكونت، قال له قاضي التحقيق إن مجريات تحرياتنا تضعنا أمام احتمال غير متوقع، نطلعك عليه مع كامل التحفظ: إذ

من الجائز... وأقول: من الجائز.. أن يكون غرض اللصوص في تسللهم الى هذا المكان سرقة لوحات روبنز أو على الأقل، استبدالها بأربع نسخ مزيفة... وهي النسخ التي أنجزها منذ عام تقريباً، رسام يدعى شاربونيه. هلاً تفحصت هذه اللوحات لتطلعنا على حقيقة أمرها، أهي مزيفة أم أصيلة؟».

بدا أن الكونت يكظم بادرة انزعاج، هذا ما لاحظته بوتروليه أولاً ثم السيد فيول وأجاب دون أن يتكبد مشقة الإقتراب من اللوحات:

- «كنت آمل يا سيدي القاضي أن تبقى هذه الحقيقة طي الكتمان. ولكن بما أن الأمور وصلت الى هذا الحد فلا بأس من الاعتراف بأن هذه اللوحات الأربع مزيفة.

- كنت تعلم إذا؟

- منذ البداية.

- ولماذا لم تطلعنا على حقيقة الأمر؟

- إن مالك التحفة لا يسارع أبداً إلى الاعتراف بأن هذه التحفة ليست... أو ما عادت أصيلة.

- ولكنّها الوسيلة الوحيدة لاسترجاعها.

- ثمة وسيلة أفضل.

- وما هي؟

- التكتّم على الحقيقة لكي لا تريك اللصوص أو تخيفهم وبعد ذلك نعرض عليهم شراء مسروقاتهم لأن احتفاظهم بها لا بد أن يكون مصدر أرباك.

- وكيف يمكن الاتصال بهم؟».

وإذ امتنع الكونت عن الإجابة، بادر إيزيدور إلى الرد قائلاً:
- «عبر إعلان صغير في الصحف». وقد صيغ هذا الإعلان
الصغير الذي نشرته صحيفتا «لوجورنال» و«لوماتان»، على النحو
التالي:

«أنا على استعداد لشراء اللوحات مجدداً».
فوافق الكونت بإشارة من رأسه ومرة أخرى يبرهن الشاب على
تفوقه على الرجلين المحترفين.

إلا أن السيد فيول تلقى الأمر بروح رياضية.
- «لا بد لي يا سيدي العزيز أن أبدأ بالاعتناع بأن رفاقك ليسوا
مخطئين بشأنك. اللعنة، أية عين هذه! أي حدس! إذا تابعت على
هذا النحو فلن يكون لدينا، لا أنا ولا السيد غانيمار، ما نفعله هنا.
- أوه! لم تكن الأمور معقدة على الإطلاق.
- أنقصد أن التالي أكثر تعقيداً؟ أنا أذكر فعلاً أنك بدوت لي،
خلال لقائنا الأول، على علم بأمور كثيرة أخرى. لنز قليلاً، وعلى ما
أذكر لقد أكدت لي أنك تعرف جيداً اسم القاتل.
- بالفعل.

- إذاً من قتل جان دافال؟ ألا يزال هذا الرجل حياً؟ وأين
يختبئ؟

- سيدي القاضي، لا شك أن هناك سوء تفاهم بيننا، أو الأخرى
سوء تفاهم بينك وبين حقيقة الوقائع، وسوء الفهم هذا يتواصل منذ
البداية. فالقاتل والفار شخصان مختلفان.

- ماذا تقول؟ قال السيد فيول مذهولاً. تقول أن الرجل الذي

شاهده السيد دوجيفر في الصالون الصغير والذي تشاجر معه،
وأن الرجل الذي شاهدته الآنستان في الصالة والذي أطلقت
الآنسة دوسان فيران عليه النار، وأن الرجل الذي سقط أرضاً في
الحديقة والذي نتحرى عنه، إن هذا الرجل ليس قاتل جان دافال؟
- لا، ليس هو القاتل.

- هل عثرت على أثر لشريك ثالث توارى عن الأنظار قبل وصول
هاتين الآنستين؟
- لا.

- إذاً بات الأمر يفوق قدرتي على الفهم... إذاً من هو قاتل جان
دافال؟
- قاتل جان دافال هو....

ثم سكت بوتروليه ومكث صافناً بعض الوقت وتابع:
- «ولكن قبل أن أكشف اسم القاتل ينبغي أن أطلعكم على
المسار الذي قادني الى يقيني هذا والأسباب التي كانت هي
الدافعة لارتكاب الجريمة... وإلا لبدا لكم اتهامي مُستهجناً كل
الاستهجان... فهناك تفصيل قد أغفل تماماً برغم أهميته البالغة
وهو أن جان دافال كان أثناء تلقيه الطعنة مرتدياً ثيابه بكاملها
ومنتعلاً جزمته، أي باختصار، كان يرتدي الملابس التي يرتديها
عادة أثناء النهار. والحال أن الجريمة وقعت عند الرابعة فجراً.

- لقد لفتني مثل هذا الموقف الغريب، قال القاضي، وأجابني
السيد دوجيفر أن دافال يقضي في العادة قسماً من لياليه منكباً على
عمله.

- لكن الخدم يؤكدون، على العكس من ذلك، أنه اعتاد أن ينام باكراً، ولكن لنسلم جدلاً بأنه كان مُستيقظاً: فلماذا إذاً رفعت الأغطية عن سريره فيحسب من يراه أنه كان نائماً؟ ولو كان نائماً بالفعل لماذا تخشع عناء ارتداء ملابسه كاملةً من رأسه حتى قدميه عندما أيقظته الجلبة ولم يكتف بارتداء ما يقع تحت يديه في غمرة استعجاله؟ لقد تفقدت غرفته أول أيام التحقيق أثناء انصرافكم الى تناول طعام الغداء: لقد كان خفاه بجانب سريره، فلماذا لم ينتعل الخفين بدل أن ينتعل جزمته الضخمة ذات المسامير؟

- إلى هذا الحد، لا أرى...

- إلى هذا الحد، ليس بإمكانكم بالفعل إلا بعض التفاصيل الغريبة التي قد لا تكون ذات شأن. إلا أنها بدت لي مريبة جداً عندما علمت أن الرسام شاربونييه - ناسخ لوحات روبنز - قد تعرّف الى الكونت بواسطة جان دافال نفسه.

- وهذا يعني؟

- وهذا يعني أن جان دافال وشاربونييه كانا شريكين، ولم يبق سوى نقلة واحدة. وهذه النقلة اهتمدت إليها خلال حديثنا معاً.
- اهتمدت بسرعة، على ما يبدو لي.

- بالفعل، كنت أحتاج الى دليل مادي. والحال أنني وجدت في غرفة دافال على إحدى الأوراق التي يستخدمها لكتابة ملاحظاته، هذا العنوان الذي لا تزال كلماته مطبوعة، بأية حال، وإن مقلوبة على الورق النشاف:

السيد أ. ل. ن، المكتب رقم ٤٥، باريس.

وفي اليوم التالي تبين أن البرقية التي أرسلها السائق المزعوم من

سان نيكولا تحمل العنوان نفسه : ا. ل. ن. المكتب رقم ٤٥ . وهكذا حصلت على الدليل المادي، فقد كان جان دافال على اتصال بالعصابة التي نظمت عملية استبدال اللوحات».

لم تصدر عن السيد فتبول أية بادرة اعتراض.

— «ليكن. لقد برهنت على تواطؤ دافال. فما هو استنتاجك؟

— أولاً أن الفار ليس قاتل جان دافال، لأن جان دافال شريكه.

— إذا؟

— يا سيدي القاضي، هل تذكر أول عبارة قالها السيد دوجيفر عندما استعاد وعيه، لقد دوّنت العبارة التي وردت في إفادة الأنسة دوجيفر في محضر التحقيق: «لم أصب بأذى. ودافال؟... ألا يزال على قيد الحياة؟.. السكين؟...» وأرجو منك أن تقابلها بذلك الجزء من سرد وقائع الحادثة، والمدون هو أيضاً في المحضر، حيث يروي السيد دوجيفر الوقائع على النحو التالي: «اندفع الرجل نحوي وعاجلني بضربة على الصدغ أفقدتني الوعي». فكيف للسيد دوجيفر الذي كان فاقداً وعيه أن يعرف فور استيقاظه أن دافال قد ملعن بسكين؟».

ولم ينتظر بوتروليه ردّاً على سؤاله. كأنه يستعجل الإجابة التي سيدلي بها هو حائلاً بذلك دون اللجوء الى أي تعليق آخر. ثم لم يلبث أن اردف قائلاً:

— «إذا، جان دافال هو الذي أدخل اللصوص الثلاثة الى هذه الصالة وبينما كان يقف في الصالة نفسها برفقة من يسمونه الرئيس سمعت جلبة في الصالون الصغير. عنئذ يفتح دافال الباب

وما أن يرى السيد دو جيفر حتى يندفع نحوه شاهراً السكين.
ولكن السيد دو جيفر يُفلح في انتزاع السكين من يده ويطعنه ثم
يقع بدوره أرضاً بعد تلقيه ضربة ذلك الرجل الذي شاهدته الفتاتان
بعد دقائق معدودة.

مرة أخرى تبادل السيد فيول والمفتش بعض النظرات وهزّ
غانيمار برأسه كمن أسقط في يده.

فسأل القاضي:

- «يا سيدي الكونت أينبغي أن أصدّق أن هذه الرواية للوقائع
هي الرواية الصحيحة؟...».

لزم السيد دو جيفر صمته.

- «هيا يا سيدي الكونت إن صمتك هذا قد يدفعنا إلى
الافتراض...».

عندئذ قال السيد دو جيفر بكلام واضح:

- «إنّ هذه الرواية، وفي كلّ ما ورد فيها، صحيحة».

فانتفض القاضي لشدة ذهوله.

- «ما زلت لا أفهم لماذا تعمّدت تضليل العدالة. ولماذا تكتمت
على فعلة لك كلّ الحقّ في ارتكابها لأنها دفاع مشروع عن النفس؟»

- لقد عمل دافال الى جانبي طوال عشرين عاماً. وكنت أوليه كلّ
ثقتي وأدّى لي خدماتٍ لا تقدّر بثمن. فإذا اختار أن يخون في آخر
الأمر طمعاً بمغرياتٍ أجهلها، فأنا على الأقل لا أريد، وتشبّثاً مني
بذكرى الماضي، أن يُفضح أمر خيانتة.

.. أنت لا تريد، فليكن، ولكن واجبك كان يحتم عليك...

.. لا اشاطرك الرأي يا سيدي المحقق. فعندما وجدت أن الجريمة لم يتهم بارتكابها بريء، شعرتُ بأن حقي المطلق هو أن لا اتهم الرجل الذي كان في وقتِ الجاني والضحية معاً. لقد مات. واحسب أن الموت هو القصاص العادل.

.. ولكن يا سيدي الكونت الآن وقد عُرِفَت الحقيقة، أصبح بإمكانك أن تتكلم.

.. أجل. هاك هاتين المسودتين لرسالتين كتبتهما لشركائه. لقد أخذتهما من حافظة نقوده بعد وفاته بدقائق.

.. وما دافع السرقة؟

.. إذهبوا إلى «دييب»، إلى الرقم ١٨ من شارع دولابار. هناك تقطن امرأة ما تدعى السيدة فردييه. ولقد لجأ دافال إلى السرقة لتلبية الاحتياجات المالية لهذه المرأة التي تعرّف إليها منذ سنتين».

هكذا اتضح كل شيء. وبدأت تتكشف ملابسات الحادث وتترابط شيئاً فشيئاً.

.. «لنتابع، قال السيد فيول بعد أن غادر الكونت الصالة.

.. اعتقد، قال بوترولييه مُبتهجاً، انني اوشكتُ على ختام استنتاجاتي.

.. ولكن ماذا عن الفار، الجريح؟

.. حول هذا الموضوع يا سيدي القاضي احسبُ أنك تعرف

بمقدار ما أعرف... فقد تتبعت أثر تسلّله بين أعشاب باحة الدير...
وتعلم...

- بلى، أعلم... ولكنهم أفلحوا في إجلائه عن المنزل، وما أودّ أن
أعرفه هو بعض المعلومات حول المنزل...»
انفجر بوترولي ضاحكاً.

- «المنزل! المنزل غير موجود! إنها خدعة لتضليل العدالة،
والواضح أنها خدعة رائعة لأنها انطلت عليكم.
- غير أن الدكتور دو لاتر يؤكد...

- آه بلى! ولهذا السبب بالذات قال بوترولي بلهجة واثقة. لأن
الدكتور دو لاتر يؤكد ذلك ينبغي ألا نصدقه. كيف! لم يدل
الدكتور دو لاتر حول مغامرته إلا بمعلومات غامضة! ولم يُرد أن
يدلي بأيّة معلومة من شأنها أن تعرّض أمن زبونه للخطر... وها هو
فجأة يلفت الانتظار الى منزل مزعوم! ولكن كُنْ على ثقة أنّه إذا تلفظ
بكلمة منزل فلأنهم أشاروا عليه أن يذكر شيئاً عن منزل ما. وكن
على ثقة أن كل الرواية التي أدلى بها على مسامعنا قد قرّضت عليه
بالحرف وردّها خوفاً من تعرّضه لعملية انتقام رهيبية. فالدكتور
لديه زوجة وابنة. وأحسب أنه يحبهما بالمقدار الذي يرغبه على
الرضوخ لتهديدات أناس اختبر قوتهم ونفوذهم. ولذلك أدلى
أمامكم بأكثر المعلومات دقّة.

- وهي من الدقّة بحيث أنها تحول دون عثورنا على المنزل.

- لا بل هي من الدقّة بحيث تجعلكم مثابرين على البحث عنه
برغم كلّ الدلائل التي تشير الى أنها كاذبة ولكي تُستدرج جهودكم

ومساعيتكم الى مكان آخر غير المكان الوحيد الذي يمكن أن يختبئ فيه الرجل، هذا المكان الغامض الذي لم يغادره، الذي لم يستطع أن يغادره منذ أن وصل اليه زحفاً على أثر الإصابة التي نالها من بندقية الأنسة دو سان فيران، ولاذ به كما يلوذ حيوان بجحره.

- ولكن أين بحق السماء؟

- بين خرائب الدير القديم.

- ولكن لا وجود لهذه الخرائب! إنها مجرد حيطان متداعية وبعض الأعمدة!

- ومع ذلك يا سيدي القاضي، أجاب بوتروليه بلهجة حانقة، عليكم أن تبحثوا في هذا المكان وهذا المكان فقط! وفيه ستعثرون على أرسين لوبين.

- أرسين لوبين! قال فيول وقد أذهلته المفاجأة.

خيم صمت تشويبه بعض الرهبة. إذ ترددت ملافظ الاسم الشهير، أرسين لوبين، المغامر الكبير وأمير اللصوص، أيعقل أن يكون هو الخصم المهزوم والذي لا يزال، برغم هزيمته، متوارياً، أيعقل أن يكون هو من تواصل البحث عنه عبثاً طوال أيام عديدة؟ ولكن الإيقاع بأرسين لوبين، والقبض عليه يعنيان في نظر قاضي التحقيق الترقية الفورية والثروة والمجد!

لم ينبس غانيمار بكلمة واحدة. فقال له إيزيدور:

- «لا توافقني الرأي يا سيدي المفتش؟»

- بحق السماء!

- وأنت أيضاً لم يساورك الشك لحظة واحدة أنه قد يكون مُدبّر هذه العملية؟

- على الاطلاق! مع أن لمسته مائلة في كل شيء. فالعملية التي يدبّرها لوبين لا تشبه أية عملية أخرى تماماً كما يختلف وجهه عن وجه آخر. ولكي نعرف هذه اللمسة يكفي أن نفتح أعيننا.

- وهل تعتقد فعلاً... هل تعتقد...، كان السيد فيّول يردّد بذهول.

- بلى أعتقد! قال الشاب. لنمعن النظر على سبيل المثال في هذا التفصيل البسيط: ما هي الأحرف الأولى التي يستخدمها الجناة في مراسلاتهم؟ أ. ل. ن، أي الحرف الأول من اسم أرسين ثمّ الأول والآخر من لوبين.

- آه! قال غانيمار أنت لا تغفل عن أدقّ تفصيل؛ إنك خصم عنيد لذلك فإنّ غانيمار العجوز يُلقي سلاحه.

تورّد وجه بوتروليه لسماعه هذا الاطراء وصافح اليد التي مدها المفتش لمصافحته. اقترب الرجال الثلاثة من الشرفة؛ وجالوا بأنظارهم على نطاق الخرائب. وهمس السيد فيّول قائلاً:

«إذاً، لا يزال هنا.

- إنه هنا، قال بوتروليه بصوت خفيض. إنه هنا لم يُغادر مكانه منذ أن أصابته الطلقة. فالمنطق والواقع يؤكدان أنه كان من المستحيل أن يتمكن من الإفلات دون أن تراه الأنسة دوسان فيران أو أحد الخادمين.

- وما برهانك على ذلك؟

- شركاء الجريح هم الذين وفّروا لنا البرهان. ففي صباح اليوم

نفسه انتحل أحدهم شخصية سائق وأقلكما إلى هنا...

- لاستعادة القبعة، قرينة الإثبات.

- بالضبط ولكن أيضاً، لا بل خصوصاً، لتفقد المكان عن كذب
لكي يرى بأم عينيه ماذا حلّ برئيس العصابة.

- وهل نجح في مسعاه؟

- أحسب أنه نجح في ذلك لأنه كان يعرف مكان المخبأ. وأحسب
أنه تثبت من حالة الرئيس المتردية، الأمر الذي دفعه، في غمرة قلقه
عليه، إلى ارتكاب هفوة رسالة التهديد:

«الويل للآنسة إذا كانت قد قتلت الرئيس فعلاً».

- إلا أن رجاله تمكنوا من إجلائه عن المكان فيما بعد، اليس
كذلك؟

- متى؟ رجالك لم يغادروا الخرائب لحظة واحدة. ثم إذا تمكنوا
من نقله فإلى أين؟ ففي مثل هذه الحال لا يمكنهم الابتعاد به أكثر
من بضع مئات من الأمتار إذ يستحيل نقل رجل محتضر في رحلة
طويلة... وفي هذه الحال أيضاً لاستطاع رجالك أن يعثروا عليه. لا،
لا، أؤكد لك أنه هنا. إذ يستحيل أن تراود رجاله فكرة نقله من أكثر
المخابيء أمناً وضمانة. ثم اقتادوا الطبيب إلى هنا أثناء انهماك
رجال الشرطة باخماد الحريق كأنهم صبية.

- ولكن كيف لا يزال على قيد الحياة؟ فلكي يصمد في وكره
يحتاج إلى الطعام والماء!

- ليس لدي ما أقوله بهذا الشأن... لست أدري... لكنه هنا،
أقسم لك. إنه هنا لأن ليس بالامكان أن لا يكون هنا. أنا واثق من
ذلك كما لو أنني أراه كما لو أنني ألمسه. إنه هنا.

كانت إصبعه الممدودة في اتجاه الخرائب ترسم في الهواء دوائر صغيرة تضيق ثم تضيق حتى أصبحت نقطة. وكان رفيقا بوتروليه يبحثان عن هذه النقطة بشغف، وقد أطلا من حافة الشرفة على نطلق الخرائب تتملكهما رعشة القناعة التي فرضها بوتروليه عليهما. بلى، أرسين لوبين كان هناك. النظرية تؤكد أنه هناك وكذلك الوقائع، كان هناك، وما عاد باستطاعة أي منهما أن يدحض هذه القناعة.

وكان في تلك الحقيقة ما يُشيع مناخاً مؤثراً ومأساوياً لجرد أن يتراءى لأحدهم أن المغامر الذي ذاع صيته موجود هناك يلوذ بمخبأه المعتم، طريح التراب لا حول له محموماً ومنهوكاً.

- «وماذا لو فارق الحياة؟ قال السيد فيول بصوت خفيض.

- إذا فارق الحياة، قال بوتروليه، وتثبت رجاله من موته، فعليك أن تسهر على سلامة الأنسة دو سان فيران، يا سيدي المحقق، لأن الانتقام سيكون رهيباً.

بعد ذلك بدقائق وبرغم إلحاح السيد فيول الذي كان يودّ لو يكون له مساعد يمثل هذه البراعة، غادر بوتروليه الذي تنتهي عطلة المدرسية في ذلك اليوم نفسه عن طريق «دييب». فوصل إلى باريس نحو الساعة الخامسة وعند الثامنة كان يجتاز الى جانب رفاقه التلاميذ بوابة ثانوية جانتسون.

أما غانيمار فقد عاد إلى باريس مُستقلّاً القطار السريع عند المساء بعد أن قام بحملة تفتيش دقيقة ومتأنية ولا طائل فيها لخرائب أمبروميزي. وفور وصوله إلى منزله وجد هذه الرسالة المستعجلة:

حضرة المفتش الممتاز،

لقد انتهزتُ بعض أوقات الفراغ التي تسنّت لي هذا المساء لجمع بعض المعلومات الإضافية والتي لا بد أن تسترعي اهتمامك.

إنَّ آرسين لوبين يحيا منذ عام تقريباً في باريس منتحلاً اسم اتيان دو فودرايكس. ولا بدّ أنّك غالباً ما كنت تصادف ذكر هذا الاسم في زوايا أخبار المجتمع أو أصداء أخبار الرياضة في المجلات والصحف. إنّه رجّالة محترف. يتوارى عن الأنظار لفترات طويلة يقول إنه يقضيها في ممارسة الصيد، صيد النمر في البنغال أو صيد الثعلب الأزرق في سيبيريا. ويزعمُ أنه رجل أعمال دون أن يُعرف بالضبط أي نوعٍ من الأعمال تلك التي يتولّى إدارتها.

عنوانه الحالي: ٢٦، شارع ماربوف. (وأرجو أن تلاحظ أن شارع ماربوف ملاصق لمركز البريد رقم ٤٥)؛ ومنذ يوم الخميس ٢٢ نيسان/أبريل، أي عشية الاعتداء الذي تعرّض له دير أمبروميزي، انقطعت أخبار اتيان دو فودرايكس.

وتفضلوا، يا حضرة المفتش الممتاز، بقبول أصدق المشاعر مقرونةً بالامتنان العميق للمودة الكبيرة التي أبديتها نحوّي..

إيزيدور بوتروليه

ملاحظة: ولا تحسبوا خصوصاً أنني تكبّدت مشقة كبيرة في الحصول على هذه المعلومات. ففي صباح اليوم الذي وقعت فيه الجريمة وبينما كان السيّد فيول يتابع تحقيقاته مع بعض المعنّين، دفعني إلهاً سعيد الطالع إلى تفحص قبعة الفارّ قبل أن يتسنّى للسائق المزعوم استبدالها. وكما تعلمون كان اسم صاحب متجر القبعات كافياً لالتقاط أول خيوط السلسلة التي أفضت بي إلى معرفة اسم الرجل الذي ابتاعها وعنوانه.

في صباح اليوم التالي كان غانيمار عند باب الرقم ٢٦، شارع

ماربوف. وبعد أن استجوب حارسة المبنى فتحت له باب الشقة اليمنى من الطبقة الأرضية حيث لم يجد شيئاً سوى بعض الرماد في مدفأة الحائط. فقد جاء اثنان من أصدقاء صاحب الشقة منذ أربعة أيام وأحرقا كل المستندات المشبوهة. ولكن بينما كان السيد غانيمار يهَمّ بالمغادرة التقى ساعي البريد حاملاً رسالة للسيد دوفودرايكس. ولم يحنَ ظهرُ اليوم نفسه حتى رُفعت القضية الى النيابة العامة التي طلبت تسليمها الرسالة. كانت مُرسلةً من أميركا وتحتوي على هذه السطور باللغة الانكليزية:

حضرة السيد،

أعاهد تأكيد الجواب الذي تلقاه وكيل أعمالك. ما أن تصبح لوحات السيد دوجيفر الأربع في حوزتك أرسلها بالطريقة الملائمة. وأرفقها بالبقية إذا استطعت الحصول عليها وهذا امر أخشى أن يكون مستحيلاً.

مضطر للمغادرة الآن بسبب عمل طارئ، لذلك سأصل في الوقت الذي تستلم فيه هذه الرسالة. سأكون في «الگران أوتيل».

هارلنغتون

وفي اليوم نفسه، كان غانيمار مزوداً بمذكرة توقيف، يودع السيد هارلنغتون، وهو مواطن أميركي، في سجن مركز الشرطة بتهمة اقتناء مسروقات والتواطؤ في عملية سرقة.

وهكذا إذا لم تمض أربع وعشرون ساعة إلا وقد حُلّت ملابسات القضية بفضل تعليمات غير متوقعة على الإطلاق وفرها لهم فتى في السابعة عشرة من عمره. في غضون أربع وعشرين ساعة أصبح كل الغموض بسيطاً وواضحاً، في غضون أربع وعشرين ساعة أحبطت هذه المعلومات خطة العصابة لإتقاذ رئيسها، وأصبح القبض على

أرسين لوبين الجريح المحتضر أمراً وشيكاً، وبالإضافة إلى ارتباك رجاله وفقدانهم التنظيم المتماسك فقد كُشف النقاب عن إقامته في باريس وعن الشخصية التي ينتحلها، وبذلك تم اكتشاف خطة له، ولأول مرة، قبل أن يتسنى له تنفيذها كاملةً وهي بلا ريب إحدى أكبر عملياته وأكثرها براعةً وتصميماً ودرساً.

كان وقع هذه الأحداث المتلاحقة شديداً في أوساط الناس وأحدث ضجة أشبه بموجة زهول وإعجاب وفضول. وكان الصحفي من منطقة الرون قد روى في مقالة ناجحة جداً تفاصيل أول استجواب لتلميذ علم البيان، واصفاً تعاونه وسحره الطفولي وما بدا عليه من الثقة بالنفس والهدوء. وقد ساهمت بعض التصريحات التي أدلى بها غانيمار والسيد فيول والتي اتسمت أحياناً بحماسة تفوق حس الكبرياء المهني، في اطلاع الجمهور على الدور الذي لعبه بوتروليه خلال الأحداث الأخيرة. فهو قد أنجز المهمة كاملةً. وهو وحده يستحق ثناء النصر.

وازداد الحماس. وأصبح إيزيدور بوتروليه بطلاً بين ليلة وضحاها، وطالب الجمهور الذي شغف بالموضوع بالمزيد من التفاصيل الموسعة حول الفتى الموهوب. ولم يلبث أن تجمهر مراسلو الصحف أمام باب ثانوية جانسون - دو - سايي، يترقبون مرور التلاميذ الخارجين بعد انتهاء صفوفهم للحصول على معلومات حول كل ما يتعلق، من قريب أو من بعيد، بالمدعو بوتروليه. وهكذا ذاعت شهرة التلميذ الذي كان رفاقه يطلقون عليه لقب منافس شرلوك هولمز. فقد كان يستخدم أصول الاستدلال والمنطق ويكتفي بقراءة المعلومات التي تنشرها الصحف، وأفلح

مراراً في إيجاد حلول لقضايا معقدة لا تهتدي إليها العدالة إلا متأخرة. وكانت التسلية السائدة بين تلاميذ ثانوية جانسون أن تُطرح على بوتروليه مسائل عويصة وقضايا ملغزة، وكانت الدهشة تخيم على الجميع حين يرى السائل كيف يهتدي بوتروليه الى نهج استدلال عبر التحليل الواثق وعبر الاستنتاجات المنطقية البارعة. فقبل عشرة أيام من اعتقال صاحب دكان البقالة جوريس، كان إيزيدور قد أشار الى القسم المتحرك من المظلة المشهورة. وكذلك الأمر، كان قد أكد منذ البداية بشأن جريمة سان - كلو، أن حارس المبنى هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون القاتل.

إلا أن الأطراف في كل ذلك كان الكتيّب الذي وجد قيد التداول بين تلاميذ الثانوية وهو كتيّب يحمل توقيعيه وقد طُبِع على الآلة الكاتبة في عشر نسخ ويحمل العنوان التالي: «أرسين لوبين، طريقة عمله، الجانب التقليدي منه والجانب المتميز» - ويتبع هذا النصّ مقارنة بين الفكاهة الانكليزية والسخرية الفرنسية.

كان الكتيّب يشتمل على دراسة معمّقة لكل مغامرة من مغامرات أرسين لوبين، حيث تبدو وسائل اللصّ الشهير بوضوح مدهش، وحيث تبرز آلية سلوكه والتكتيك الخاص الذي يستخدمه، وكذلك رسائله الى الصحف، وتهديداته، والإعلان المسبق عن السرقات التي سيرتكبها، أي باختصار، كل الحيل التي كان يستخدمها «لطبخ» الضحية المختارة ووضعها في حالة ذهنية ونفسية تجعلها منقادة للعملية المدبّرة باتقان بحيث يتم كل شيء برضى الضحية نفسها.

وكان نقد بوتروليه صائباً وثاقباً وحيّاً تشوبه سخرية بارعة

وشديدة القسوة، فما لبث الساخرون منه في البداية أن انحازوا الى صفه، وانتقل تعاطف الجمهور مباشرة من صفّ لوبين الى صف إيزيدور، وبات الرأي السائد أن الصراع بين الخصمين محسوم سلفاً لصالح عالم البلاغة الشاب.

وبأية حال فإن السيد فيّول ومعه النيابة العامة في باريس كانا حريصين على إبداء تمنّياتهما بفوز نصير العدالة. والحقيقة أنّ التحريّات لم تؤل من جهة، إلى تحديد هوية السيد هارلنغتون لأنه تعذّر عليهم الحصول على دليل حاسم يؤكّد صلته بعصابة لوبين. فقد كان يلزم صمتاً مطبقاً حيال السؤال عن شراكته في عملية السرقة. لا بل أكثر من ذلك، فبعد التدقيق في خطّه أصبح من غير الممكن التأكيد بشكل حاسم أنّه هو كاتب الرسالة المصادرة، فكلّ ما يمكن تأكّيده حسب الوقائع أن شخصاً يدعى السيد هارلنغتون ويحمل حقيبة سفر ومحفظة مليئة بعدد كبير من الأوراق النقدية قد نزل في «الگران أوتيل».

أمّا من جهة أخرى فقد كان السيد فيّول في «دييب» يراوح في المواقع التي أحرزها له بوتروليه. ولم يتقدم خطوة واحدة. فما زال الغموض يخيم على هويّة الشخص الذي ظنّت الأنسة دوسان فيران عشية الجريمة أنه بوتروليه. كما أن غموضاً مماثلاً يلابس كلّ ما يتعلق بسرقة لوحات روبنز الأربع. ما الذي حلّ بهذه اللوحات؟ وما هي الطريق التي سلكتها السيارة التي نقلتها أثناء الليل؟

فقد تمّ التثبت من عبورها لوفيراى ويرفيل وإيفتو، وكذلك الأمر في كودوبك أونكو حيث اجتازت نهر السين عند الفجر على متن

عبارة بخارية. ولكن التحريات المتقدمة أثبتت أنه بعد العثور على السيارة المذكورة تبين أنه من المستحيل أن توضع فيها أربع لوحات كبيرة الحجم دون أن يلحظ عمال العبارة وجودها. والمرجح أنها السيارة إياها، فيصبح السؤال إذاً: ماذا حلّ بلوحات روبنز الأربع؟

عدد من الأسئلة لم يجد السيد فيول أجوبة لها. كان رجاله يعاودون البحث كل يوم في النطاق المربّع للخرائب. وكان يشرف كل يوم تقريباً على أعمال البحث والتحري. ولكنه لم يقترب قيد شعرة من احتمال العثور على مخبأ لوبين المحتضر - هذا إذا كان افتراض بوتروليه صحيحاً - إذ يرى المحقق القضائي أن هوة سحيقة تحول دون العثور عليه ولا قدرة له بعدُ على اجتيازها.

لذلك كان من البديهي أن تصوّب الأنظار نحو إيزيدور بوتروليه، لأنه الوحيد الذي لولا تدخله كان الغموض سيخيم مجدداً على القضية ليزيدها تعقيداً ولبساً. فلماذا لا يتابع هذه القضية بحماسة المعهودة؟ فما توصل اليه لا ينقصه إلا القليل من الجهد للإفضاء إلى الحل النهائي.

لقد طُرح عليه السؤال من قبل أحد محرري «الگران جورنال»، الذي استطاع أن يتسلّل إلى داخل ثانوية جانسون منتحلاً اسم برنو، وكيل ذوي بوتروليه. وقد أجاب إيزيدور بلهجة حكيمة:

- «يا سيدي العزيز، أتحسب أنه ليس في العالم سوى لوبين وقصص السرقات والتحريات؛ تذكر أيضاً أن هناك حقيقة أخرى اسمها البكالوريا. فالامتحانات النهائية في تموز/يوليو ونحن اليوم

في أيار/مايو. وليس في نيتي أن أرسب. فلو رسبت ماذا يقول عني
والدي الطيب؟

- ولكن ماذا تراه يقول لو أنك أفلحت في تسليم أرسين لوبين
لقبضة العدالة؟

- أوه! لكل أمر وقته. ربّما في العطلة القادمة...

- عطلة عيد العنصرة؟

- أجل. سأغادر على متن أول قطار يوم السبت في
٦ حزيران/يونيو.

- ويوم السبت مساءً يصبح أرسين لوبين في قبضة العدالة.

- ألا تمّد لي المهلة حتّى يوم الأحد؟ سأله بوتروليه ضاحكاً.

- وما الداعي لهذا التأخير؟ أجابه الصحافي بنبرة جادة.

لقد كانت تلك الثقة غير المفسّرة، وليدة البارحة والمتينة برغم
ذلك، تخالط نظرة الجميع الى التلميذ الشاب وإن كانت الوقائع لا
تبرّرها إلّا في حدود معينة. ولكن مهما كان من أمر الوقائع! كان
الجميع يؤمن بقدراته. فهو الذي لا يصعبُ عليه شيء. والمؤمل منه
ما يؤمل عادةً من قدرات من نفاذ البصيرة والحدس، ومن التجربة
الطويلة وحسن الدراية.

في ٦ حزيران/يونيو تصدر هذا التاريخ صفحات كلّ الجرائد.
ففي ٦ حزيران/يونيو سيستقل إيزيدور بوتروليه القطار السريع
إلى «دييب» وفي مساء اليوم نفسه سيُلقي القبض على أرسين لوبين.

- «إلا إذا استطاع الفرار في الأثناء...» قد يقول بعض من تبقى
من المعجبين بالمغامر الشهير.

– مُستحيل! فكلّ المنافذ مراقبة.

– إلّا إذا قضي متأثراً بجراحه، يجيب أنصار المغامر الذين يفضلون أن يموت بطلهم على أن يقع في الأسر.

أما الجواب على الجواب فكان على النحو التالي:

«ما هذا الهراء، لو أن لوبين قد مات فعلاً لبلغ الأمر رجاله ولسارعوا الى الانتقام، كما قال بوتروليه».

وحلّ يوم ٦ حزيران/يونيو. وتجمهر نصف دزينة من الصحفيين في محطة سان لازار في انتظار وصول إيزيدور. وأصرّ اثنان منهم على مرافقته في رحلته هذه. فرجاها أن لا يفعلا.

سافر إذاً بمفرده. وكانت المقطورة التي استقلها خالية من المسافرين، فلم يلبث أن استغرق في سبات عميق لفرط ما أرهاقته الليالي السابقة التي كرّسها للدراسة. وفي أحلامه رأى القطار يتوقف في عدد من المحطات وأناساً ينزلون منه وآخرين يستقلونه. وعندما استيقظ، على مشارف رومن، كانت المقطورة لا تزال خالية. ولكنه لمح على المقعد المقابل ورقة كبيرة ثبتت الى القماش الرمادي بدبّوس. وقد دوّن عليها ما يلي:

«لكل امرئ أن يُعنى بما يعنيه. حاول أن تهتمّ بما يعنّيك وإلّا فانت الخاسر الوحيد».

– «يا للروعة! قال مبتهجاً. الأمور تزداد سوءاً في صفوف الخصوم. فهذا التهديد ليس أقلّ غباءً من تهديد السائق المزعوم. يا له من أسلوب! من الواضح أنّ كاتب هذه العبارة ليس لوبين».

كان القطار قد توغل داخل النفق الذي يقضي الى مشارف المدينة النورماندية القديمة. وعندما وصل الى المحطة راح إيزيدور يتمشى على الرصيف لترويض ساقيه. ثم ما أن هم بالصعود مجدداً الى المقطورة حتى انطلقت منه صرخة مباغتة. فإثناء مروره من أمام المكتبة قرأ سهواً على الصفحة الأولى من طبعة «جورنال دورون» الخاصة هذه السطور التي تنبّه فجأة الى دلالتها المربعة:

آخر ساعة - لقد تلقينا هذا المساء اتصالاً هاتفياً من «دييب»، يفيدنا بأن عدداً من الجناة قد تسلكوا إلى قصر أمبروميزي واختطفوا الأنسة دو سان فيران بعد أن كبلوا الأنسة دو جيفر. وقد عثر على آثار دماء على بعد خمسمئة متر من القصر وعلى بعد خطوات من الموضع نفسه عثر على وشاح ملطخ بالدماء أيضاً. ويخشى أن تكون الفتاة البائسة قد قتلت فعلاً.

مكث إيزيدور بوتروليه لا يحرك ساكناً حتى وصوله الى «دييب». كان مستغرقاً في أفكاره وقد أحنى جذعه مسنداً مرفقيه الى ركبتيه فيما يدها تغطيان وجهه. ومن «دييب» استأجر سيارة. وعندما وصل إلى مدخل أمبروميزي التقى قاضي التحقيق الذي أكد له الخبر المروع.

- «أليس لديك معلومات أخرى حول الاعتداء؟ سأله بوتروليه.

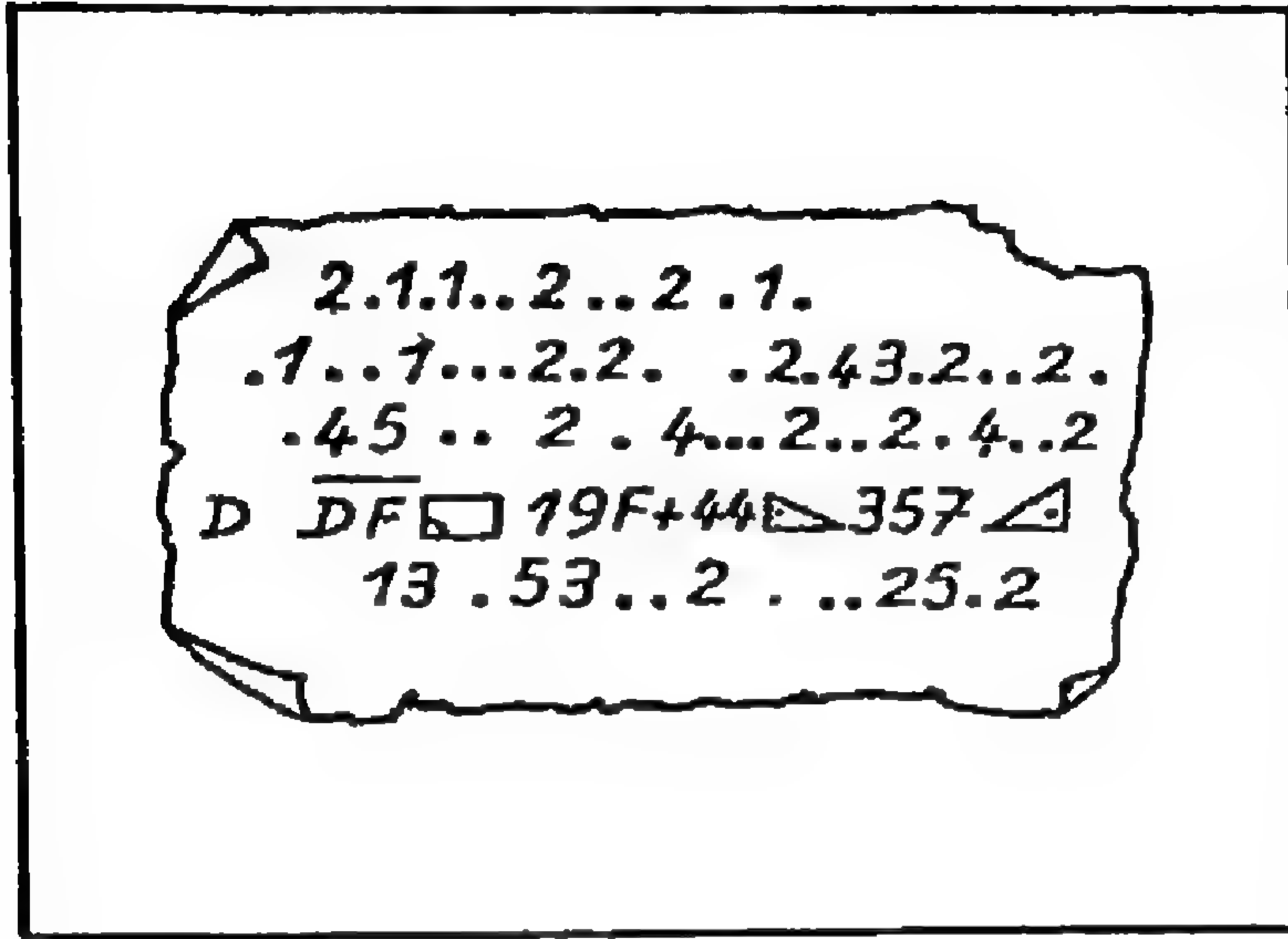
- لا، لا شيء، لقد وصلت لتوي».

وفي هذه الأثناء كان مفوض الشرطة يقترب من السيد فيول ويسلمه قصاصة من الورق مجعوكه وممزقة وصفراء كان قد عثر عليها على مقربة من المكان الذي وجد فيه الوشاح. تفحصها السيد

فَيُؤَلِّمُ ثُمَّ يُعْطَاهَا لِإِيزِيدُورَ بُوْتِرُولِيَه قَائِلًا:

«هَذَا مَا لَنْ يَسَاعِدَنَا كَثِيرًا فِي تَحْرِيَاتِنَا».

قَلَّبَ إِيزِيدُورُ قِصَاصَةَ الْوَرَقِ بَيْنَ يَدَيْهِ. كَانَتْ مَلِيئَةً بِالْأَرْقَامِ وَالنُّقَاطِ وَالْعَلَامَاتِ وَتَمَثَّلَ هَذِهِ كُلُّهَا الرَّسْمُ الَّذِي نَشَبَتْهُ فِي مَا يَلِي:



الفصل الثالث

الجنة

نحو السادسة مساءً وبعد أن أنهى كل الإجراءات والتحريات اللازمة، كان السيد فيول ينتظر برفقة كاتبه السيد بريدو، السيارة التي ستقلهما إلى «دييب». وكان السيد فيول عصبي المزاج مضطرباً فسأل الكاتب مرتين على التوالي:

– «الم تلمح الفتى بوتروليه؟»

– لا، لم أره يا سيدي القاضي.

– أين ذهب بحق الجحيم؟ لم يلمحه أحد طيلة النهار.

وفجأة راودته فكرة فأعطى حافظة أوراقه إلى بريدو ودار حول القصر مهرولاً ثم اتجه نحو الخرائب.

وهناك قرب الرواق المقنطر الكبير كان إيزيدور مستلقياً على بطنه على التراب المكسو بإبر الصنوبر وقد طوى إحدى ذراعيه وأسند جبينه إليها.

– «ما الأمر! ماذا حلّ بك أيها الفتى؟ هل أنت نائم؟»

– لا لست نائماً. بل أفكر.

– ليس هذا وقت التفكير! ينبغي أن نعاين أولاً. ينبغي أن ندقق

في الوقائع وأن نبحث عن القرائن وأن نحدّد نقاط استدلال. ولا نبداً بالتفكير إلّا بعد أن تنجز كل هذه الأمور لنتمكّن من الربط في ما بينها سعياً لاكتشاف الحقيقة.

- أجل، أعرف ذلك... إنه الأسلوب المتّبع عادة... وهو الأسلوب الصحيح بلا ريب. أما أنا فلديّ أسلوب آخر. أنا أفكر أولاً، أحاول قبل كل شيء أن أهتدي الى الفكرة العامّة التي تلخّص القضية، إذا جاز لي أن أستخدم هذه العبارة. ثمّ أبدأ بتصوّر فرضية معقولة، فرضية منطقية تتلاءم وتلك الفكرة العامّة. وبعد ذلك ألجأ الى المعاينة. هذا إذا كانت الوقائع تريد فعلاً أن تتطابق مع فرضيتي.

- إنه أسلوب غريب ومعقد جداً.

- أسلوب مضمون النتائج يا سيّد فيّول بينما أسلوبكم أنتم ليس كذلك.

- ولكن الوقائع هي الوقائع.

- هذا إذا كان الخصوم من الطراز العادي، بلى أشاطرك الرأي، إلّا إذا كان الخصم واسع الحيلة خداعاً فإن الوقائع عندئذٍ لا تكون إلّا تلك التي يختارها هو. فهذه القرائن التي عليها تبني مجريات تحقيقك أليست هي نفسها التي خلفها الجاني بملء إرادته ورغبته؟ وأنت تدرك جيّداً أنّ ما نحن في صددده ليس أقلّ من صنع رجل من طراز لوبين، وتعلم حقّ العلم إلى أين قد يُفضي بنا ذلك، نحو أي نوعٍ من الأخطاء والحماقات! فحتى هولز بالذات وقع في شركٍ مماثل.

- لقد مات أرسين لوبين.

- ليكن. إلّا أن أفراد عصابته ما زالوا على قيد الحياة، وتلاميذ

معلم من طرازه لا بد أن يكونوا من طينة المعلمين هم أيضاً.

أمسك فيّول بذراع إيزيدور وجذبه للسير الى جانبه:

«ما تقوله ليس سوى كلام أيها الفتى. وهاك ما هو أكثر أهمية. اسمع جيداً. إن غانيمار المنهمك ببعض المشاغل في باريس لن يصل إلّا في غضون بضعة أيام. ومن ناحية أخرى أبرق الكونت دو جيفر في طلب شرلوك هولمز الذي وعد بالمساعدة على حل القضية ابتداءً من الأسبوع المقبل. إذاً ألا ترى أيها الفتى أن ثمة ما يستحقّ العناية إذا استطعت أن تقول لهذين الرجلين الشهيدين يوم وصولهما: «آسف جداً أيها السيدان، ولكننا لم نستطع الانتظار أكثر مما فعلنا. لقد أنجزت المهمة؟».

كان من المستحيل فعلاً أن يعترف رجلٌ بعجزه بمثل اللباقة التي اعترف بها ذاك الرجل الطيب الذي يدعى السيد فيّول. فكبح بوتروليّه ابتسامةً لاحت على شفقيه وأجاب بلهجة من انطلت عليه الاطراءات:

«أعترف لك يا سيدي المحقق، أنني وإن تخلفتُ عن مجريات تحرياتك فإنما فعلت ذلك على أمل أن تطلعني على الاستنتاجات التي توصلت اليها. لنر إذاً، إلى أين وصلت؟

«إليك ما أعرفه. مساء أمس، عند الحادية عشرة، تلقى الشرطيون الثلاثة الذين كلّفهم المفوض كيفيون بحراسة القصر، أمراً خطياً وموقعاً من قبل المفوض المذكور بالالتحاق بأسرع ما يمكن ببقية مفررتهم في أوفيل. وما أن تلقوا الأمر حتى امتطوا جيادهم وغادروا، ولكن ما إن وصلوا إلى هناك...

– أدركوا أنها خدعة وأن الأمر الخطي مزور ويتوجب عليهم العودة فوراً الى أمبروميزي.

– وهذا ما فعلوه، فعادوا برفقة المفوض. إلا أن غيابهم عن القصر استغرق ساعة ونصف الساعة، وخلال هذه المدة وقعت الجريمة.

– وما الملابس التي رافقتها؟

– من أبسط ما تكون. أحضر الجناة سلماً من مبنى المزرعة وأسندوه الى حائط الطبقة الثانية من القصر. وعمدوا الى قطع زجاج إحدى النوافذ ودخلوا منها. دخل رجلان مزودان بمسدس كاتم للصوت الى حجرة الأنسة دوجيفر وكبلاها قبل أن يتسنى لها أن تستغيث. ثم، بعد أن أوثقاهما بالحبال وكمما فمها فتحت باب حجرة الأنسة دوسان فيران. سمعت الأنسة دوجيفر أنيناً مكتوماً ثم جلبه شخص يُقاوم. وبعد ذلك بدقيقة واحدة شاهدت الرجلين اللذين كانا يحملان ابنة عمها وقد كبّلت هي أيضاً وكمم فمها. ثم عبرا من أمامها وخرجا من النافذة. ولم تلبث الأنسة دوجيفر أن فقدت رشدها لشدة خوفها وإعيائها.

– والكلبان؟ ألم يُحضر السيد دوجيفر كلبين هولوسيين للحراسة؟

– لقد عُثر عليهما مقتولين بواسطة السم.

– من استطاع أن يقتلهم؟ فلا أحد يجرؤ على الاقتراب منهما.

– أمر غامض! ولكن المهم أن الرجلين اجتازا دون أن يعترضهما أحد خرائب الدير وخرجا من الباب الصغير الذي تعرفه جيداً. ثم اجتازا الغابة بمحاذاة المقاتل المهجورة. ولم يتوقفا لحظة واحدة إلا

عند شجرة تدعى «السنديانة الكبيرة» على بعد خمسمئة متر من القصر... وهناك ارتكبا جريمتهما.

- إذا كان القصدُ من مجيئهما الى القصر هو قتل الأنسة دوسان فيران فلماذا لم يجهزا عليها في حجرتها؟

- لست أدري. ربّما لم يطرأ ما يجعلهما مصمّمين على قتلها إلا بعد خروجهما من القصر. أو ربّما استطاعت الفتاة أن تتحرّر من قيودها. لذلك أعتقد أن الوشاح قد استخدم لتكبير معصميهما. والمؤكد في أية حال أنهما أجهزا عليها عند «السنديانة الكبيرة». فالأدلة التي جمعتها لدي تؤكد ذلك بصورة حاسمة...

- وماذا عن الجثة؟

- لم يُعثَر على الجثة، إلّا أن هذا الأمر ليس مُستهجنًا بأية حال. فقد أفضت بي التحريات التي أجريتها أثناء تتبعي لآثار الجناة إلى كنيسة فارونجيل قرب المقبرة القديمة التي تقع على قمة الهضبة. ومن هناك يبدأ المنحدر الحاد... هاوية يبلغ عمقها نحو مئة متر، وفي الأسفل الصخور والبحر. وفي غضون يوم أو يومين، لن يلبث المدّ العالي أن يلفظ الجثة ناحية الشاطئ الصخري.

- طبعاً، كلّ الوقائع واضحة وبسيطة.

- أجل، من أبسط ما يكون ولا أجدني مُرتبكاً حيالها. لقد مات لوبين وعلم رجاله بالأمر فعمدوا تنفيذاً لتهديدهم بالانتقام الى قتل الأنسة دوسان فيران. كلّ هذه الوقائع لا تستدعي أي اجتهاد أو تمحيص. ولكن ماذا عن لوبين؟

- لوبين؟

- أجل، ماذا حلّ به؟ لا بدّ أن رجاله قد نقلوا جثته في الوقت

نفسه الذي اختطفوا فيه الفتاة، ولكن ما هو الدليل على ذلك؟ لا نملك أي دليل. تماماً كما لا نملك دليلاً على إقامته الطويلة بين الخرائب أو على موته أو نجاته. وهنا موضع السريّة عزيزي بوتروليه. فقتل الأنسة ريموند ليس بداية الحلّ، بل على العكس، إنّه تعقيد إضافي. ما الذي حدث منذ شهرين في قصر أمبروميزي؟ وفي حال عدم توصلنا إلى حلّ لهذا اللغز فسيأتي آخرون ويرغموننا على الانسحاب من القضية.

- وفي أي يوم سيصل هؤلاء الآخرون؟

- يوم الأربعاء أو ربّما الثلاثاء....

بدا بروتوليه مُستغرقاً في حسابات سريعة، ثمّ قال:

- «سيدي المحقّق، اليوم السبت. وينبغي أن أعود إلى الثانوية مساء يوم الاثنين. إذاً صباح يوم الإثنين حاول أن تكون هنا عند العاشرة صباحاً وسأحاول من جهتي أن أطلعك على مفتاح اللغز.

- حقاً يا سيّد بوتروليه... أتظنّ فعلاً؟ أنت واثق ممّا تقول؟

- على الأقلّ أمل أن أستطيع.

- والآن، إلى أين تذهب؟

- أنا ذاهب لأرى إذا كانت الوقائع تتلاءم والفكرة العامة التي بدأت ترتسم في ذهني.

- وإذا كانت لا تتلاءم وفكرتك؟

- في هذه الحال يا سيّد القاضي تكون الوقائع هي المخطئة، قال بوتروليه ضاحكاً، وعندئذٍ سأبحث عن وقائع أخرى أكثر ملاءمة. إلى يوم الاثنين، أليس كذلك؟

– إلى اللقاء يوم الإثنين..

بعد دقائق معدودة كان السيد فيول يتوجّه نحو «دييب»، بينما سلك إيزيدور الطريق المؤدية إلى برفيل وكودوبك أنكو على دراجة هوائية استلفها من الكونت دوجيفر.

فثمة أمر أراد الفتى أن يتثبت منه قبل أن يتكوّن لديه رأي واضح، لأنّ هذا الأمر بدا له المنفذ المثالي إلى نقطة ضعف الخصم. إذ لا أحد يستطيع أن يُخفي مسروقات بحجم لوحات روبنز، لذلك لا بدّ أن تكون موجودة في مكان ما. وإذا كان يستحيل العثور عليها في الوقت الحاضر إلا يمكنه اكتشاف الطريق التي سلكتها قبل أن تختفي؟

لقد كانت فرضية بوتروليه هي التالية: لا بدّ أن تكون السيارة قد نقلت فعلاً اللوحات الأربع ولكن قبل أن تصل إلى كودوبك أنزلت منها ووضعت في سيارة أخرى عبرت نهر السين إمّا في اتجاه أعلى مجراه إمّا في اتجاه أسفله. ففي اتجاه أسفل المجرى فإنّ أول حوض هو حوض كيبوف الذي يشهد حركة كثيفة ويشكل بالتالي مكاناً غير آمن. أما في اتجاه أعلى المجرى فهناك حوض لا مايوريه، وهي بلدة معزولة وخارج نطاق كل وسائل الاتصال.

نحو منتصف الليل كان إيزيدور قد اجتاز الثمانية عشر فرسخاً التي تبعده عن لا مايوريه، وكان يقرع باب فندق صغير محاذٍ لضفة النهر حيث أمضى ليلته. ومنذ الصباح الباكر راح يستجوب البحّارة الذين يعملون في الحوض والمعدية. تمّ الكشف على سجلّ المسافرين وتبيّن أن آية سيارة لم تعبر يوم الخميس في ٢٣ نيسان/أبريل.

– «إذاً عربية خيل؟ لَمَح بوتروليه، أو طُنبر، أو رِيّما مقطورة؟

– لا، لا ذكر لمثل هذه الأشياء في السجل».

واصل إيزيدور تحريّاته طيلة فترة ما قبل الظهر. وكان على وشك المغادرة في اتجاه كييف عندما استوقفه خادم الفندق حيث أمضى ليلته وقال له:

– «في صباح ذلك اليوم كنتُ عائداً من عطلتي السنويّة ورأيتُ عربية خيل بالفعل، ولكنها لم تعبر.
– ماذا؟

– لا، لم تعبر. فقد أنزلت حمولة العربية ووضعت على زورق مُسطح للإنزال، كما يسمونه، كان راسياً عند رصيف الميناء.

– وتلك العربية، من أين جاءت؟

– أوه! لقد عرفتُها على الفور. إنها عربية المعلّم فاتينل العرباتي.

– الذي يقطن؟

– قرية لوفوتو».

تفحص بروتوليه خارطة المنطقة التي يحملها، وتبين له أنّ قرية لوفوتو تقع عند تقاطع طريق يفيتو وكودوبك والطريق المتعرجة الضيقة التي تجتاز الغابة وصولاً الى لا مايوريه!

ولم يفلح إيزيدور في العثور على المعلّم فاتينل إلّا نحو السادسة مساءً في إحدى الحانات، وبدأ أنّه من طينة أولئك النورمانديين الدهاة الذين يمكنون على تريضهم ولا يخفون حذرهم من الغرباء، إلّا أنهم لا يستطيعون أن يقاوموا إغراء قطعة نقود ذهبية أو تأثير بضعة أقداح.

– «بلى، يا سيّد، لقد كان موعدي مع أولئك السادة، ركّاب
السيّارة، في الخامسة صباحاً عند تقاطع الطرق. وسلموني أربع
لوحات كبيرة تبلغ هذا المقدار من العلو. ورافقني أحدهم ونقلنا هذه
الأشياء الى زورق الإنزال.

– تتحدّث عنهم كما لو أنّك تعرفهم من قبل.
– بالطبع أعرفهم من قبل! لقد كانت تلك سادس مهمّة أنجزها
لصالحهم.

فانتفض إيزيدور لسماعه هذا الكلام.

– «تقول إنها المرّة السادسة؟... ومنذ متى؟

– كلّ يوم قبل ذلك اليوم، بحق السماء! ولكنّ الحمولة في المرّات
السابقة كانت مختلفة... أحسب أنها قطع كبيرة من الحجارة...
وقطع أخرى أضال حجماً ومستطيلة، يغطّونها دائماً بالخرق
ويحملونها بحذر كأنها القربان المقدّس. وكانوا يأمرّون بأن لا
تمسّ... ولكن ماذا أصابك؟ أراك شاحباً.

– لا، لا شيء... إنه الحرّ...».

خرج بوتروليه مترنحاً. فقد أسكرته المفاجأة، وبهجة أن يعرف
ما لم يكن في حسبانته.

عاد أدراجه مطمئناً، وأمضى ليلته في فارونجفيل، وفي صباح
اليوم التالي أمضى ساعة من الزمن في مبنى البلدية برفقة مدرّس
البلدة ثمّ سلك طريق العودة الى القصر. وهناك وجد رسالة في
انتظاره «كان السيّد الكونت دوجيفر قد تكرّم بحفظها له».

كانت الرسالة تحتوي على هذه العبارة:

«الإنذار الثاني إلزم الصمت. وإلا...».

«إذاً، قال كأنه يكلم نفسه، ينبغي أن تُتخذ بعض الاحتياطات لضمان سلامتي الشخصية. وإلا، كما يقول هؤلاء...».

كانت الساعة قد شارفت التاسعة. فتنزّه طويلاً بين الخرائب ثم استلقى على الأرض قرب الرواق المقنطر وأغمض عينيه.

- «ما الأمر، أيها الفتى، هل أنت راضٍ عن حملتك؟».

كان ذلك هو السيد فيول الذي وصل في التوقيت المتفق عليه..

- «بل مسرور، يا حضرة المحقق».

- وهذا يعني؟

- هذا يعني أنني جاهز الآن للوفاء بوعدى، برغم هذه الرسالة غير المشجعة على الإطلاق».

وأطلع السيد فيول على مضمون الرسالة.

- «دعك من هذا الهراء! مجرد ترهات، وآمل أن لا يحول ذلك دون...».

- دون أن أطلعك على ما أعرفه؟ لا، يا حضرة القاضي. لقد قطعت وعداً: وسأفي بالوعد، في غضون عشر دقائق سنعرف... جزءاً من الحقيقة.

- جزءاً من الحقيقة؟

- أجل، أعتقد أننا سنكتشف المكان الذي يختبئ فيه لوبين، وهذا لا يعني أن القضية قد حُلّت برمّتها. أمّا الباقي فسوف سيطرأ بشأنه.

— يا سيّد بوتروليه ما عدتُ أُعجب لأي شيء تفعله. ولكن قل لي كيف استطعت أن تكتشف مكانه؟ ...

— أوه! كأبسط ما يكون! فثمة في رسالة السيّد هارلنغتون إلى السيّد إتيان دوفودرايكس، أو الأخرى إلى لوبين...

— الرسالة المصادرة؟

— أجل. ثمة عبارة أثارت فيّ الفضول وحيرتني. وهذا نصّها: «... أرسلها (أي اللوحات) بالطريقة الملائمة. وأرفقها بالبقية إذا استطعت الحصول عليها. وهذا أمر أخشى أن يكون مستحيلاً».

— بالفعل أذكر هذه العبارة.

— ما هي البقية؟ تحفة فنيّة، قطعة نادرة؟ لم يكن في القصر من الأشياء الثمينة سوى لوحات روبنز والسجادات. أهي مجوهرات؟ لا يوجد في القصر إلّا القليل منها وهي غير ذات قيمة. إذاً ماذا؟ ومن ناحية أخرى، أيعقل أن لصاً من طراز لوبين الذي يُشهد له بالبراعة الفائقة، قد فشل في أن يرفق اللوحات بهذه البقية التي لا بدّ أنّه هو الذي اقترحها على كاتب الرسالة؟ فقد تكون المهمة صعبة، وهذا المرجّح، واستثنائية، فليكن، ولكن ممكنة، أي مضمونة، لأن لوبين عازم على تنفيذها.

— ومع ذلك أخفق! إذ لم يُفقد شيء.

— لم يُخفق: لقد فُقد شيء.

— بلى، لوحات روبنز... ولكن...

— لوحات روبنز وشيء آخر... شيء ما تمّ استبداله بشبيه له، كما فعلوا بلوحات روبنز، شيء ما يفوق لوحات روبنز روعةً وندرةً وقيمةً.

– إذا ماذا يكون هذا الشيء؟ لقد أسقمتني».

سار الرجلان بين الخرائب وتوجَّها نحو الباب الصغير بمحاذاة كنيسة «لا شابيل ديو».

ثم توقف بوتروليه.

– «أتودَّ فعلاً أن تعرف يا سيدي القاضي؟

– بالطبع أريد!».

كان بوتروليه يحمل عصا في يده، عبارة عن قضيب ثخين ذي عقد. وبضربة مباغتة من هذه العصا حطَّ أحد التماثيل التي تزيّن القوس القوطية لدخل الكنيسة.

– «هل جُنتت! صرخ فيّول غاضباً وقد هرع نحو أجزاء التمثال المتناثرة. هل جُنتت! إنه تمثال رائع...»

– رائع! قال إيزيدور وكّرر ضربته فحطّم تمثال مريم العذراء.

فطوّقه السيّد فيّول بذراعيه محاولاً رذعه.

– «آيها الفتى لن أدعك تتركب...».

فتناثر تمثال آخر لأحد المجوس، ثم مهدأ وفيه الطفل يسوع...

– «حركة أخرى وأطلق النار».

كان الكونت دوجيفر قد ظهر فجأة حاملاً مسدّسه.

فانفجر بوتروليه ضاحكاً.

– «هيا أطلق عليها النار يا سيدي الكونت... أطلق عليها النار».

كما في الأعياد الجوّالة. خذ مثلاً.. هذا الرجل الذي يغطي وجهه براحتيه.

وتناثر تمثال القديس يوحنا المعمدان.

ـ «آه! قال الكونت... مصوباً مسدسه نحوه، يا له من تدنيس للمقدّسات!... مثل هذه التحف الفنيّة!

ـ إنها خردة، يا سيّدي الكونت!

ـ ماذا؟؟ ماذا تقول؟ صرخ السيّد فيّول وقد انتزع المسدّس من يد الكونت.

ـ خردة، أو كرتون مجصّص!

ـ آه! أيعقل هذا؟

ـ نفيخة! خواء! عدم!..»

انحنى الكونت ولمّ قطعة من حطام تمثال.

ـ «انظر جيداً يا سيّدي الكونت... إنّه من الجصّ! جصّ مطلي بالأكسيد، متعفن ومطحلب مثل حجر قديم... لكنّه جصّ، نماذج مصنوعة من الجصّ... هذا كل ما تبقى من التحف النادرة... وهذا ما فعلوه في أيام معدودة!... وهذا ما أعدّ له السيّد شاربونيه، ناسخ لوحات روبنز، منذ عام تقريباً».

وبدوره أمسك بذراع السيّد فيّول.

ـ «وانت، ما رأيك يا سيّدي القاضي؟ أهو أمر جميل؟ أم ضخم؟ أم هائل؟ الكنيسة المسروقة! كنيسة كاملة، كنيسة قوطية شيّدت حجراً حجراً بعناية! جمهرة كاملة من التماثيل الصغيرة استبدلت بشخوص الخردة هذه! أحد أروع النماذج المعمارية لعصر كامل

من الفن الذي لا يُضاهى، صودر خلسة! وأخيراً سُرقت «لا شابيل ديوه»! أليس رائعاً! آه! يا حضرة المحقق، يا لعبقرية هذا الرجل!
- أراك مُستسلماً لحماس مفرط، يا سيد بوتروليه.

- لا يكون الحماسُ مفرطاً على الإطلاق، يا سيّدي، عندما يكون إعجاباً بمن هم من طراز هذا الرجل، فكلّ ما يتعدّى الوسط يستحقّ إعجابنا، وهذا الرجل يتفوّق على الجميع. ففي هذه السرقة ما فيها من سعة الادراك والقوّة والسطوة والبراعة والرشاقة، ما يجعلني أرتعش احتراماً.

- من المؤسف أنّه فارق الحياة، قال السيّد فيّول ساخراً... وإلاّ لانتهى به الأمر الى سرقة أبراج «نوتردام».
هزّ إيزيدور كتفيه.

- «لا شيء يدعو الى السخرية يا سيّدي. فهذا الرجل يثيرُ الاضطراب في روعك حتى ولو كان ميتاً.

- أنا لا أقصد... يا سيّد بوتروليه، لا بل أعترف أن مجرد شعوري بأنني قد أراه جثة هامدة يثير فيّ انفعالات شتّى... هذا إذا لم يعمد أعوانه إلى إخفاء جثته.

- وعلى الأخصّ إذا سلّمنا جدلاً، قال الكونت دو جيفر، بأنه هو من أصابته رصاصة ابنة أخي المسكينة.

- إنه هو، يا سيّدي الكونت، قال بوتروليه جازماً، هو الذي تهالك بين الخرائب بعد أن أصابته طلقة الأنسة دوسان فيران. وهو الذي رآته ينهض مجدداً ثمّ يعاود السقوط أرضاً ويزحف نحو الرواق المقنطر الكبير لكي يعود وينهض هناك للمرّة الأخيرة - وما أقوله أشبه بمعجزة سأشرح تفاصيلها فيما بعد - ليصل بعد عناء،

إلى هذا الملاذ الحجري... الذي سيصبح قبره».

وضرب بعصاه عتبة الكنيسة.

- «هاه؟ ماذا؟ صرخ السيد فيّول مذهولاً... قبره؟... أتحسب أن هذا الملاذ الذي لا سبيل لبلوغه...

- إنه هنا.. هنا.. ردد قائلاً.

- لكننا فتشنا المكان.

- لا بدّ أن التفتيش لم يكن دقيقاً.

- ما من مخبأ هنا، قال السيد دو جيفر معترضاً. أنا أعرف الكنيسة جيّداً.

- بلى، يا سيّدي الكونت، هناك مخبأ. إذهب إلى بلدية فارونجفيل حيث حفظت كلّ الوثائق التي كانت موجودة في أسقفية أمبروميزي القديمة، وستفيدك هذه الوثائق التي تعود الى القرن الثامن عشر، أن ثمة مدافن للرهبان تحت الكنيسة. وهذه المدافن أقيمت، بلا ريب، تحت الكنيسة الرومانية التي شيّدت الكنيسة الحالية على أنقاضها.

- ولكن كيف استطاع لوبين أن يعرف هذا التفصيل؟ سأل السيد فيّول.

- بأكثر الطرق بساطةً، ومن خلال الأشغال التي قام بها لتنفيذ خطة نهب الكنيسة.

- مهلاً، مهلاً يا سيّد بوتروليه، إنك تغالي في وصف الأمور... لم ينهب الكنيسة كلّها. انظر مثلاً، فهو لم يمَسْ أيّاً من أحجار الزاوية تلك.

– بالطبع، فهو لم يصبَ قوالب مزيفة إلا لما له قيمة فنية،
الحجارة المنقوشة، والمنحوتات والتماثيل، وكامل الكنز المؤلف من
الأعمدة والأقواس القوطية المزركشة. ولم يلتفت الى قاعدة المبنى،
فبقيت الدعائم والأساسات كما هي.

– ولذلك يا سيد بوتروليه أقول إن لوبين لم يستطع الدخول الى
مدافن الكنيسة».

وفي تلك الأثناء كان السيد دوجيفر الذي نادى على واحدٍ من
خدمه قد عاد وبيده مفتاح الكنيسة وفتح الباب. ودخل الرجال
الثلاثة إليها.

بعد أن تفحص المكان لثوانٍ معدودة، أرفف بوتروليه قائلاً:

– «... إن بلاطات الأرضية لم تمسّ. لسبب وجيه. ولكن من
السهل أن نلاحظ أن المذبح الرئيسي ليس سوى قطعة مزيفة.
والحال أن السلم الذي يفضي الى مدافن الكنائس يُفتح عادةً من
أمام المذبح ثم يمتدّ من تحته.

– وهذا يعني؟

– هذا يعني أن لوبين عثر على باب المدفن أثناء انهماكه في
استبدال المذبح».

وداح بوتروليه يضرب المذبح بمعول كان الكونت قد أرسل في
طلبه؛ فتطايرت قطع الجصّ ذات اليمين وذات اليسار.

– «تباً، غمغم السيد فيول، كم أتحرق لمعرفة...

– وأنا أيضاً»، قال بوتروليه الذي اكتسى وجهه بشحوب القلق.

زاد من قوة ضرباته وسرعتها. ولاحظ الجميع أن المعول الذي لم

يصادف جسماً صلباً حتّى تلك اللحظة، ارتطم فجأةً بجسم أشدّ صلابةً وارتدّ إلى الوراء. وسمعت جلبة انهيار أنقاض ولم يلبث المذبح أن غار إلى أسفل بعد أن غارت كتلة الحجر التي صدّعها المعول. انحنى بوترولييه. أشعل عود ثقابٍ وراح يمرّره على ما بدا فتحة فراغٍ سحيق.

- «إن فتحة السلم تقع أبعد مما كنت أحسب، تحت بلاطات المدخل تقريباً. ومن هنا أستطيع أن أرى درجاته السفليّة.

- وهل الارتفاع كبير؟

- ثلاثة أمتار أو أربعة... درجات السلم متباعدة... وبعضها مُحطّم.

- لا يُعقل، قال السيّد فيّول، أن يكون شركاء لوبين قد وجدوا متسعاً من الوقت أثناء مدة غياب الشرطيين الثلاثة القصيرة، لخطف الأنسة دوسان فيران ونقل الجثة من هذا القبو... ثمّ ما الذي يدفعهم إلى نقل الجثة؟ لا، اعتقد أنه لا يزال هنا.

أحضر أحد الخدم سلماً خشبياً فدّلاه بوترولييه من الفتحة وثبّته مُتلمساً بين الانقاض المنهارة. ثمّ أمسك بطرفيه العلويين بقوة.

- «أتريد أن تنزل، يا سيّد فيّول؟».

غامر قاضي التحقيق بالنزول أولاً مزوّداً بشمعة. وتبعه الكونت دو جيفر. وبدوره وضع بوترولييه قدمه على أولى درجات السلم.

كانت ثماني عشرة درجة عدّها دون انتباه فيما عيناه تتفحصان أرجاء المدفن حيث كان نور الشمعة يُصارعُ العتَمات الكثيفة. ولكن ما أن وطأت قدماه أرضية القبو حتّى طالعتَه رائحة حريفة كريهة.

واحدة من روائح العفونة تلك التي لا تبرح الحاسة مهما طال عليها
الزمن. أوه! يا لتلك الرائحة التي أوجعت منه القلب...

ثم بغتة أحسَّ بيدٍ مرتجفة تتشبث بكتفه.

- «ماذا هناك؟ ما الأمر؟

- بوتروليه»، تمتم السيد فيقول.

كان عاجزاً عن النطق لشدة ما تملكه الرعب.

- «هيا يا سيدي المحقق، تما لك نفسك...

- بوتروليه... إنه هنا...

- هاه؟

- أجل... لمحت شيئاً ما تحت البلاطة الكبيرة التي تداعت من

المذبح... فأزحت الحجر... ولسته... أوه! لن أنسى ما حييت...

- أين هو؟

- من هذه الناحية... ألا تشم هذه الرائحة؟.. ثم.. هاك..

انظر...».

أمسك الشمعة وقرب ضوءها الخافت من كتلة ممددة على

الأرض.

«أوه!» صرخ بوتروليه مذعوراً.

انحنى الرجال الثلاثة للتحقق مما رأوه. وإذا بجثة مخيفة

لرجلٍ نحيل شبه عارٍ. كان لحم الميت الذي تظهر مواضع منه خلل

التياب الممزقة يميل الى الإخضرار بألوان الشمع الرخو. إلا أن

الأشدَّ هولاً وما انتزع صرخة الرعب من صدر بوتروليه كان منظرٌ

الرأس، الرأس الذي سحقته أكوام الحجارة المنهارة، الرأس المشوه الذي أصبح كتلة قبيحة ممحوّة القسمات والمعالـم... وعندما اعتادت أعينهم ظلمة المكان أيقنوا أن الدود ينخر الجسد الميت...

هرع بوتروليه وتسلق السلم في أربع قفزات حتّى وصل الى الهواء الطلق إلى وضـح النهار. وعندما صعد السيد فيّول بدوره وجده ممدّداً على بطنه يُغطى وجهه بيديه، فقال له:

- «تهانّي لك يا بوتروليه. فبصرف النظر عن اكتشاف المخبأ، هناك أمران استطعت من خلالهما أن أختبر دقّة أقوالك. أولاً، أن الرجل الذي أطلقت عليه الآنسة دوفيران النار هو أرسين لوبين فعلاً، كما قلت منذ البداية. وثانياً، أنه كان يحيا في باريس منتحلاً اسم اتيان دوفودرايكس. فملابسه الداخلية تحمل حرفي أ. ف. هذا ما بدا لي، أليس كذلك؟ والبرهان كافٍ...».

مكث إيزيدور لا يحرك ساكناً.

- «لقد ذهب حضرة الكونت لتجهيز عربة الخيل. فسيرسل في طلب الطبيب «جويه» للقيام بالمعاينة وإنجاز الإجراءات المتبعة. أمّا أنا فأقول إن الوفاة حدثت منذ ثمانية أيام على الأقلّ ويدلّ على ذلك حالة التعفّن التي حلّت بالجثة... ولكن يبدو لي أنك لا تصغي؟

- بلى، بلى.

- ما أقوله يستند إلى بيّنات قاطعة هكذا مثلاً...».

تابع السيد فيّول تحليله المنطقي دون أن يحظى، بأية حال، بأية بادرة إصغاء برغم ملاحظته السابقة. إلّا أن عودة السيّد دوجيفر قطعت عليه مونولوجه الطويل.

عاد الكونت حاملاً رسالتين. إحداهما تخطره بوصول شرلوك هولمز في صبيحة اليوم التالي.

– «يا للروعة، قال السيد فيول مبتهجاً باشاً. والمفتش غانيمار سيصل هو أيضاً. كم سيصبح الأمر ممتعاً.

– أما الرسالة الثانية، فهي لك يا حضرة القاضي، قال له الكونت.

– من حسن إلى أحسن، أردف السيد فيول قائلاً بعد فراغه من قراءة الرسالة... لن يجد السيدان الواقدان ما يفعلانه هنا. بوتروليه، لقد بلغني خبرٌ من «دييب» يفيد بأن بعض الصيادين عثروا هذا الصباح على جثة امرأة شابة بين الصخور.

فوجيء بوتروليه:

– «ماذا تقول؟ جثة...»

– امرأة شابة... جثة تعرضت لتشويه فظيع، كما يوضح الخبر، بحيث أنه كان يتعذر التعرف إلى هوية صاحبها لو لم يُعثر على سلسلة دقيقة من الذهب حول ساعدها الأيمن وقد حرّت جلده المنتفخ. والحال أن الأنسة دوسان فيران كانت تضع حول ساعدها الأيمن سلسلة من الذهب. إذاً لا بد أن تكون جثة ابنة أخيك المسكينة، يا سيدي الكونت، والتي لفظها البحر في تلك النواحي. ما رأيك يا بوتروليه؟

– لا شيء... لا شيء... أو الأخرى بلى... فالأمور تبدو مترابطة كما ترى، وأصبح تحليل الوقائع تاماً لا ينقصه شيء. فكل الوقائع، الواحدة تلو الأخرى، وحتى المتناقضة منها، وحتى المخيبة

والمحبة منها، تصبُّ في خانة التأكيد على الفرضية التي تخيلتها منذ البداية.

- لا أفهم جيداً.

- لن تلبث أن تفهم كلَّ شيء. تذكر أنني وعدت بالكشف عن الحقيقة كاملةً.

- ولكن يبدو لي ...

- قليلاً من الصبر. حتّى الآن لم أفعل إلّا ما يجعلك راضياً مطمئناً. الطقس الجميل. تنزه قليلاً ثمّ إذهب لتناول طعام الغداء في القصر ودخّن غليونك. أما أنا فسأعود نحو الرابعة أو الخامسة. ولا بأس إذا تأخّرت قليلاً في الوصول الى مدرستي فسأستقل قطار منتصف الليل.

كانا قد وصلا الى حجرة الغسيل في الجهة الخلفية من القصر، فقفز بوتروليه راكباً دراجته وابتعد.

فور وصوله الى «دييب» توقف عند مكاتب صحيفة «لا فيجي» حيث تصفّح أعداد الأسبوعين المنصرمين. ثمّ قصد بلدة أنفرنو التي تبعد عشرة كيلومترات. وهناك تحدّث إلى كلّ من رئيس البلدية وراهب الرعيّة والناطور. وعندما دقّت ساعة الكنيسة الثالثة بعد الظهر كان قد أنجز تحريّاته.

وعاد أدراجه مُبتهجاً منشداً. كانت قدماه تدوسان بتتابع منتظم وبقوة واثقة على الدوّاستين فيما نسائم البحر المنعش تملأ رئتيه. ومن حين لآخر كان يستسلم لخفّة الإحساس بالفوز فيطلق، دون قصد، صيحات ابتهاج وفي ذهنه مسلسل التحريّات التي أوصلته

الى الهدف المنشود بفضل جهوده المثمرة.

لاحت له مباني أمبروميزي فراح يزيد من سرعته هابطاً المنحدر الذي يفضي إلى القصر. وكانت الأشجار المصطفة على جانبي الطريق في صفوف أربعة لم تتبدل منذ قرون من الزمن، كأنها تهرع لملاقاته ثم لا تلبث أن تتلاشى من ورائه. وفجأة أطلق صرخة مدوية، فقد تراءت لعينيه الساهمتين في لحظة صحو عابرة رؤية مباغتة، فلاحظ أن حبلاً يعترض طريقه وقد شُدَّ الى شجرتين متقابلتين.

ارتطمت الدراجة وتوقفت على الفور وقذفته الصدمة بقوة بالغة إلى الأمام، وبدأ له أن المصادفة وحدها، ولا بدَّ أنها مصادفة عجائبية، قد جنَّبه كومةً من الحجارة حيث كان ينبغي أن يسقط محطماً رأسه.

مكث طائشاً لثوان. ثم نهض وقد أصيب برضوض في أنحاء جسمه وبخدوش في ركبتيه، وراح يتفقد الجوار، ولاحظ وجود غابة صغيرة تمتد إلى الجهة اليمنى من الطريق ولا بدَّ أن الجاني قد سلكها للفرار. فك بوتروليه الحبل، ووجد تحت العقدة التي رُبِطت بالشجرة في الناحية اليسرى، قصاصة ورق ففتحها وقرأ:

«التحذير الثالث والأخير».

عاد إلى القصر وبعد أن طرح بعض الأسئلة على الخدم انضم إلى قاضي التحقيق في حجرة من الطبقة الأرضية تقع في نهاية الجناح الأيمن حيث اعتاد السيد فيول أن يشرف على عملياته من هناك. كان السيد فيول منهمكاً بالكتابة وقد جلس كاتبه في الناحية

المقابلة ولم يلبث هذا الأخير أن غادر الحجرة بعد أن أشار عليه القاضي بذلك، ثم صرخ السيد فيول قائلاً:

- «ولكن ماذا حلّ بك يا سيد بوتروليه؟ أرى يدك ملطختين بالدماء.

- لا شيء يُذكر، لا شيء، قال الفتى... إنها سقطة بسيطة بسبب ذلك الحبل الذي وضعه أحدهم معترضاً لطريقي. وأرجو منك فقط أن تلاحظ أن الحبل المذكور قد أخذ من القصر. فمنذ أقل من عشرين دقيقة كان لا يزال يُستخدم كحبل غسيل قرب حجرة غسل الثياب.

- أيعقل هذا؟

- يا سيدي، هناك من يراقبني في هذا القصر بالذات، يراني ويسمعني ويرصد كلّ أفعالي ويعرف جيّداً كلّ نواياي.

- أعتقد أنه أمر ممكن؟

- لا بل أنا واثق مما أقول. ويتوجب عليك، أنت، أن تكتشف من هو ولا أحسب أن مثل هذا الأمر يتطلب منك الجهد الكبير. أما أنا، فسأنجز مهمتي وأطلعك على كلّ التفسيرات التي وعدتُ بإعطائها. لقد تقدمت بسرعة لا يتوقعها الخصوم، وبتّ على قناعة أنهم، من جهتهم، سينشطون للردّ بقوة. إن الطوق يضيق من حولي، والخطر داهم، لدي إحساس بذلك.

- مهلاً، مهلاً، يا سيد بوتروليه...

- على كل حال، سوف نرى. أما الآن فعلينا أن نعمل بسرعة. ولكن أولاً يجب أن أستوضحك حول أمر ينبغي أن أستبعده على

القور. ألم تُطلع أحداً على مضمون تلك الورقة التي عثر عليها
المفوض كيفيون وسلمك إياها في حضوري؟

- لا لم أطلع أحداً عليها. ولكن اتعتقد أن لنل هذه الورقة أهمية
ما؟

- أهمية كبيرة. لقد خطرت لي فكرة، مجرد فكرة وأعترف أنها لا
تستند إلى أي دليل... لأنني حتى الآن لم أفلح في فك رموز هذه
الوثيقة. ولذلك أسألك لكي أستبعد أي احتمال بشأنها.

وأمسك بوتروليه يد السيد فيول، وقال هامساً:

- «أصمت... هناك من يتنصت.. في الخارج..».

تناهت إلى مسامعهما جلبة أقدام تنتقل فوق الرمال. فهرع
بوتروليه نحو النافذة وأطل منها.

- «لا يوجد أحد. ولكن الحوض مليء بآثار الأقدام... ومن
السهل أن تُرفع العلامات».

أغلق النافذة وعاد إلى كرسيه.

- «أرايت يا حضرة القاضي، أصبح الخصم لا يكلف نفسه عناء
التحوط والحذر... لم يعد لديه الوقت اللازم... وهو أيضاً يشعر أن
الوقت يداهمه. إذاً لنعمل بسرعة، ولنتكلم ما دام الخصم لا
يريدني أن أتكلم».

وضع الوثيقة على الطاولة وقال:

«قبل أي تفصيل آخر، هناك ملاحظة ملفقة. لم يدون على هذه
الورقة، باستثناء النقاط، إلا بعض الأرقام. ففي السطور الثلاثة
الأولى، كما في السطر الخامس - وهي السطور التي ينبغي أن

تسترعي انتباهنا لأنَّ السطر الرابع يبدو من طبيعة مختلفة كلياً -
لا نجد رقماً يتجاوز الرقم ٥ . لذلك من المحتمل أن يكون كلٌّ من هذه
الأرقام يمثل أحد حروف العلة وحسب الترتيب الأبجدي . لنُدوّن ما
نحصل عليه من هذا الحساب .

ودوّن على ورقة على حدة:

e. a. a.. e. a
.a.. a... e. e. . e. oi. e.. e.
.ou.. e. o... e.. e. o.. e
ai. ui.. e .. e u. e

ثمَّ أردف قائلاً:

- «كما تلاحظ، لا نحصل على أي شيء يُذكر من هذا الترتيب.
فمفتاح هذا اللغز بسيط جداً - لأن واضعه استبدل حروف العلة
بالأرقام والحروف الساكنة بالنقاط - ولكنه في الوقت نفسه صعبٌ
جداً، إن لم يكن غير قابل للحلّ، لأن واضعه لم يكلف نفسه المزيد
من العناء لتعقيد المشكلة.

- من الواضح غموضه الحالي أكثر من كافٍ.

- لنحاول إيضاحه . لقد قسم السطر الثاني الى قسمين، ويبدو
القسم الثاني منه مركباً بحيث تؤلّف على الأرجح كلمة . فإذا حاولنا
الآن أن نستبدل النقاط التي تتخلل الحروف بحروف ساكنة،
يتحصّل لدينا، بعد تلمس وتجريب، أن الحروف الوحيدة التي
يمكن أن نستخدمها، حسب المنطق، هي تلك التي تؤلف كلمة
واحدة، كلمة وحيدة:

«demoiselles» (آنسات).

– إذاً للأمر صلة بالآنسة دو جيفر والآنسة دو سان فيران.

– من دون أدنى شك.

– ألا ترى شيئاً آخر؟

– بلى. ألاحظ أيضاً ما يُشير إلى فاصلٍ في وسط السطر الأخير، وإذا طبّقت الطريقة نفسها في بداية السطر، لا يلبث أن يتضح لي أن بين النقاء حرفين من حروف العلة وفي موضعين بينهما فاصل، *ai. ui.*، لا يسعنا إلا أن نستبدل النقطة بحرف *g.*، وعندما أحصل على بداية الكلمة *aigui*، يُصبح من الطبيعي، لا بل من الضروري أن أصل مع النقطتين التاليتين وحرف الـ *e* الأخير إلى كلمة *aiguille*.^(*)

– بالفعل، إن كلمة «مسلة» هي الملائمة.

– أما الكلمة الأخيرة، فألاحظ أن هناك ثلاثة حروف علة وثلاثة حروف ساكنة. أتلّمس قليلاً، وأحاول أن أضع كلّ الحروف الممكنة مكان النقاط منطلقاً من المبدأ الذي افترضته بأن النقطتين الأوليين هما حرفان ساكنان، فيتحصل لدي أن هناك أربع كلمات تلائم مثل هذا التشكيل – وهي: *fleuve, freuve, pleure, creuse*.^(*) فاستبعد الكلمات الثلاث الأولى لأن لا صلة لها بكلمة مسلة واستبقي كلمة «جوفاء».

– فيصبح لدينا ما معناه: مسلة جوفاء. أقرّ لك بأن الحلّ الذي تقترحه هو الحلّ الصحيح، ولكن ما الجدوى منه؟

(*) إبرة أو مسلة، هنا: مسلة.

(**) نهر، دليل، بكاء، جوفاء.

– لا شيء، قال بوتروليه، لا شيء في الوقت الحاضر... أما فيما بعد فسنرى... فأنا أعتقد أن هذا التركيب بين كلمتين: مسألة جوفاء قد يتكشف عن أشياء كثيرة، وما يُشغلني الآن، هو مادة الوثيقة، الورق الذي استخدم لتدوين اللغز... أما زالت صناعة هذا الورق الرقيق المحبب رائجة؟ ثم هذا اللون العاجي... وهذه الثنيات، المستهلكة القديمة... وأخيراً، لاحظ، آثار الشمع الأحمر على المقلب....».

في تلك الأثناء قوطع تحليل بوتروليه، إذ فتح الكاتب بريدو باب الحجرة وأبلغهما بوصول النائب العام فجأة.
فنهض السيد فيقول:

– «السيد النائب العام ينتظر في الأسفل؟»

– لا، يا سيدي القاضي، النائب العام لم يترجل من سيارته وسيغادر على الفور ويرجو منك أن تلاقيه عند المدخل، فليديه ما يقوله لك.

– إنه أمر مُستغرب، تتمم السيد فيقول. على أية حال، سنرى... أرجو المَعذرة يا بوتروليه، سأَتَغَيَّب للحظات ثم أعود..».

غادر الحجرة وسُمع وقع خطواته مبتعداً في الرواق. عندئذ أغلق الكاتب الباب وأوصده بالمفتاح ثم وضع المفتاح في جيبه.

– «ماذا هنالك! قال بوتروليه باستهجان، ماذا تفعل؟ لماذا تقفل علينا الباب؟»

– أليس هذا أفضل لنتحدث قليلاً؟ أجاب بريدو.

هرع بوتروليه مباشرةً إلى الباب الآخر الذي يفضي إلى الحجرة

المجاورة. لقد أيقن الآن أن شريك الجناة هو بريدو الكاتب الذي
يرافق قاضي التحقيق!
فضحك بريدو هازئاً:

« لا تؤذ أصابعك، يا صديقي، فلدي أيضاً مفتاح الباب الآخر.
- لم يبق إلا النافذة إذاً، صرخ بوتروليه.
- لقد فات الأوان» قال بريدو معترضاً طريقه وقد شهر مسدسه.

أصبحت كل المنافذ مسدودة. ولم يبق أمامه إلا أن يدافع عن
نفسه حيال الخصم الذي كشف عن هويته بفضاظة وجراة. فوقف
إيزيدور الذي يعتصر قلبه إحساس عميق بالقلق، مكتوف اليدين.
- «حسناً، قال الكاتب، والآن لنتكلم باختصار».

أخرج ساعته من جيب سترته.

- «سيقطع السيد فيول المسكين المسافة حتى سور المدخل
وهناك لن يجد أحداً بالطبع لا النائب العام ولا سواه. وعندئذ
سيعود أدراجه. وهذا يعني أن أمامنا أربع دقائق تقريباً. وتلزمنا
دقيقة واحدة لكي أقفز من النافذة وأجتاز الخرائب إلى الباب
الصغير حيث تنتظرني دراجة بخارية. يبقى لدينا ثلاث دقائق،
وهي مدة كافية».

كان مظهر الرجل غريباً بعض الشيء، إذ ينتصب نصفه الأعلى
ضخماً، كجسم العنكبوت، فوق ساقين هزيلتين وطويلتين تفوقهما
ذراعاها طولاً. وجهه نحيل ناتئ العظام، وجبين ضيق يفضح طباعه
العنيدة وذكائه المحدود.

ترنح بوتروليه لخور في ساقيه. فجلس.

- «هيا تكلم. ماذا تريد؟

- الورقة. فأنا أبحث عنها منذ ثلاثة أيام.

- ليست في حوزتي.

- كاذب. عند دخولي إلى الحجرة كنت تضعها في محفظتك.

- وبعد أن أعطيك الورقة؟

- بعد ذلك؟ ستعدني بأن تمكث عاقلاً. أنت تسبب لنا المتاعب.

فدعنا وشأننا، والتفت إلى شؤونك الخاصة. لقد عيل صبرنا».

كان قد اقترب قليلاً مصوباً مسدسه نحو الفتى وكان كلامه خافت النبرة واضح اللفظ بلهجة زاخرة بالحيوية. كانت نظراته جامدة وابتسامته مليئة بالقسوة. فارتعد بوتروليه. كانت تلك أولى تجاربه في مواجهة خطر حقيقي. وأي خطر! فقد كان يشعر لأول مرة بأنه حيال عدو لا يرحم، بقوة الغاشمة التي لا تقاوم.

- «وبعد ذلك؟ قال بصوت متهدج.

- وبعد ذلك؟ لا شيء... ندعك وشأنك...».

وبعد صمت. أردف بريدو قائلاً:

- «لم يبق إلا دقيقة واحدة، هيا آتيا الفتى الطيب، دعك من الحماقات، عليك أن تحسم أمرك... فنحن الأقوى دائماً وفي كل مكان... هيا بسرعة أعطني الورقة...».

لم ينبس إيزيدور بكلمة واحدة، ممتقع السحنة مكبلاً بالخوف، إلا أنه لم يفقد سيطرته على نفسه وبقي صافي الذهن برغم التوتر الذي يشد أعصابه. كانت فوهة المسدس السوداء مائلة لعينييه على

بعد عشرين سنتيمتراً. والإصبع المثنيّة تضغط قليلاً على الزناد.
ويكفي أن تضغط أكثر بقليل...

– «الورقة، قال بريدو، وإلا...»

– خذها! قال بوتروليه. تناول محفظته من جيب ستورته وأعطاهما
للكاتب الذي تلقفها بسرعة.

– «عظيم! عينُ العقل. لا بدّ أن نعملَ معاً ذات يوم... جبان
بعض الشيء ولكن شديد التعقل والدراية. سأحدث الرفاق عنك.
والآن، يجب أن أغادر. الوداع.»

أعاد مسدسه إلى جيبه ورفع مزلاج النافذة. وفي الأثناء سمع
وقع خطوات في الرواق.

– «الوداع، قال مجدّداً... في الوقت المناسب.»

ولكنّ فكرة خطرت له استوقفته قليلاً. وبحركة سريعة تحقق من
المحفظة.

– «سحقاً... قال متوجّداً، الورقة ليست هنا... لقد خدعتني.»

فقفز إلى داخل الحجرة ودوّت طلقتان. كان إيزيدور قد شهر
مسدسه هو أيضاً وأطلق النار.

– «لقد أخطأتني يا فتى، صرخ بريدو، إن يدك ترتعش، إنك
خائف...»

واشتبك بالأيدي ووقعاً معاً على الأرضية. ثمّ سُمعت طرقات على
الباب.

كان إيزيدور واهن القوى وسرعان ما استسلم لقلبة خصمه.

إنها النهاية. ارتفعت يد فوقه وانهاالت عليه بسكين. فأحسّ بألم مبرح في كتفه وفقد وعيه.

وفي غيبوبة الألم تلك تراءى له أن الرجل يفتش في جيوب سترته الداخلية وأنه عثر على الوثيقة. ثم رأى من خلال الغشاوة التي غطت عينيه طيف الرجل وهو يقفز من حافة النافذة.

في صبيحة اليوم التالي صدرت الصحف التي نشرت آخر المستجدات التي جرت في قصر أمبروميزي، من تزيف محتويات الكنيسة إلى اكتشاف جثة أرسين لوبين وجثة ريموند، وأخيراً محاولة قتل بوتروليه على يد بريدو، الكاتب المساعد لقاضي التحقيق، كما حملت عناوين هذه الصحف نفسها الخبرين التاليين:

اختفاء غانيمار واختطاف شرلوك هولمز في وضح النهار في وسط لندن فيما كان يهم بالصعود إلى القطار قاصداً «دوفر».

هكذا إذأ، استطاعت عصاية لوبين بعد وقتٍ من الارتباك الذي سببته نباحة صبيّ في السابعة عشرة، أن تستعيد المبادرة وبضربة واحدة كانت هي المنتصرة على كافة الصعد والاتجاهات. فقد تمّ التخلص من خصمي لوبين الشهيرين هولمز وغانيمار. وأصبح بوتروليه خارج المعركة. ولم يبق من يستطيع أن يجابه خصوماً من هذا الطراز.

الفصل الرابع

وجهاً لوجه

بعد مضي ستة أسابيع، قرّرت ذات مساء أن أمنح خادمي يوم عطلة. كان ذلك عشية ١٤ تموز/يوليو. كان الحرّ خانقاً كما لم ترق لي كثيراً فكرة الخروج من المنزل. أبقيت النوافذ المطلة على الشرفة مشرّعة وأضأت مصباح المكتب ثمّ جلستُ مسترخياً على كنية لتصفح صحف اليوم التي لم أقرأها بعد. وبالطبع كانت الصحف تتحدّث عن أرسين لوبين. فمنذ أن تعرّض ذلك المسكين بوتروليه لمحاولة القتل، لم يمض يوم واحد دون أن تتناول الصحف قضية أمبروميزي. فقد أقردت لها زاوية يومية. إذ لم يشهد الرأي العام من قبل حماساً يُعادل الحماس الذي أثاره فيه ذلك المسلسل المتسارع من المجريات والأحداث غير المتوقّعة والمحبطة. وكان السيّد فيّول الذي رضي، بأنفة يُشهد له عليها، بالدور الثانوي، قد أسرّ إلى مراسلي الصحف بتفاصيل المآثر التي حققها مُستشاره الفتى خلال الأيام الثلاثة التي لا تُنسى، ممّا أفسح في المجال لأكثر الافتراضات جراءة.

وكانت تلك هي الفرصة المثالية للبعض. أخصائيو وتقنيو الجريمة، روائيون وكتّاب مسرحيون، قضاة ورؤساء سابقون لجهاز الأمن، أشباه السيّد لوكوك من المتقاعدين، وأشباه شرلوك

هولز من الهواة. كان لكلّ منهم نظريته الخاصة التي يُدبج تفاصيلها في مقالات طويلة. وكان كلّ واحد منهم يستعيد مجريات التحقيق ويقترح التّمتّة. وكلّ هذا استناداً إلى كلام صبي، هو إيزيدور بوتروليه، تلميذ علم البيان في ثانوية جانسون دوسايي.

ذلك أنّه، والحقّ يقال، ما عادت الحقيقة خفية على أحد بعد أن جمعت كلّ العناصر المكوّنة لها. والسّر... أين يكمن السّر إذا وُجد؟ فقد تمّ الكشف عن المخبأ الذي لاذ به أرسين لوبين وشهد احتضاره، وما من أدنى شك حول هذه النقطة. فقد أسرّ الدكتور دولاتر، الذي لزم الصمت طوال تلك المدة متذرعاً بأسرار المهنة، إلى بعض المقربين - الذين أذاعوا بدورهم ما أسرّ به إليهم - أنّه اقتيد إلى مدفن كنيسة بالفعل لمعاينة جريح عرّف عنه شركاؤه باسم أرسين لوبين. وبما أن الجثة التي عثر عليها في هذا المدفن بالذات تبين أنها جثة إتيان دوفودرايكس وعلماً بأن الأخير ليس سوى أرسين لوبين بشحمه ولحمه، كما أثبت التحقيق، فإنّ التطابق بين هوية أرسين لوبين وهوية الجريح لم يعد في حاجة لأي برهان.

إذاً، بعد موت لوبين والعثور على جثة الأنسة دوسان فيران والتحقيق من هويّتها بفضل السلسلة التي تطوق معصمها، فلا بدّ أنّ القضية قد انتهت.

ولكن القضية لم تنته. ولم تكن في قناعة الجميع في حكم المنتهية، لأن بوتروليه كان قد صرّح بأنها لم تنته. ولم يكن في وسع أحد أن يعرف ما الذي لم ينته بعد من فصول القضية، ولكنّ كلام الفتى أبقى السّر على غموضه. ذلك أنّ براهين الوقائع ما كانت لتصمد حيال تأكيد واحد يصدر عن شخص من طراز بوتروليه.

فساد الاعتقاد بأن هناك أمراً لا يزال مجهولاً وأنّ هذا الأمر لن يجد من يقدر على تفسيره سوى بوتروليه.

ولذلك كم كان القلق سائداً في البداية، في انتظار التقارير التي يعلنها تباعاً الأطباء الذين كلّفهم الكونت بالعناية بالمريض في «دييب»، حول حالة بوتروليه الصحية! وائيّ أسى خيم على الجميع خلال الأيام الأولى التي بدا فيها أن حياته في خطر! وأي حماس عمّ الرأي العام حين أعلنت الصحف، ذات صباح، أن الخطر قد زال عنه! كان الرأي العام يتتبع أي تفصيل من تفاصيل علاجه بتأثر بالغ. فكم كان مؤثراً أن يعرف الناس أن والده هرع فور تبّلغه النبأ ليملك في جواره والعناية به، وكم أثار إعجابهم مقدار العناية الذي أحاطته به الأنسة دوجيفر التي سهرت الليالي قرب سرير الجريح.

بعد ذلك كانت فترة النقاهة القصيرة الأمد والبهجة التي رافقتها. وأخيراً سيُعرف السر! سيُعرف الناس ما وعد بوتروليه بالكشف عنه للسيد فيول، وستعرف الكلمات الختامية التي حاول خنجر الجاني دون أن يتلفظ بها! كم سيطلع الرأي العام على حقيقة كلّ التفاصيل التي ما تزال، خارج إطار القضية نفسها، مُبهمة ولم تتوصّل العدالة إلى حلّها برغم كلّ الجهود التي بذلتها.

فما أن يتعافى بوتروليه من جروحه حتّى يُصبح قادراً على التوصل إلى يقين ما حول هوية السيد هارلنغتون، شريك أرسين لوبين الغامض والذي لا يزال محتجزاً في سجن «لا سانتيه». كما سيكشف النقاب عن مصير الكاتب بريدو الذي توارى بعد الجريمة وبعد أن تبين أنّه شريك آخر للوبين لا تعوزه الجراءة والوقاحة.

وما أن يتماثل بوتروليه للشفاء ويعود إلى مزاولة نشاطه، فلن يصعب عليه أن يكون فكرة واضحة حول اختفاء غانيمار واختطاف هولز. إذ كيف استطاع الجناة تنفيذ مثل هاتين العمليتين؟ ولم يعثر تحريرو الشرطة الانكليزية، على غرار زملائهم الفرنسيين، على أية قرينة بهذا الشأن. فيوم أحد العنصرة، لم يعد غانيمار إلى منزله ولا يوم الإثنين، ولا في الأيام التي تلت منذ نحو ستة أسابيع.

وفي لندن، يوم اثنين العنصرة، كان شرلوك هولز يهيم عند الرابعة مساءً بالصعود إلى سيارة أجرة لتقله إلى المحطة. وما أن صعد إلى السيارة حتى سارع إلى النزول منها بعد أن ارتاب، على الأرجح، بأمر ما. ولكنه لم يستطع الاقلاات إذ طوَّقه رجلان، أحدهما لجهة اليمين والثاني لجهة اليسار وأجلساه بينهما، لا بل تحتهما، على المقعد الخلفي ثم انطلقت السيارة مُسرعة. ولقد جرى كل ذلك أمام عشرة من الشهود. وبعد ذلك؟ بعد ذلك لا شيء. لم يتوصل أحد إلى معرفة شيء.

ومن يدري ربما سيتم الكشف، بفضل جهود بوتروليه أيضاً، عن المضمون الكامل للوثيقة، تلك الورقة الغامضة التي يعلق عليها الكاتب بريدو أهمية بالغة إلى حدّ انتزاعها بقوة السلاح من حاملها. «قضية المسئلة الجوفاء»، كما كان يُسميها المتفلسفون الكثر الذين انكبوا على تمحيص النقاط والأرقام محاولين إيجاد معنى لها... المسئلة الجوفاء! تركيب مُحبط بين كلمتين، ومسألة غامضة تطرحها قصاصة الورق تلك التي يجهل الجميع مصدرها! أهي عبارة مجردة من أي معنى، خرتشة تلميذ ينثر حبر ريشته على قصاصة ورق؟ أم أنهما الكلمتان السحريتان اللتان بهما يكتمل

المغزى الحقيقي لتلك المغامرة الكبرى التي قام بها المغامر لوين؟
فمن يدري.

كل هذه الأمور ستتضح. فقد كانت الصحف لا تكف عن الحديث، منذ بعض الوقت، عن عودة بوتروليه الوشيكة. ولا بد أن الصراع سيُستأنف من جديد، ولكنه مصحوب هذه المرة بتصميم إيزيدور العنيد على الانتقام.

وهذا بالضبط ما لفتني؛ اسمه المطبوع بالأحرف العريضة على الصفحة الأولى من «لو غران جورنال» وتحتة هذا الخبر:

«لقد استطعنا اقناع السيد إيزيدور بوتروليه بأن يمنحنا أولوية نشر أقواله التي سيدلي بها غداً، الأربعاء، وقبل أن يُطلع السلطات العدلية عليها. وستنشر صحيفة «لو غران جورنال» الوقائع الحقيقية الكاملة لأساة أمبروميزي».

— «إنه خبر يُعدُّ بالكثير، اليس كذلك؟ فما رأيك يا عزيزي؟».

انتفضتُ في مكاني. فقد رايتُ على الكرسي المجاور رجلاً لا أعرفه.

فنهضت وأجلتُ أنظاري في الأرجاء بحثاً عن سلاح. ولكن ما إن بدا لي هادئاً ولا يسعى للأذية تمالكت نفسي ودفوتُ منه.

كان رجلاً فتياً بدت على وجهه ملامح الصرامة، طويل الشعر أشقره، وله لحية أميلُ إلى الصُهباء مفروقة عند ترويسة الذقن إلى خصلتين قصيرتين ومدببتين. وكان ثوبه يُذكر ببساطة ثوب راهب انكليزي، وفي مظهره ما يوحي بالتقشف والرصانة اللذين يستدعيان الاحترام.

– «من أنت؟» سألته.

وإذ لزم صمته، سألت مجدداً:

– «من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟ وما الذي أتى بك؟».

نظر إليّ وقال:

– «ألم تعرفني؟»

– لا.. لا!

– آه! إنه أمر غريب... تذكر جيداً... أحد أصدقائك... صديق
من نوع خاص تقريباً...».

قبضت على ذراعه بقوة:

– «أنت تكذب!... أنت لست من تدعي أنه أنت... غير
صحيح...»

– ولماذا إذاً تذكرت ذلك الشخص بالذات ولا أحد سواه؟ قال
ضاحكاً.

آه! تلك الضحكة! تلك الضحكة الفتية الصادحة والتي طالما
أغوتني برنّتها الساخرة!... سرت في رعشة. أيعقل أن يكون هو؟

– «لا، لا، قلتُ معترضاً وبشيء من الهلع.. لا يُعقل أن...»

– لا يُعقل أن أكون أنا لأنني ميت، ولأنك لا تؤمن بوجود
العائدين من الموت؟».

ضحك مجدداً.

– «وهل تحسبني من طينة أولئك الذين يموتون؟ أن أموت هكذا
ببساطة، برصاصة في الظهر أطلققتها علي فتاة شابة! إنك تُسيء

تقديري حقاً! كما لو أنني أقبل، من جهتي، مثل هذه النهاية!

- هذا أنت إذاً! قلتُ مُتلعثماً، لا أصدّق ما تراه عيناى لشدة انفعالي... ولكن أجد صعوبة في التعرّف إليك...

- إذاً، قال مُبتهجاً، أستطيع أن أطمئن الآن. فإذا كان الشخص الوحيد الذي استطاع أن يراني كما أنا في الحقيقة يجد صعوبة في التعرّف إليّ اليوم، فهذا يعني أنّ لا أحد ممن سيراني كما أنا من الآن فصاعداً سوف يعرفني أيضاً عندما سيراني كما أنا في الحقيقة، هذا إذا أمكن القول كيف أبدو كما أنا في الحقيقة...».

عرفت صوته إذ كفّ عن تبديل نبرته، وعرفت عينيه أيضاً وتعابير وجهه وكلّ ما يمتّ بصلة إلى سلوكه الذي أعرفه، وإلى شخصيته الحقّة من خلال المظهر الذي أراد أن يتنكر تحت غطائه.

- «أرسين لوبين، قلتُ متمتماً.

- أجل، أرسين لوبين، صرخ واقفاً. لوبين الواحد والوحيد، بعد عودته من مملكة الظلام لأنني، على ما يبدو لي، احتضرتُ ولاقيتُ حتفي في مدفن كنيسة. أرسين لوبين الذي ما زال حياً يرزق، طليق اليدين، مغتبطاً وخُراً، وعازماً، أكثر من أي وقت مضى، على التمتع بهذه الحرية الجديدة في عالم لم يلقَ منه إلاّ الحظوة والامتياز.

ورحت أضحك بدوري.

- «حسناً، هذا أنت بالفعل وأراك أكثر مَرِحاً مما كنت عليه ذلك اليوم الذي أسعدت برويتك فيه السنة الماضية. لك مني أحرّ التهاني».

كنتُ أشيرُ إلى زيارته الأخيرة، تلك التي أعقبت مغامرة التاج^(*) الشهيرة وقصة انفصاله عن زوجته وهروبه برفقة صونيا كريشنوف والحادثة الرهيبة التي أودت بحياة الفتاة الروسية. في ذلك اليوم كنتُ أقفُ أمام أرسين لوبين لا أعرفه، لشدة ما بدت عليه معالم الضعف والانكسار وقد اتعب البكاء عينيه وكأنَّه يستجدي بعض العطف والحنان.

- «أصمت، قال، لقد أصبح الماضي بعيداً.

- كان ذلك منذ سنة واحدة، قلت.

- كان ذلك منذ عشر سنوات، قال بلهجة حاسمة، إنَّ سنوات أرسين لوبين تعادلُ عشرة أضعاف ممَّا لسواه».

لم ألح عليه بهذا الشأن فقلتُ في محاولةٍ مني لتغيير الحديث:

- «إذاً، كيف استطعت أن تدخل؟

- بحق السماء، كما يدخلُ الناسُ عادةً، من الباب. ولأتني لم أصادف أحداً، اجتزت الصالة وسرت بمحاذاة الشرفة وها أناذا.

- ليكن، ولكن ماذا عن مفتاح الباب؟

- أنت تعلم جيّداً أنَّ الأبواب بالنسبة لي غير موجودة. كنت محتاجاً لشفتك، فدخلت.

- سمعاً وطاعة. أتريدني أن أغادر؟

- أوه! لا، أبداً، وجودك لن يزعجني. حتّى بإمكانني القول إنَّ الأمسية ستكون مثيرة وممتعة.

(*) أرسين لوبين، مسرحية في أربعة فصول.

- أنتتظر أحداً؟

- أجل، لدي موعد هنا بالذات عند الساعة العاشرة....».

وتناول ساعته من جيبه

- «إنها العاشرة تماماً. إذا وصلت البرقية في الوقت المناسب، فإنَّ الشخص الذي أترقب قدومه لن يتأخر في الوصول».

وبالفعل رنَّ الجرس في بهو المدخل.

- «أتدرك الآن قصدي؟ لا، لا تكلف نفسك هذا العناء... سأفتح الباب بنفسي».

من هو القادم، بحق الجحيم؟ وما الذي ستشاهده عيناى، لقاء عمل أم مجرد دعاية؟ فلكي يرى لوبين نفسه أنه موعد على قدر كبير من الأهمية، لا بدَّ إذاً أن تكون مناسبة اللقاء استثنائية بعض الشيء.

وبعد ثوان معدودة عاد برفقته شاب نحيل، طويل القامة شاحب الوجه.

ودون أن ينبس بكلمة واحدة راح لوبين يُضيء كل المصابيح الكهربائية بشيء من الحفاوة ممَّا أثار ارتباكى. سطعت الأضواء في أرجاء الحجرة. وعندئذ راح الرجلان يحدقان واحدتهما في وجه الآخر، وكأنَّ كلاً منهما يحاول أن يسبر غور الآخر بنظراته المتوقّدة. وكان المشهد مؤثراً، أن يقفا هكذا أمامي، صامتين مقطبين. ولكن من عساه يكون هذا الوافد الجديد؟

وفي اللحظة التي كدتُ فيها أن أدرك الشبه بين هذا الوافد

الجديد والصورة التي رأيتها مؤخراً في إحدى الصحف، التقت
لوبين نحوي وقال:

- «يا صديقي العزيز، أقدم لك السيد إيزيدور بوتروليه».

ثم سرعان ما التقت نحو الشاب وقال:

- «أنا مدين لك بالشكر، يا سيد بوتروليه، أولاً لأنك وافقت، تلبيةً
لرجاء خطي مني، على تأجيل موعد الإدلاء بمعلوماتك إلى ما بعد
هذا اللقاء، وثانياً لأنك تكرّمت علي بمثل هذا اللقاء بطيبة خاطر».

ابتسم بوتروليه..

- «أرجو أن تكون مدركاً لحقيقة أن طيبة خاطر التي ذكرت
ليست، على وجه الدقة، إلاّ تنفيذاً لأوامرك. فالتهديد الذي تضمنته
رسالتك إلي كان قاطعاً ومقنعاً لأنه لا يستهدفني شخصياً بل
يستهدف والدي».

- صدّقت، أجاب لوبين ضاحكاً، فعلى المرء أن يستخدم الوسائل
المتوفرة لديه. لقد أدركت، بعد التجربة، أنك لا تبالي كثيراً بسلامتك
الشخصية وإلاّ لما قاومت كلّ تهديدات السيد بريدو. فلم يبق
أمامي إلاّ والدك... والدك الذي تحبه كثيراً... فعزفت على هذا الوتر.

- وها أنذا، قال بوتروليه راضحاً.

رجوتهما أن يجلسا، فجلسا، وبادر لوبين بلهجته التي تمازجها
سخرية خفية، إلى القول:

- «على أية حال يا سيد بوتروليه، إذا كنت لا تقبل مني الشكر
فعل الأقل اقبل مني اعتذاراتي».

– اعتذارات! ولم، يا سيدي؟

– لفظاظة السيد بريدو حيالك.

– لا أخفيك بأن فعلته قد فاجأتني. فهي ليست من شيم لوبين المعتادة. طعنة خنجر...

– الواقع أنه لا صلة لي بالأمر. فالسيد بريدو لا يزال حديث العهد في جماعتنا. فقد ارتأى أصدقائي أثناء الفترة التي أشرفوا فيها على العمليات، أنه قد يكون من المفيد أن نجند كاتب قاضي التحقيق بالذات.

– وما أخطأ الأصدقاء على الإطلاق.

– بالفعل، فقد أدّى بريدو الذي كلّفناه بمراقبتك مهمة لا يُستهان بها. ولكنّه إذ غلبته حماسة المستجدين في المهنة دفع الأمور، وبمبادرة منه، إلى أبعد مما يجب، وأربك خططنا عندما حاول قتلك.

– أوه! يا للأساة.

– لا أبدأ، على الإطلاق لقد أنبته بعنف على ما اقترفته يداه. ومع ذلك، ينبغي أن أقرّ بأمر ما في صالح بريدو، فمما لا شك فيه أنه بوغت بالسرعة غير المتوقعة التي انجزت بها تحرّياتك. فلو أنك اتحت لنا بضع ساعات أخرى لكنت نجوت من ذلك الاعتداء الأثم.

– وكنت تعرّضت، بلا ريب، لما تعرّض له السيّدان غانيمار وهولز؟

– بالضبط، قال لوبين مُستغرقاً في ضحك متواصل. وكنت ستجنّبني تلك العذابات الرهيبة التي عانيتُها بسبب إصابتك.

صدّقني، لقد كابدت ساعاتٍ مبرّحةٍ وما زلت حتى اليوم إذ أرى شحوبك يتملكني الندم. ألسنت حاقداً عليّ؟

- إن برهان الثقة الذي تمنحني إياه اليوم بمثلوك أمامي من دون أدنى شرط - إذ كان من السهل أن أصطحب أحد رجال غانيمار! - إن برهان الثقة هذا يحوكل أخطاء الماضي.

هل كان صادقاً في ما يقول؟ اعترف أن الأمر أربكني. فقد بدأ الصراع بين الرجلين بطريقة لم أفهم منها شيئاً. أنا الذي شهد أول لقاء بين لوبين وهولز في مقهى «محطة الشمال»، لم أستطع أن أنسى ذلك السلوك المتعالي الذي أبداه الخصمان، وصدمة كبريائهما الرهيبة تحت مظهر التهذيب في حركاتهما، وعنق الضربات المتبادلة التي كانا يتبادلانها في النوايا، ومبلغ الخداع والغطرسة.

لم ألحظ شيئاً من كل هذا في لقائه بوتروليه. إذ لم يتبدّل شيء من طباع لوبين. أساليبه هي نفسها وكذلك دماثته الساخرة. ولكن من هذا الخصم الغريب المائل أمامه؟ وهل هو خصمٌ حقاً؟ الحق يُقال أن لا مظهر الشاب ولا لهجته تدلّان على كفايته كخصم. إنه هادئ جداً، لكنّه الهدوء الحقيقي الذي لا يُخفي اندفاعه رجلٍ قادرٍ على تمالك نفسه، مهذب جداً ولكن دون إفراط، بشوش ولكن دون استهزاء؛ فقد بدا لي النقيض المثالي لصورة أرسين لوبين، نقيضه التام، حتّى أنني حسبتُ أن لوبين نفسه يشعر بمثل الارتباك الذي أصابني.

لا، بالتأكيد، لم يكن لوبين حيال هذا المراهق النحيل ذي الوجنتين الأنثويتين المتوردتين وذوي العينين السانجتين

الساحرتين، لا، لم يكن لوبين مالكاً لرباطة جأشه المعهودة، فقد لاحظت مراراً بعض معالم الضيق على وجهه. كان متردداً ولا يبادر إلى الهجوم الصريح، ويهدر الوقت في إطلاق عبارات اللطف والمراوغة.

كان يتصرف كمن ينقصه شيء ما. كمن يبحث عن شيء، كمن ينتظر. ماذا؟ أي عون؟

قرع الباب مجدداً فنهض مسرعاً ليفتح.

ثم عاد وفي يده رسالة.

- «أتسمحان لي؟» سألنا.

وفتح المغلف الذي يحتوي على برقية، وقراها.

وفجأة بدا وكأنه تبدل كلياً. بشّ وجهه وانتصبت قامته ورأيت عروق جبينه تنتفخ. وعندئذٍ فقط استعاد صورة المصارع التي أعرفها، صورة صاحب الغلبة، الواصل من نفسه والذي يتحكم بمجريات الأحداث ويسيطر على الآخرين. بسط البرقية على الطاولة، وضرب فوقها بجماع قبضته صارخاً:

- «والآن، يا سيّد بوتروليه، بإمكاننا أن نبدأ!».

اتخذ بوتروليه وضعية من يصغي بانتباه، وراح لوبين يتكلم بنبرة حذرة لكنّها جافة ومطواعة:

- «لنسقط الأقنعة، أليس كذلك، ولنكفّ عن الترهات الخبيثة. نحن لسنا سوى عدوين وكل واحد منا يعرف جيداً كيف يجابه الآخر، والسلوك الذي يسلكه واحدنا هو سلوك عدو حيال عدوه،

ولذلك ينبغي أن تكون المساومة بيننا مساومة عدوين.

- مساومة؟ قال بوتروليه مُتعبجاً.

- أجل، مساومة. وأقصد ما أقول. وأكرّر القول: مساومة، مهما كلفني الأمر. والكلفة باهظة عليّ. إنها المرة الأولى التي استخدم فيها مثل هذه العبارة حيال خصم. ولكن أودّ أن أقول لك أيضاً، وعلى الفور، أنها ستكون المرة الأخيرة. فانتهاز الفرصة. لن أغادر هذا المكان قبل أن تقطع لي وعداً. وإلا فبيننا الحرب».

بدا بوتروليه لدى سماعه هذا الكلام أشدّ ذهولاً مما كان عليه. فقال بلطف:

- «لم أتوقع أن أسمع مثل هذا الكلام... إذ أجد كلامك غريباً بعض الشيء! ويختلف كل الاختلاف عما كنت أتوقعه!... بلى، كنتُ أحفظ في مخيلتي صورة مختلفة عنك.. لماذا الغضب؟ والتهديد؟ نحن عدوان حقاً لأن الظروف تضع واحدنا في وجه الآخر؟ عدوان... لماذا؟».

بدا لوبين مضطرباً قليلاً، ولكنّه انحنى على الشاب وأجاب بنبرة هازئة:

- «اسمع جيّداً يا صغيري، ليست المسألة هنا مسألة اختيار العبارات الملائمة. إنه واقع، واقع مؤكد لا يرقى إليه الشك. والواقع يقول ما يلي: منذ عشر سنوات لم أواجه خصماً بمثل قوّتك. ففي مواجهة غانيمار أو شرلوك هولمز، كنتُ كمن يلاعب أحداثاً. أمّا في صراعي ضدّك أنت، فأنا مرغّم على الدفاع عن نفسي، لا بل أقول: مرغّم على التراجع. أجل، حتّى الآن، كلانا يعلم علم اليقين أن في الصراع الذي خضته ضدّك ينبغي أن أعتبر نفسي الطرف الخاسر.

إيزيدور بوتروليه ينتصر على أرسين لوبين. لقد أفسدت كل مخططاتي. وما سعيْتُ جاهداً لأن أبقيه طي الغموض والكتمان استطعت، أنت، أن تكشف سرّه وأن تفسّره. أنت تزعجني، وتقطع عليّ طريقي. والآن، طفح بي الكيل... لقد حاول بريدو إقناعك بالأمر عبثاً. أما أنا فأكرّر القول، بإصرار، على أن يؤخذ كلامي بعين الاعتبار. لقد طفح بي الكيل».

هزّ بوتروليه رأسه.

– «ولكن في خاتمة المطاف ماذا تريد؟

– السِّلْم! كل طرف يلزم حدود ما يعنيه، حدود نطاقه.

– هذا يعني أن تكون أنت طليق اليد في تنفيذ سرقاتك كما يحلو لك، أمّا أنا فحرّيتي تتمثل في استئناف دراستي.

– استئناف دراستك... أو استئناف ما تشاء... إنه أمر لا يعنيني... ولكن شريطة أن تدعني وشأني... أريد السِّلْم...
– وكيف لي أن أهدّد سِلْمك المنشود، في الوقت الحاضر؟».

ضغط لوبين على يده بعنف:

– «أنت تعلم جيّداً. إذ تملك الآن وثيقة سرّية أعلق عليها أهمية بالغة. ولك مطلق الحقّ في فك رموز هذا السّرّ وأنت قادر على ذلك، ولكن لا يحقّ لك بأي حال أن تجعله علنياً.

– وهل أنت واثق من أنني عرفت السّرّ؟

– لقد عرفتّه، أنا واثق من ذلك: لقد كنت أتتبع مراحل تحليلك وما تنجزه تحريّاتك من تقدّم، يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة. ففي اللحظة التي تلقيت فيها طعنة بريدو، كنت تهتمّ بالإدلاء بكلّ ما

تعرفه. إلّا أنّك وافقت على تأجيل إفادتك خوفاً من التهديد الذي تلقّيته بشأن أبيك. وإذا بك اليوم وقد أدليت بها إلى إحدى الصحف، إلى هذه الصحيفة. والمقالة جاهزة ماثلة للطبع. وغداً ستصدر على الصفحة الأولى.

- هذا صحيح.

فنهض لوبين وبدرت منه حركة بادية العنف:

- والمقالة لن تُنشر، صرخ قائلاً.

- بل ستنشر، قال بوتروليه وقد انتصب واقفاً.

أصبح الرجلان أخيراً في وضعية المجابهة. وأحسستُ برضة ارتطام كأنهما التحما في منازلة. كان بوتروليه يبدو وكأنّه استعاد جذوة الحماس بطاقة غريبة، أو كأنّ شرارة ما أشعلت في أعماقه انفجالات جديدة، الجرأة، الكبرياء، حمياً الصراع، أو ربّما ثمالة الخطر.

أما لوبين، قد كنتُ ألمح في توقد نظراته بهجة المبارز الذي يجبه أخيراً سيف خصمه اللدود.

- «هل أعطيتهم المقالة؟»

- لا، ليس بعد.

- أهى في حوزتك الآن.. هنا؟

- لستُ على هذه الدرجة من الغباء! لو كنتُ أحملها الآن، لانتزعتها مني.

- إذاً؟

– لقد أعطيتها لأحد المحرّرين في مغلف مختوم.. وإذا لم أعد
إلى الصحيفة عند منتصف الليل سيدفعها إلى المطبعة.

– آه! الحقير، غمغم لوبين، لقد احتاط لكل طارئ..».

كان غضبه يحتدم، ظاهراً بوضوح، ورهيباً.

كان بوتروليه يتابع كلامه، ساخراً بدوره، مبتهجاً للنصر الذي
حققه.

– «ولكن أصمت أيّها الصبيّ، صرخ لوبين مغيضاً، ألا تعرف من
أكون؟ وأنني لو أردتُ لـ... بحق السماء، هذا الصبي يجروء على
الضحك!».

ثمّ ران صمت عميق بينهما، ثم دنا منه لوبين وبصوتٍ خفيض
قال له وعيناه تحدقان في عيني بوتروليه:

– «ستهرع راكضاً إلى «لو غران جورنال».

– لا، لن أفعل.

– وستمزق المقالة.

– لا، لن أفعل.

– وستطلب مقابلة رئيس التحرير.

– لا.

– وستقول له إنك أخطأت.

– لا.

– وستكتب مقالة أخرى تضمّنّها تفاصيل الرواية الرسمية حول
قضية أمبروميزي، وهي الرواية التي صدّقها الجميع.

- لا..

خطف لوبين المسطرة الحديد الموضوعة على مكتبي وكسرها بين يديه دون جهد يذكر. كان شحوبه مُخيفاً. ومسح قطرات العرق التي كانت تترقرق فوق جبينه. فهو لم يُجبه يوماً بمقاومة عنيدة كتلك التي يبديها الصبي، ولذلك تراه فاقداً صوابه.

ضغط براحتيه على كتفي بوتروليه وقال بلهجة أمرية:

- «ستنفذ كل ما قلته لك، يا بوتروليه، وستقول إن آخر تحريّاتك قد أقنعتك بصحة الدلائل على موتي وأن هذا الأمر لا يرقى إليه أدنى شك. وستقول ذلك لأنني أريدك أن تقوله، ولأنّه ينبغي أن يصدّق الجميع خدعة موتي. ستؤكد ذلك لأنك إن لم تفعل...»

- لأنني إن لم أفعل؟

- سيتم خطف والدك، كما تمّ اختطاف غانيمار وشرلوك هولمز.

ابتسم بوتروليه.

- «لا تبتسم... أجب».

- أجيبُ بأنني آسف جداً لاغضابك، ولكنني قطعت وعداً بأنني سأتكلم، وسأفعل.

- تكلم ولكن حسب التعليمات التي تلقيتها مني.

- سأتكلم كما تقتضي الحقيقة أن أتكم. قال بوتروليه بحدّة. فمن هو مثلك لا يسعه أن يدرك لذة، لا بل حاجة، أن يقول المرء ما ينبغي أن يُقال وبأعلى صوت. الحقيقة موجودة هنا، في دماغ مكتشفها، وستخرج منه عارية حيّة. لذلك ستنتشر المقالة كما

كتبتُها. وسنُعلم الجميع أن لوبين لا يزال على قيد الحياة، وسنُعلم الجميع لماذا أراد أن يظنَّ الناس أنه ميت. سأقول كلَّ شيء».

وبهدوء بالغ أردف قائلاً:

- «ولن ينجح أحد في اختطاف أبي».

ثمَّ لَزَمَا الصمت، كلاهما، نظراتهما ثابتة لا تحيد. كان واحدهما يراقب ردود فعل الآخر. وقد جرَّد سيف المبارزة لا يُردُّ إلى الغمد. وكان ذلك أشبه بالصمت الثقيل الذي يسبق الطعنة القاتلة. فمن سيكون الطاعن؟

تمتم لوبين:

- «هذه الليلة، عند الثالثة فجراً، سيعمد اثنان من رجالي، إن لم يتلقيا أمراً مضاداً مني، إلى الدخول إلى غرفة والدك، واقتياده، حسب أوامري التي أعطيت لهما، طوعاً أو غصباً، ثمَّ احتجازه إلى جانب غانيمار وشرلوك هولمز».

فأجابه بوتروليه بنوبة ضحك مدوية:

- «ولكن ألم تدرك بعد، أيها اللص، أنني اتخذت كل الاحتياطات اللازمة؟ أوتحسبني ساذجاً إلى هذا الحدِّ، فأعمد، بكلَّ غباء وحماسة، إلى إرسال والدي مجدداً إلى بيته المعزول في أقصى الريف؟».

آه! تلك الضحكة الهازئة التي أضفت حياةً على وجه إيزيدور! ضحكة فتية على شفثيه، ضحكة تحمل كلَّ ملامح لوبين وأسلوبه... ثمَّ هذا التخاطب المباشر الوقح الذي يضعه، لأول مرة، في صفِّ خصمه ومستواه!... وأردف قائلاً:

– «أوتدري يا لوبين أن نقيصتك الكبرى تكمن في اعتقادك بأن كل أحابيلك لا تخطيء. تعلن أنك مغلوب! يا للدعابة! وفي أعماقك القناعة التامة بأنك ستكون المنتصر دائماً في آخر المطاف... وتنسى دائماً أن للآخرين أيضاً أحابيلهم وشراكتهم. والشرك الذي نصبتك لك شديد البساطة يا صديقي».

كان سماعه ممتعاً وهو يذرع أرض الحجرة جيئةً وذهاباً وقد دس يديه في جيبي بنطاله، بعناد وينزق صبي يتلذذ بتعذيب الحيوان المفترس المكبل. والحق يُقال أنه كان في تلك الساعة بالذات يثار، وأيما ثأر، لكل ضحايا المغامر الشهير. ثم خلاص الى القول:

– «يا لوبين، أبي ليس في «السافوا»، إنه في الطرف المقابل من فرنسا، في وسط مدينة، وتحت حراسة عشرين رجلاً من جماعتنا الذين تلقوا الأمر بالسهر على سلامته حتى نهاية معركتنا. أترغب في سماع المزيد من التفاصيل؟ إنه في «شربورغ»، في منزل أحد مستخدمي الترسانة – والترسانة تقفل في الليل ولا يسمح لأحد بدخولها إلا مزوداً بتصريح خاص ومصحوباً بمرشد».

كان قد وقف قبالة لوبين يناكفه كما يناكف الولد رفيقاً له..

– «فما رأيك، أيها المعلم؟».

كان لوبين قد مكث صامتاً بلا حراك منذ بعض الوقت. لم تغمز عضلة واحدة من عضلات وجهه. فما رأيته؟ وماذا تراه يفعل؟ كان رد الفعل الممكن والوحيد لمن يعرف جيداً عنف كبريائه: الانهيار التام والفوري والنهائي لعدوه. تصلبت أصابعه. وتراءى لي للحظات أنه سينقض عليه لخنقه.

– «ما رأيك، أيها المعلم؟» ردّ بوتروليه قائلاً.

تناول لوبين البرقية التي تركها على الطاولة وأعطاهما لإيزيدور، وقال بكل الهدوء الممكن:

– «هاك، أيها الرضيع، اقرأ هذه».

لم يلبث بوتروليه أن استعاد سحنه الرصينة المقطبة إذ أذهلته رقة الحركة والنبرة. ففتح الورقة، وسرعان ما تمتم رافعاً عينيه نحوه:

– «ماذا يعني؟... لا أفهم شيئاً...»

– ولكن لا بدّ أنك أدركت معنى الكلمة الأولى في البرقية، قال لوبين، الكلمة الأولى التي تشير الى المكان الذي أرسلت منه... أنظر جيداً: شربورغ.

– أجل.. أجل.. أجاب بوتروليه متلعثماً... أجل.. شربورغ... وما القصد من ذلك؟

– القصد؟... أحسب أن التهمة ليست أقل وضوحاً: «اختطاف الطرد تم... اصططحبه الرفاق وفي انتظار التعليمات حتّى الثامنة صباحاً. كل شيء على ما يرام». ما الذي بدا لك غامضاً في هذه البرقية؟ كلمة «طرد»؟ آه! لم يكن مستحباً أن نستبدلها بعبارة: السيد بوتروليه الأب. إذاً، ماذا؟ الطريقة التي نفّذت بها العملية؟ المعجزة التي ساعدت على انتزاع والدك من ترسانة شربورغ برغم وجود عشرين حارساً؟ آه! إنها طفولة! والمهم أن الطرد قد أرسل. فما رأيك أنت، يا طفلي العزيز؟».

حاول إيزيدور بكل ما أوتي من جهد وأعصاب وقوة أن يحافظ

على مظهر الهدوء. إلا أن رعدةً سرت في شفتيه وانقبضت عضلات فكّيه وزاغت عيناه برغم الجهد الذي بذله لتثبيت نظراته في نقطة ما. تأتاً بضع كلمات وسكت، وفجأةً تهالك على الكرسي وقد غطى وجهه براحتيه وراح ينتحب:

– «أوه! أبي... أبي...».

خاتمة غير متوقعة إلا أنها تعبّر عن الانهيار التام الذي ترتضيه كبرياء لويين ثاراً، ولكن في الوقت نفسه، كانت خاتمةً من نوع مختلف وحّد اختلافها أنها مؤثرة على سذاجتها البالغة. أبدى لويين بعض الانزعاج وتناول قبّعته، كأنه بذلك يعبر عن ضيقه حيال تلك النوبة المبالغتة من الإفراط العاطفي. ولكن ما أن وصل الى الباب حتى توقف برهة، حائراً، ثم لم يلبث أن عاد أدراجه بخطواتٍ متمهلة، بطيئة.

كان صوت النحيب الخافت يُسمع كأنه أنين طفل صغير يبّرحه الشجن. كانت الكتفان تهترآن على وتائر النحيب وتنسربُ الدموع بين الأصابع المتشابكة. انحنى لويين ودون أن يلمس بوتروليه، وقال له دون أن يشوب نبرته أي أثر للسخرية أو لتلك الشفقة المهينة التي تلازم نبرة المنتصرين:

– «لا تبك، يا صغيري. يجب أن يتوقّع المرء مثل هذه الضربات عندما يخوضُ حرباً غير متكافئة، كما فعلت أنت. إنّ البليّات الأعظم تحدث بك... إنه قدر المقاتلين، وهذا ما يشاء. يجب أن تتلقى الضربة برباطة جأش».

ثم بنبرة رقيقة أردف قائلاً:

«لقد كنت محقاً، كما ترى، نحن لسنا بعدوين. لقد أدركت ذلك منذ وقت طويل... فقد شعرتُ، منذ البداية، ودون قصدٍ مني، بتعاطفٍ كبيرٍ حيال شخص من طينتك، وحيال الكائن المتوقد الذكاء الذي أراه فيك... عطف.. وإعجاب.. ولهذا السبب أريد أن أسرُ إليك بأمر ما... لا تخرج من المعركة مُهاناً... فسيؤلمني أن أهينك.. ينبغي أن أعترف لك بذلك.. إذاً! كُفَّ عن صراعك ضدي... وليس لأنني أكنّ لك احتقاراً ما... ولكن، كما ترى، المعركة غير متكافئة... وأنت لا تعرف... ولا أحد سواك يعرف كل مصادر القوة التي أمتلكها. خذ مثلاً لغز «المسلة الجوفاء» الذي تسعى لفك رموزه، واعترف للحظة أنه كنز رائع لا ينضب... أو ربّما ملاذ غير مرئي، معجزٌ وشديد الغرابة... أو قل إنه كِلا الاحتمالين معاً... وتخيل تلك القدرة التي تفوق قدرات البشر والتي قد استقيها منه! كما أنك لا تعرف كلّ القدرات التي أمتلكها... وكلّ ما تتيحه لي إرادتي ومخيّلتي من انجازات لا تخفق. وفكّر جيداً أن حياتي كلّها - وأستطيع أن أقول: منذ ولادتي - مشدودة نحو هدفٍ واحد، هدف كابدت الأمرين لبلوغه قبل أن أصبح ما أنا عليه الآن، ولتحقيق المواصفات الكاملة والمثالية للكائن الذي أردت أن أكونه في والذي أفلحت في خلقه. في مثل هذه الحال... ماذا يسعك أن تفعل؟ ستري لحظة توهّمك الانتصار عليّ، أن انتصارك هذا يتلاشى... وسيكون هنالك دائماً ما أغفلته.. تفصيل دقيق.. حبة الرمل التي أستطيع، أنا، أن أضعها في الموضع الصحيح، وفي غفلة منك... أرجوك، كُفَّ عن عنادك... وإلا أصبحت مُرغماً عليّ إيذائك، وهو أمر يؤلمني...».

وإن وضع يده على جبينه، ردّد قائلاً:

- «مرّة أخرى، يا صغيري، أقول لك كُفّ عن عنادك. وإلا فقد ينالك منّي ما يؤذيك. فمن يدري، ربّما كان الفخّ الذي سيوقع بك حتماً قد أصبح مُعدّاً تحت قدميك؟».

رفع بوتروليه رأسه. كان قد كُفّ عن البكاء، ولكن هل أصغى لأقوال لوبين؟ بدا شارداً الذهن ساهماً كأنّه لم يسمع كلمة واحدة. ومكث صامتاً لدقيقتين أو ثلاث كأنّه يدرس القرار الذي سيتخذه، يدقّق في سلبيّاته وإيجابياته، ويعدّد المكاسب أو الأضرار التي ستنتجم عنه. وفي آخر الأمر، قال مخاطباً لوبين:

- «إذا بدّلت مضمون مقالتي على النحو الذي يؤكد حادثة موتك، وإذا قطعت لك وعداً بأنني لن أعمد، ذات يوم، إلى تكذيب الرواية المغلوطة التي سادعم وقائعها المزعومة بأقوالي، فهل تقسم بأنك ستطلق سراح والدي؟»

- أقسم لك. لقد انتقل أصدقائي بالسيارة، برفقة والدك، إلى مدينة أخرى من المناطق الريفية. وغداً صباحاً عند الساعة بالضبط، إذا وجدت مقالة «لو غران جورنال» كما أريد، فسأتصل بهم هاتفياً فيطلقون سراح والدك.

- ليكن، قال بوتروليه، أوافق على شروطك كلّها.

ثمّ نهض على الفور كأنّه ارتأى، بعد اعترافه بالهزيمة، أنّ لا فائدة من إطالة المحادثة، وأخذ قبعبته وحيّاني ثمّ حيّاً لوبين وغادر.

رآه لوبين مغادراً ثمّ سمع جلبة الباب الذي يُغلق وتتمم:

- «إنّه صبيّ مسكين....».

في اليوم التالي، عند الثامنة صباحاً أرسلت الخادم ليحضر لي

نسخة من «لو غران جورنال». ولم يأت به إلا بعد انقضاء عشرين دقيقة، إذ وجد أن نسخ الصحيفة قد نفدت من معظم الأكشاك فور وصولها.

فتحت الصحيفة على عجل. فوجدتُ مقالة بوتروليه في صدر الصفحة الأولى. وهذا نصُّ المقالة كما أعادت نشره كلُّ صحف العالم:

حادثة أمبروميزي

ليس الغرض المرجو من هذه السطور تقديم شرح مفصّل للجهد الفكري والأبحاث التي استطعت بفضلها أن أعيد تركيب وقائع حادثة أمبروميزي، لا بل حادثة أمبروميزي المزدوجة. فأنا أزعّم أن هذا النوع من العمل والتعليقات التي يتضمنها، الاستنباط والاستدلال والتحصيل... إلخ، لا يكتسب سوى أهمية نسبية وعادية جداً بأية حال، لا، فسوف أقصر كلامي هنا على شرح الفكرتين الرئيسيتين اللتين قادتا أبحاثي وجهودي، وانطلاقاً منهما سيتضح في ما بعد أن التوصل إلى حلّ المسألتين اللتين تفترضهما الفكرتان فأكون قد رويت تفاصيل هذه القضية على النحو الأبسط ووفق تسلسل الوقائع التي رافقتها.

وسيلاحظ القارئ ربّما أن بعض هذه الوقائع لا تقترن بأدلة تؤكدها وأناي أفرد هامشاً لا بأس به للإفتراس. وهذا صحيح. ولكن أحسب أن الفرضية التي انطلقت منها تقوم على عددٍ لا بأس به من الوقائع المثبتة بحيث تصبح التهمة المفترضة، وإن من دون إثبات، أقرب إلى يقين لا يُردُّ. إذ غالباً ما يختفي الينبوع تحت مجراه المغطى بالحصى، إلا أن هذا لا يلغي حقيقة أن ما يلوح في

الفسحات المتباعدة تحت زرقة السماء ليس سوى الينبوع نفسه...

أبدأ إذاً بأول لغز، وهو ليس اللغز الذي يتناول التفصيل، بل اللغز الشامل الذي لفتني: فكيف يُعقل أن يستطيع لوبين، برغم إصابته القاتلة، البقاء على قيد الحياة مدة أربعين يوماً، بلا عناية أو أدوية أو طعام، في قعر تلك الحفرة المعتمة؟

لنذكر الوقائع منذ البداية. الخميس ٢٣ نيسان/أبريل وعند الرابعة فجراً، بوغت أرسين لوبين أثناء تنفيذه إحدى أجراء عملياته. وحاول الفرار عبر الخرائب ولكنه أصيب برصاصة. فحاول الزحف ونهض ثم سقط مجدداً ولكنه واصل الزحف على أمل الوصول الى الكنيسة. وهناك يوجد المدفن الذي اكتشفه بمحض المصادفة. فإذا نجح في الاختباء فيه، ربما كتبت له النجاة، فاستنفذ كل ما تبقى له من قوة للاقترب منه، وما أن أصبح على بعد أمتار من المدخل سمع وقع أقدام. فلم يكن أمامه إلا الاستسلام في انتظار ما سيحدث لشدة إعيائه. وصل العدو وكانت الأنسة ريموند دوسان فيران. تلك كانت افتتاحية المأساة أو بالأحرى المشهد الأول منها.

ماذا جرى بينهما؟ يسهل أن نخمن الآن ما جرى بعدما وفرت لنا تنمة المغامرة كل الدلائل الضرورية. وجدت الفتاة رجلاً جريحاً ممدداً عند قدميها، وقد أنهكتة الأوجاع وسيتم القبض عليه في غضون دقيقتين أو ثلاث. وهي التي أطلقت عليه الرصاص وأصابته. فهل تسلمه إلى رجال الشرطة؟

لو كان هو قاتل جان دافال لما ترددت لحظة واحدة في أن ينال

المصير الذي يستحقه ولكن الجريح يطلعها بعبارات مختصرة على حقيقة ما حدث وأدى الى وقوع تلك الجريمة المشروعة على يد عمها السيد دو جيفر. فتصدق روايته. فماذا تفعل إذا؟ لا أحد يراها. فالخادم فيكتور يراقب الباب الصغير، والآخر، البير، مكث قرب نافذة الصالة، وكلاهما ما عادا يريان ماذا يحدث هناك. فهل تسلم الرجل الذي أصابته بجروح؟

انتابت الفتاة مشاعر شفقة تدركها النساء جيداً فلم تقاومها. فعمدت بحركات سريعة وحسب ارشادات لوبين، إلى تضميد الجرح بمنديل جنباً لأي أثر قد يتركه النزيف على الأرض. ثم يعطيها مفتاحاً فتستخدمه لفتح باب الكنيسة. وتعيّنه الفتاة على الدخول إليها ثم توصل الباب وتبتعد. عندئذ يصل البير.

لو تمّ تفتيش الكنيسة في تلك اللحظة، أو على الأقل خلال الدقائق التي تلتها لكان تمّ القبض على لوبين لأنه ما كان يستطيع في مدة قصيرة من الزمن أن يرفع البلاطة التي تحجب مدخل المدفن نظراً لحالة الانهاك التي كان يعانيها... إلا أن عملية التفتيش لم تتم إلا بعد مضي ست ساعات، ولم يكن تفتيشاً دقيقاً ومتأنياً. وهكذا نجا لوبين ومن أنقذه؟ أنقذته الفتاة التي كادت أن تقتله.

وهكذا أصبحت الأنسة دوسان فيران، شاعت ذلك أم أبت، شريكة له. وأصبحت غير قادرة على مجرّد التفكير بتسليمه، وكان عليها أيضاً أن تقابع ما بداته وإلا مات الجريح في الملاذ الذي ساعدت على إخفائه فيه. وهذا ما فعلته بالفعل... فإذا كان حدسها كامراً قد دفعها إلى اتمام هذه المهمة على أنها واجب، فإن هذا الحدس نفسه قد سهّل لها طريقة التنفيذ. فهي فتاة لا تعوزها

النباهة اللازمة، وتحتاط لكل شيء. فتعتمد إلى الإدلاء بأوصاف خاطئة لأرسين لوبين (فلنتذكر هنا التناقض الواضح في إفادة كل من الفتاتين بهذا الشأن). وهي التي ستكتشف هوية السائق المزعوم، شريك لوبين، انطلاقاً من بعض المؤشرات التي أجهلها. وهي التي تشير عليه بضرورة إجراء جراحة عاجلة. ومما لا شك فيه أنها هي التي تستبدل القبعة بأخرى. وتكتب ذلك التهديد الذي يستهدفها شخصياً - فكيف يمكن بعد ذلك أن تكون موضع شبهات؟

وهي التي سارعت لحظة شروعي بالإدلاء ببعض استنتاجاتي الأولية على مسمع قاضي التحقيق، إلى الزعم بأنها شاهدتني مساء اليوم السابق في غابة الأشجار المقطوعة، ودفعت السيد فيول للارتياح بأمري وإسكاتي. وكانت مناورتها تلك بالغة الخطورة، من دون شك، لأنها ستؤدي إلى إثارة شكوكي حولها إذ أجدني متهماً بتهمة باطلة، إلا أنها مناورة ناجحة لأن الغرض منها لا يتعدى كسب الوقت وإسكاتي. وكانت هي التي تأتي للوبين بالطعام والعقاقير طوال أربعين يوماً (وليُسأل صيدلي أوفيل بهذا الشأن، فسيؤكد أنه سلّم كمية من العقاقير والأدوية بطلب من الأنسة دوسان فيران)، وأخيراً هي التي اعتنت بالمريض وضمدت جراحه وسهرت عليه، حتى تماثل للشفاء.

وهكذا نكون وجدنا حلّ أولى المسألتين وفي الوقت نفسه نكون قد عرضنا وقائع الحادثة. فقد وجد أرسين لوبين بقربه، ومن بين أهل القصر بالذات، من يمدّه بالعون الضروري لكي يمكث متوارياً عن الأنظار، أولاً، وثانياً لكي يظلّ على قيد الحياة.

والآن، إنه حيّ يرزق. وانطلاقاً ممّا سبق طرحت المسألة الثانية التي قادني التحري بشأنها إلى الإمساك بطرف خيط والتي ترتبط بحادثة أمبروميزي الثانية. إذ ما الذي يدفع لوبين، الحيّ، الطليق، والذي عاد مجدداً إلى تزعم عصابته مُستعيداً كلّ نفوذه وسطوته، ما الذي يدفعه الى بذل هذه الجهود الحثيثة المستميتة، التي غالباً ما اصطدم بها، لإقناع العدالة والرأي العام بفكرة موته؟

يجب أن نذكر هنا بأنّ الأنسة دوسان فيران فتاة جميلة جداً. ولا تُظهر الصور التي نشرتها لها الصحف بعد اختفائها إلا فكرة مشوّهة عن جمالها. ولذلك حدث ما كان لا بدّ من حدوثه. لقد مكث لوبين طوال أربعين يوماً، يرى تلك الفتاة الجميلة كلّ يوم ويتحرّق شوقاً إليها حين تغيب عنه، مكث أربعين يوماً مفتوناً بسحرها ورونقها، يتنّسم، كلّما انحنت عليه عطر أنفاسها العذب، فما كان منه إلا أن تولّه حباً بها. فقد استحال عرفان الجميل حباً، والإعجاب شغفاً. إنها الخلاص ولكنها أيضاً بهجة أنظاره وحلم ساعات عزله وصفاء سريره ورجاء حياته، لا بل حياته بالذات.

كان احترامه لها يفرض عليه ألا يستغل إخلاص الفتاة أو أن يتوسل خدماتها للاتصال بشركائه. وبالفعل كانت العصابة تعاني في ذلك الوقت من بعض الخلل في تنظيم عملها. ولكنه يحبها أيضاً، فلا يشغل نفسه كثيراً بالوساوس التي تنتابه وبما أن الأنسة دوسان فيران لم تستجب إلى حبّ يهيئها، وبما أنها راحت تقلّل من وتأثر ترددها عليه حين بدا أن حضورها الدائم إلى جانبه لم يعد ضرورياً، وبما أنها كفّت عن المجيء نهائياً عندما تماثل للشفاء... اتخذ لوبين، المعذب اليائس، قراراً رهيباً. فيغادر مخبأه ويخطط

لعمليته ويوم السبت ٦ حزيران/يونيو ينفذ عملية اختطاف الفتاة بمساعدة رفاقه.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد. إذ ينبغي عليه أن يمّوه وقائع عملية الاختطاف، لكي يقطع الطريق سلفاً على أية محاولة للبحث عنها أو أية توقّعات وآمال غير محسوبة: ولذلك يجب أن يبدو الأمر وكأنّ الأنسة دوسان فيران قد قتلت بعد اختطافها. ولهذا الغرض تمّ افتعال جريمة قتل مزعومة مصحوبة بالأدلة الكافية لإثابتها لدى التحقيقات. فوقع الجريمة مؤكّد. فهناك تهديدات سابقة بهذا المعنى، فالمفترض أن شركاء لوبين قد هدّدوا الأنسة بالقتل ثأراً لمقتل رئيسهم، وبهذه الطريقة - وهنا تبدو عبقرية المخطط والتخطيط - إذا جازت لي العبارة، يكون الجناة قد ساهموا في تزكية القناعة بأن لوبين قد مات.

إلا أن مجرد دفع الناس الى الاعتقاد لا يكفي بحدّ ذاته، فالحاسم في مثل هذه الحال هو الدليل القاطع الذي يولّد اليقين. لقد توقّع لوبين أن أساعد الشرطة بتحريّاتي. كما توقّع اكتشافاً في لموجودات الكنيسة المزيفة، والمدفن. وبما أننا لن نعثر على الجثة في المدفن فسينهار عندئذ كل ما خطط له.

لذلك سيُعثر على جثة في المدفن. وكذلك الأمر لن يكون إثبات وفاة الأنسة دوسان فيران نهائياً وحاسماً إلّا إذا لفظ البحر جثتها.

لذلك سيلفظ البحر جثة الأنسة دوسان فيران!

الصعوبة هنا بالغة، أليس كذلك؟ وبدون تذليل العقبتين ما يشبه الاستحالة؟ بلى، للاستحالة معنى ما إذا كان المعنى بها شخص

آخر غير لوبين، أما لوبين فالاستحالة ليست في قاموسه...

وكما توقّع تماماً، اكتشف تزيف الكنيسة، والمدفن وأنزل الى الجحر الذي لاذ به لوبين. وأجد جثته!

مثل هذه الخدعة قد تضلل كل من صدّق احتمال أن يكون لوبين ميتاً. أما أنا فلم أصدق لحظة واحدة أنه ميت (بالحدس أولاً، ثم بالإستدلال البرهاني). وعندئذ أصبحت الخدعة غير مجدية وكذلك كل الأحابيل التي رافقتها. وسرعان ما تنبّهت الى أن الكتلة الحجرية التي انهارت بضربة معول قد وضعت هناك بدقة متناهية بحيث أنها يمكن أن تنهار بفعل أية صدمة وأنها في انهيارها ستسحق رأس لوبين المزيف فيتعذر التعرف إلى صاحب الجثة الحقيقي.

ثم اكتشف آخر. بعد مضي نصف ساعة يبلغني خبر العثور على جثة الأنسة دوسان فيران فوق صخور «دييب»... أو بالأحرى خبر العثور على جثة يشتبه بأنها جثة الأنسة دوسان فيران لأنها تحمل في أحد معصمها سلسلة شبيهة بالحلية التي ترتديها عادة الفتاة الشابة. والحقيقة أنها القرينة الوحيدة التي دلت على هوية صاحبها لأن الجثة كانت مشوهة تماماً.

حول هذه النقطة أذكر جيداً وأفهم. فقبل ذلك التاريخ ببضعة أيام كنت قرأت في أحد أعداد صحيفة «لا فيجي دوديب»، أن زوجين أميركيين شابين انتحرا بالسّم خلال إقامتهما في «أنفرمو» وأن جثتيهما قد فقدتا ليلة وفاتهما بالذات. فهرعت إلى «أنفرمو».. فتبين لي أن الخبر صحيح، على ما قيل لي، باستثناء ما يتعلق باختفاء الجثتين، لأن أشقاء الضحيتين جاؤوا للمطالبة بتسليم

الجثتين ثم عمدوا إلى نقلهما بعد إنجاز المعاملات الروتينية.
ولا شك في أن هؤلاء الأشقاء يُدعون أرسين لوبين وشركاه.

واستناداً إلى ما سبق نكون قد أقمنا الدليل على حقيقة ما جرى.
إذ أدركنا دافع أرسين لوبين لافتعال جريمة قتل الفتاة المزعومة
وتزكية الأنباء حول موته. إنه عاشق، ولا يريد أن يعرف أحدٌ بذلك.
ولكي لا يذاع الخبر لا يتوانى عن أي شيء، لا بل يصل به الأمر
إلى حد ارتكاب عملٍ غريب كسرقة الجثتين لتلعب أحدهما دوره
وهو ميت في ما تلعب الأخرى دور الأنسة دوسان فيران. وبهذه
الطريقة يطمئن فلا يخشى تطفل أحد. إذ ليس في استطاعة أحد أن
يرتاب بالحقيقة التي يريد أن يطمسها.

لا أحد؟ بلى... ثمة ثلاثة خصوم قد يرتابون، إذا دعت الحاجة،
بشيء ما: غانيمار الذي كان متوقعاً قدومه، وشرلوك هولمز، الذي كان
يهمّ باجتياز المضيق، وأنا الذي كنتُ حاضراً في مكان الجريمة.
وهؤلاء يمثلون خطراً مثلثاً. فيزيله. يختطف غانيمار. ثم يختطف
شرلوك هولمز. أما أنا فيبعدني بطعنة خنجر من يد بريدو.

لم يبق إلا نقطة واحدة لا يزال يكتنفها الغموض. لماذا استمات
لوبين في محاولاته لانتزاع وثيقة المسلة الجوفاء مني؟ وذلك على
الرغم من علمه التام أن انتزاعه الوثيقة لن يحو من ذاكرتي نصّها
المؤلف من خمسة أسطر؟ إذاً، لماذا؟ هل كان يخشى أن أستخلص
منها أية معلومة إضافية، من نوع الورق المستخدم مثلاً أو أية
علامة أخرى؟

ومهما يكن من الأمر، هذه كلّ الحقيقة حول قضية أمبروميزي.
وأكرر القول أن الفرضية تلعب في التفسير الذي اقترحتة، دوراً

معيناً، كما لعبت دوراً كبيراً في التحريات التي قمت بها بنفسي. إلا أن انتظار تكامل الأدلة والوقائع في مجابهة لوبين لا تكون، في الأغلب، إلا ضرباً من الانتظار الذي قد يدوم إلى الأبد، أو ضرباً من الأدلة التي يخلفها لوبين عمداً، ومن شأنها أن تُقضي إلى نقيض الهدف المنشود.

وأنا لعل ثقة من أن الوقائع لن تلبث، ما أن تجتمع كاملة لدينا، أن تؤكد الفرضية التي أقترحها حول كافة النقاط.

هكذا إذا استطاع بوتروليه بعد تجاوزه صدمة اختطاف والده ورضوخه للهزيمة وسيطرة لوبين الكاملة، استطاع بوتروليه في خاتمة المطاف ألا يرضخ للتهديد ولم يلزم الصمت. فقد كانت الحقيقة أجمل وأغرب من أن يرضخ للرغبة في تزويرها، وكذلك الأدلة التي ساقها فقد كانت مقنعة في استنتاجاتها ومنطقية. كان العالم بأسره يتلهف لمعرفة أقواله، فتكلم.

وفي مساء اليوم نفسه كانت الصحف تُعلن عن اختطاف السيد بوتروليه الأب. وتلقى إيزيدور برقية من شربورغ تؤكد له هذا النبأ عند الساعة الثالثة.

الفصل الخامس

إقضاء الأثر

كانت الصدمة عنيفة وقد أذهلت بوتروليه. ففي أعماق نفسه، وبرغم استجابته في نشره المقالة، لإحدى تلك الاندفاعات التي لا تقاوم والتي تجعل المرء غير آبه بالمخاطر، لم يكن بوتروليه ليصدق لحظة في أعماقه الدفينة أن اختطاف والده أمر ممكن. لقد اتخذ كافة الاحتياطات الممكنة. ولم يتلقَ أصدقاؤه في شربورغ تعليمات صارمة بحراسة بوتروليه الأب وحسب، لا بل كان يتوجب عليهم أن يراقبوا روحاته وغدواته وأن لا يسمح له بالخروج من مكان إقامته بمفرده؛ حتى أنهم تلقوا تعليمات واضحة بأن لا تُنقل إليه أية رسالة قبل التثبت مسبقاً من فحواها. لا، لا، لم يكن هناك أي احتمال لأي خطر. ولوبين، على جاري عاداته في استخدام الحيلة، وكسب الوقت إنما كان يسعى لأرباك خصمه. لذلك كانت الصدمة مباغته بعض الشيء، ومكث طيلة نهاره في حالة من الذهول الموجه والعجز. كانت فكرة وحيدة تلحّ عليه: أن يذهب، أن يذهب إلى هناك، ليرى بأمّ عينيه ما الذي جرى بالفعل، ليتسنى له معاودة الهجوم. أرسل برقية إلى شربورغ. ونحو الساعة السادسة وصل إلى محطة سان لازار. وبعد ذلك بدقائق معدودة استقل القطار السريع. وكانت قد انقضت ساعة كاملة على بداية رحلته عندما وقعت

عيناه أثناء تصفحه لإحدى صحف المساء على نص الرسالة التي بعث بها لوبين وضمّنها رداً غير مباشر على مقالته الصباحية.

السيد رئيس التحرير

انا لا ازعم على الاطلاق ان شخصي المتواضع الذي ما كان ليظّل غفلاً بلا ريب في أزمنة تمتاز بقدر أكبر من البطولة، قد اكتسب أهمية ما في زمننا الحاضر، زمن الخمول والسطحية. ولكن ثمة حدود لا يخرقها فضول العامة المريض إلا بقصد التشهير المرذول. وإذا هان احترام كنف الحياة الخاصة، فأين يصبح ملاذ المواطنين؟

ايكون الدافع تذرعاً بإعلاء الحقيقة؟ بئس الذرائع في ما أرى، ما دامت الحقيقة بيّنة ولا يصعب عليّ أن أدون اعترافاً رسمياً بها. بلى، الآنسة دوسان فيران ما زالت على قيد الحياة. وبلى، أنا أحبها. وبلى، يضمنيني الأسى لأنها لا تبادلني الحب. وبلى، أعترف أن تحرّيات بوتروليه الصغير مدهشة لشدة دقّتها وصحّتها. وبلى، أوافقك الرأي حول كلّ النقاط. لم يعد هناك أي لغز. حسناً، ولكن ماذا بعد؟

إذ أشعر بالإساءة من صميم أعماقي مكابداً ألم الجروح المعنوية الأشدّ قسوة، أطلب أن يكفّ البعض عن التشهير بمشاعري وآمالي الدفينة على الملأ لتكون عرضة للخبث العام. ما أطلبه هو السّلم، السّلم الذي احتاجه لكي أستحق مودة الآنسة دوسان فيران ولكي أمحو من ذاكرتها ألف إهانة صغيرة تلقّتها من عمّها ومن ابنة عمّها - وهذا ما ظلّ طي الكتمان - لأنها اعتبرت دائماً النسبية المعرّزة الفقيرة. ستنسى الآنسة دوسان فيران هذا الماضي البغيض. وكلّ ما يمكن أن تشتهي، حتّى لو كان أجمل حلّة في العالم أو حتى أغلى الكنوز المستحيلة، سأضعه تحت قدميها. ستكون سعيدة. وستحبّني. ولكن لكي يكون لي ذلك وأكثر مرّة

أخرى، أحتاج إلى السلم. ولهذا السبب أقي سلاحى، وأحمل لأعدائى غصن الزيتون - كل أعدائى ولكن مُحذراً إياهم، وبكلّ نبل، أن أى رفضٍ من قبلهم قد تكون له أوحى العواقب.

كلمة أخرى بخصوص السيد هارلنغتون. حامل هذا الاسم فتى ممتاز، إنه سكوتير الملياردير الأمريكى كولى، ومكّلف من قبله بالاستيلاء على التحف الفنية القديمة التى يمكن الحصول عليها فى أوروبا. وشاء سوء الطالع أن يصادف صديقه إتيان دو فودرايكس، أى أرسين لوبين، أى أنا. وهكذا نعى إليه، وما نعى إليه مغلوط بالطبع، أن ثمة من يدعى السيد دوجيفر وأن هذا السيد يريد التخلص من أربع لوحات لروبنز شريطة أن يتم استبدالها بنسخ عنها ودون أن يحدّد السعر الذى يرتضيه فى المقابل. وبذل صديقى فودرايكس كل ما بوسعه لإقناع السيد دوجيفر ببيع «لا شابيل دوديو» المتقشرة قد نقلت الى مكان آمن... وأن السيد هارلنغتون، إلى أن تبين ذات يوم أن لوحات روبنز وحجارة «لا شابيل دوديو» المنقوشة قد نقلت الى مكان آمن... وأن السيد هارلنغتون قد أصبح نزيل السجن. لم يبق إذاً إلّا أن يتم إطلاق سراح الأمريكى المنكوب لأنّه اكتفى بأن يلعب دور المخدوع، والاسراع بفضح الملياردير كولى لأنّه، خوفاً من أية تبعات ممكنة، لم يعترض على اعتقال سكوتيره، والتقدّم بأحرّ التهاني لصديقى إتيان دو فودرايكس، أى أنا، لأنه يثار للرأي العام من خلال تحفظه على الخمسمئة ألف فرنك التى تلقاها كسلفة على الصفقة من يد ذلك الرجل الغليظ الدم المدعو كولى.

أرجو، يا عزيزى رئيس التحرير، أن تعذر اسهاب هذه السطور، وتفضل بقبول فائق الاحترام.

أرسين لوبين

قد يكون إيزيدور قد مَحَص عبارات هذه الرسالة مدقّقاً كما

انكبَّ على تمحيص وثيقة المسألة الجوفاء. فقد كان ينطلق من ذلك المبدأ الذي يسهل البرهان على صحته، وهو أنَّ لوبين لم يلجأ يوماً إلى نشر إحدى رسائله المسلية في الصحف إلا في حالة الضرورة القصوى أو لدافعٍ ما لا تلبث الأيام أن تظهره بطريقةٍ أو بأخرى. فما دافعه هذه المرة؟ ولأي سبب يبوح بحبه وبالرفض الذي يلقاه هذا الحب؟ أينبغي أن تستوقفنا هذه الناحية أم التفسيرات التي تتعلّق بالسيد هارلنغتون، أو ربّما أبعد قليلاً، بين السطور وتحت كلّ هذه الكلمات التي قد لا يعني ظاهرها إلا الإشارة إلى الفكرة الصغيرة الرديئة المكارّة والمضلّة؟...

مكث الشاب لساعاتٍ في مقصورته قلقاً، مُستغرقاً في أفكاره. كانت تلك الرسالة قد ملأت روعه بمشاعر الحيرة والحذر، كأنّها كتبت خصيصاً له وبقصدٍ تضليله، هو بالذات. ولأوّل مرّة انتابه الإحساس الصريح بالخوف إذ وجد نفسه لا في مواجهة هجوم مباشر، بل أمام نهج ملتبس من القتال، يصعب عليه تحديده. وما أن طالعتَه صورة أبيه العجوز الذي اختطفَ بسببه حتّى راح يتساءل بقلقٍ وريبةٍ عمّا إذا كان عناده في متابعة المعركة غير المتكافئة ليس ضرباً من الجنون. اليست النتيجة محسومةٌ سلفاً؟ اليس لوبين هو المنتصر سلفاً؟

لحظات تشكُّك عابرة! وعندما غادر عربة القطار عند العاشرة صباحاً بعد ساعات من النوم المريح، كان إيزيدور قد استعاد ثقته بنفسه.

وكان فرويرفال، أحد مستخدمي الميناء العسكري الذي استضاف بوتروليه الأب في منزله، ينتظر على رصيف المحطة برفقة

ابنته شارلوت وهي فتاة صغيرة في الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها.

- «إذاً، ماذا حدث؟» بادره بوتروليه قائلاً.

فراح الرجل الطيب يغمغم مُتلعثماً، فقاطعه إيزيدور واصطحبه الى مقهى مجاور وبعد أن طلب القهوة، بدأ استجوابه السريع دون أن يتيح لمحدثه أية فرصة للاستطراد:

- «لم يختطفوا والدي، أليست كذلك، فذلك مُستحيل؟

- مستحيل، بلى. ومع ذلك لقد اختفى.

- منذ متى؟

- لا نعلم بالضبط.

- كيف!

- لا، لا نعلم. عند السادسة من صباح أمس، لاحظتُ أنه لم يخرج من غرفته ففتحت الباب ولم يكن هناك.

- ولكن، أول أمس، كان لا يزال موجوداً؟

- أجل. أول أمس، لم يبرح غرفته. كان مُتعباً بعض الشيء فصعدت إليه شارلوت بطعام الغداء ظهراً ثم بطعام العشاء عند السابعة مساءً.

- إذاً اختفى الوالد بين السابعة من مساء أول أمس والسادسة من صباح أمس؟

- أجل، ليل أول أمس. ولكن...

- ولكن ماذا؟

– أعني... أنه أثناء الليل لا يمكن الخروج من الترسانة.
– هذا يعني أنه لم يغادر المكان؟
– مستحيل! لقد بحثنا، أنا والرفاق، في الميناء العسكري كله.
– هذا يعني أنه غادر المكان.
– مستحيل. كل المنافذ تخضع لحراسة مشددة». .
فكر بوتروليه ثم قال: .
– «وفي غرفته هل كان السرير مرتباً؟
– أجل.
– والغرفة على حالها؟
– أجل. لقد وجدت غليونه في موضعه وكذلك علبة التبغ والكتاب
الذي كان يقرأه. حتى أنني وجدت هذه الصورة الصغيرة، صورتك،
بين الصفحات.
– أرني الصورة». .
أعطاه فروبيرفال الصورة. وبدأت على وجه بوتروليه معالم
الدهشة. فقد رأى نفسه في الصورة واقفاً وقد وضع يديه في جيبي
بنطاله، ومن حوله مرجة خضراء تتخللها أشجار وخرائب. وأردف
فروبيرفال قائلاً:
– «لا بدّ أنها آخر صورة أرسلتها إليه. انظر من الخلف تاريخ
التقاطها... ٣ نيسان/أبريل، واسم المصور ر. دوفال، واسم
المدينة، ليون... ليون سورمير... ربما». .
وبالفعل كان إيزيدور قد قلب الصورة وقرأ هذه الملاحظات
المكتوبة بخط يده: ر. دوفال – ٣ – ٤ – ليون.

سكت لبضع دقائق ثم سأل:

- «ألم يطلعك أبي على هذه الصورة من قبل؟

- الحقيقة، لا... وقد فوجئتُ حين وجدتها يوم أمس... ذلك أن والدك كان يحدثنا عنك باستمرار!».

ران الصمت مجدداً، لفترة طويلة. ثم تمتم فروبرفال:

- «لديّ عمل في المشغل... فهلاً ذهبنا...».

وسكت. كان إيزيدور يحدّق في الصورة، متمّعناً في تفاصيلها. وأخيراً سأل الشاب:

- «أيوّجد نزل اسمه نزل «ليون دور» على بعد فرسخ تقريباً من هذه المدينة؟

- بلى، بلى، على بعد فرسخ واحد من هنا.

- على طريق فالونيه، اليس كذلك؟

- على طريق فالونيه بالضبط.

- إذأ، ثمة ما يدفعني إلى الافتراض بأنّ هذا النزل كان مقرّاً لأصدقاء لوبين. ومن هناك استطاعوا الاتصال بوالدي.

- أي كلام هذا! كان والدك لا يكلم أحداً. ولم يرَ أحداً.

- لم يرَ أحداً، ولكنهم استخدموا وسيطاً.

- وما دليلك على ذلك؟

- هذه الصورة.

- لكنّها صورتك؟

- إنها صورتي ولكنني لم أرسلها. حتّى أتني لا أعرف مصدرها.

لقد التقطت في غفلة مني بين خرائب أمبروميزي، والأرجح أن ملتقطها هو كاتب قاضي التحقيق الذي تبين، كما تعلم، أنه أحد شركاء لوبين.

- وهذا يعني؟

- أن هذه الصورة شكّلت نوعاً من جواز المرور، الطلسم الذي من خلاله استطاعوا كسب ثقة والدي.

- ولكن من؟ من استطاع أن يتسلل الى منزلي؟

- لست أدري، ولكن أبي وقع في الفخ. قيل له وصدّق من ناحيته أنني في الجوار وأنني أرغب في رؤيته إذا استطاع المجيء الى نزل «ليون دور».

- ولكن كل هذا أشبه بالجنون المطبق! كيف لك أن تكون جازماً؟...

- ببساطة. لقد قام أحدهم بتزوير خطي على مقلب الصورة لتدوين مكان الموعد بدقة: طريق فالونيه، ٣ أو ٤ كلم، نزل «ليون». فحضر والدي إلى المكان واحتجزوه، وانتهى الأمر.

- ليكن، تتمم فروبير فال مذهولاً، ليكن... أقر... بأن الأمور جرت على هذا النحو... غير أن هذا كله لا يُفسّر كيف استطاع أن يغادر المكان خلال الليل.

- لقد غادر في وضوح النهار، على أن ينتظر حلول الليل للذهاب إلى مواعده.

- ولكن كيف يفعل بحق السماء، وهو لم يبرح غرفته طيلة نهار أول أمس.

- هناك وسيلة للتثبت من هذا الأمر. اذهب الى الميناء يا فروبيرفال وحاول أن تستدعي أحد الذين كانوا يقومون بالحراسة في فترة ما بعد ظهر أول أمس... وإذا أردت أن تجدني في انتظارك حين تعود حاول أن تسرع قدر المستطاع.

- أنت مغادر إذا؟

- أجل، سأستقل القطار مجدداً.

- كيف!... ولكنك لا تعلم... وتحرياتك...

- لقد انتهت تحرياتي. وبتُ أعرف كل ما أردتُ معرفته تقريباً. وسأغادر شربورغ في غضون ساعة واحدة.

نهض فروبيرفال ورمق بوتروليه بنظرات استهجان، مكث متردداً لثوانٍ، ثم أخذ قبعته.

- «هيا يا شارلوت!

- لا، دعها، قال بوتروليه، ما زلت في حاجة لبعض المعلومات. فدعها لي. ثم إنها مناسبة لنتحدث قليلاً. لقد عرفتُها طفلةً صغيرة».

غادرهما فروبيرفال. ومكث بوتروليه برفقة الفتاة وحيدين في صالة المقهى. انقضت دقائق من الصمت، دخل خادم المقهى ورفع الأكواب عن الطاولة ومضى.

التقت عينا الشاب عيني الطفلة، ووضع بوتروليه يده برقة بالغة على يد الفتاة الصغيرة. رمقته لثانيتين أو ثلاث مضطربة كأنها تشعر بضيق ما. ثم فجأة شبكت ذراعيها فوق رأسها مطرقةً وانفجرت بالبكاء.

مكث يرمقها وهي تبكي، وبعد برهة، قال لها:

– «لقد أنجزت، أنت، المهمة، أليس كذلك، أنتِ مَنْ لعب دور الوسيط؟ أنتِ مَنْ أحضر الصورة؟ أنتِ تعترفين، أليس كذلك؟ وعندما قلت إن والدي كان في غرفته يوم أول أمس، كنتِ تكذبين، أليس كذلك، لأنك ساعدته على الخروج...».

مكثت صامتة. فقال لها:

– «لماذا فعلت ذلك؟ لقد أعطوك مالاً، من دون شك... ما يتيح لك أن تشتري لنفسك ثوباً.. وشرايطه».

جعلها تخفض ذراعيها ورفع لها رأسها. فرأى وجهاً كئيباً أغرقته الدموع، وجهاً لطيفاً، مُقلقاً ومتبدلاً يشبه وجوه كل الفتيات الصغيرات اللواتي يسهل استدراجهن والإيقاع بهنّ.

– «هيا، أردف بوتروليه قائلاً، لقد انتهى الأمر. لن أحدثك بهذا الشأن بعد الآن... ولن أسأل حتى كيف جرت الأمور. ولكن ستخبريني فقط بما قد يُساعدني في تحريّاتي!... ألم تلاحظي شيئاً دون قصد... كلمةً تلفظ بها أولئك الناس وقد تكون ذات معنى؟ كيف جرت عملية الخطف».

فأجابت دون تردد:

«بواسطة سيارة... لقد سمعتهم يتحدثون بهذا الشأن».

– وأي طريق سلكوا؟

– آه، لست أدري.

– ألم يتبادلوا أي كلام في حضورك، أية عبارة قد تساعدنا؟

– لا... ولكن أحدهم قال: «يجب أن نعمل بسرعة... فعند الثامنة من صباح الغد سيتصل بنا الرئيس هاتفياً هناك...».

– أين، هناك؟ ... تذكرني جيداً... إنه اسم مدينة، أليس كذلك؟

– أجل.. اسم... يشبه أن يكون شاتو..

– شاتوبريان؟ ... شاتوتيري؟

– لا.. لا..

– شاتورو؟

– أجل.. شاتورو...».

وقبل أن تكمل عبارتها كان بوتروليه قد نهض عن كرسيه، ودون أن يأبه لعودة فروبيرفال الوشيكة أولنظرات الفتاة التي كانت ترمقه بذهول هرع الى الباب وفتحه ثم غادر مسرعاً في اتجاه المحطة.

– «شاتورو... يا سيديتي... تذكرة الى شاتورو...»

– عبر لومان وتور؟ سألت الموظفة.

– بالطبع.. عبر الطريق الأقصر... وهل أصل الى هناك في وقت

الغداء؟

– آه! لا..

– في وقت العشاء؟ أو النوم؟...

– آه! لا، لكي تصل في مثل هذه الأوقات عليك أن تسافر عبر

باريس وقطار باريس السريع ينطلق عند الثامنة... وأحسب أنك تأخرت بعض الشيء، لقد فات الأوان».

لم يفت الأوان. فباستطاعة بوتروليه أن يستقل القطار السريع من باريس.

– «إلى الأمام، قال بوتروليه مبتهجاً، لم أمكث في شربورغ لأكثر من ساعة ولكنها كانت مثمرة جداً».

لم يخطر له للحظة واحدة أن يتهم شارلوت بالكذب. ذلك أن مثل تلك الكائنات الصغيرة، قادرة على الاستجابة أيضاً لاندفاعات صادقة بمقدار ما هي ضعيفة وضالّة وقادرة على أسوأ الخيانات. وكان بوتروليه قد لمح في عينيها الخائفتين سيماء الخجل لما اقتربته من سوء، وسيماء البهجة لقدرتها على إصلاح غلطتها ولو جزئياً. لذلك لم يكن إيزيدور ليرتاب لحظة واحدة في أن شاتورو هي المدينة الأخرى التي ألمح إليها لوبين ومنها سيتلقّى اتصالاً هاتفياً من رجاله.

فور وصوله إلى باريس اتخذ بوتروليه كل الاحتياطات اللازمة للتثبت من أن أحداً لا يتعقبه. كان يحسّ بخطورة الموقف. فها هو يسير على الدرب الصحيح الذي سيقوده إلى والده، وهفوة واحدة منه قد تؤدي بكل جهوده.

دخل إلى منزل أحد رفاق الدراسة في الثانوية وغادره بعد ساعة من الزمن كأنه شخص آخر. كان متنكراً بزي رجل انكليزي على مشارف الثلاثين، يرتدي طقمًا بنياً ذا مُرَبَّعات، وبنطالاً قصيراً وجوربين من الصوف، ويعتمر قبعة السفر، في ما بدا وجهه أكثر احمراراً تزيّنه لحية صهباء.

ركب دراجة هوائية حُمِلت سلفاً بعدة رسّام كاملة واتجه مسرعاً نحو محطة «استرليتس».

أمضى ليلته في «إسودون». وما أن لاح فجر اليوم التالي حتى انطلق بدراجته. وعند الساعة صباحاً كان في مركز البريد في شاتورو وطلب اتصالاً هاتفياً بباريس. وفي الانتظار راح يتبادل أطراف الحديث مع الموظف وعلم منه أنه يوم أول أمس، في ساعة

مماثلة تقريباً، جاء رجل يرتدي زيّ سائق وطلب اتصالاً هاتفياً بباريس.

كان الدليل قاطعاً. فلم ينتظر مدة أطول.

في فترةٍ بعد الظهر علم أن سيارة ليموزين قد عبرت بلدة بوزانسيه سالكةً طريق تور، ثمَّ عبرت مدينة شاتورو وتوقفت على مسافةٍ منها عند أطراف الغاية. وعند العاشرة تقريباً شوهدت عربة كابريوليه يقودها شخص وتوقفت قرب الليموزين، ثمَّ انطلقت في اتجاه الجنوب عبر وادي «بوزان» وشوهد شخصٌ آخر يجلس إلى جانب الحوذي. أمّا الليموزين فقد سلكت الاتجاه المعاكس وانطلقت في اتجاه الشمال، نحو «إسودون».

لم يجد إيزيدور مشقةً في العثور على صاحب الكابريوليه إلا أن هذا الأخير لم يكن لديه ما يقوله. فقد أجز عرْبته وحصانه لشخصٍ ما ثمَّ أعادهما بنفسه في اليوم التالي.

وأخيراً لاحظ إيزيدور، في مساء اليوم نفسه، أن السيارة الليموزين لم تتوقف في «إسودون» بل تابعت طريقها نحو «أورليان» أي في اتجاه باريس.

كانت التحريّات إذاً تؤكد على نحوٍ قاطع بأن والد بوتروليه لا يزال في الجوار. وإلا كيف يصدّق المرء أن الجناة قطعوا نحو خمسمئة كيلومتر عبر مناطق فرنسا للمجيء إلى شاتورو بهدف إجراء مكالمة هاتفية ثمَّ العودة تَوّاً إلى باريس؟ فقد كانت الغاية من هذه الجولة الرائعة نقل بوتروليه الأب إلى المكان المتفق عليه. «وهذا المكان في متناول يدي، كان إيزيدور يقول برعشة الأمل. على بعد عشرة فراسخ، على بعد خمسة عشر فرسخاً من هنا، أرى أبي

في انتظار نجدتي. إنه هنا. ويتنشق الهواء الذي أتنشقه».

دون إبطاء انطلق في حملته. فقسّم المنطقة، مُستعيناً بخارطة عسكرية، إلى نطاقات صغيرة مُربّعة وراح يدقّق فيها على التوالي؛ كان يدخل الى المزارع ويتحدّث الى المزارعين، ويقصّد المدرّسين في مدارسهم، والمخاتير ورهبان الرعيّة والنساء. كان يحسب أنّه على وشك الوصول إلى غايته، وراحت أحلامه تتعاظم تدريجياً، إذ لم يعد يأمل في إطلاق سراح أبيه فقط، بل أيضاً كلّ الذين احتجزهم لوبين في أسره: ريموند دوسان فيران، غانيمار، وربما شرلوك هولمز، وآخرين، وآخرين كثير. وفي اهتدائه اليهم يكون في الوقت نفسه قد وصل الى قلب الحصن الذي يلوذ به لوبين، إلى جحره، إلى الملاذ الحصين الذي يكتّس فيه كلّ الكنوز التي سرقها.

ولكن بعد خمسة عشر يوماً من البحث الدؤوب وغير المجدي، وهنت عزائمه وسرعان ما فقد ثقته بجدوى البحث. وإذا تراعت له صعوبة النجاح في ما يسعى اليه، أصبح، بين ليلة وضحايا، يرى أنّه أمرٌ مستحيل، وبرغم مواصلته البحث وفق المخطط المرسوم غير أنّه ما كان ليصدّق أن جهوده قد تثمر.

مضت أيام أخرى، رتيبة ومحبطة. وعلم بواسطة الصحف أن الكونت دوجيفر وابنته قد غادرا إمبروميزي وانتقلا للإقامة في نواحي «نيس». وعلم أيضاً بأن السلطات أطلقت سراح السيّد هارلنغتون بعد أن اتضحت لها براءته حسب التعليمات التي ذكرها أرسين لوبين في رسالته.

نقل مقرّ عمليّاته من شاتورو الى «لا شاتر» حيث مكث يومين، ثمّ يومين آخرين في «أرجونتون». وكانت النتيجة نفسها: لا شيء.

كانت الأمور قد بلغت به حدَّ اليأس. فلا ريب أن الكابريوليه التي نقلت والده لم تقطع من المسافة إلا بعضها تلتها مرحلة أخرى تمّت بواسطة عربة أخرى. ولا بدّ أن والده قد أصبح بعيداً عن هذا المكان. وفكّر جدياً بالرحيل.

ولكن ذات صباح، صباح يوم اثنين، لفته مغلف رسالة وصلتته من باريس بالبريد المحوّل، أربكت كيانه. وكان انفعاله من القوّة بحيث مكث لدقائق ساكناً لا يجرؤ على فتح المغلف خشية أن تناله خيبة ما. كانت يده ترتعش، أيُعقل ما يراه؟ أليس في الأمر خدعة ما دبّرها له عدوّه الجهنمي؟ ثمّ فتح المغلف مُتلهّفاً. ووجد أنها بالفعل رسالة من أبيه، ومكتوبة بخط يد أبيه. كلّ ما يتميّز به خط أبيه وطريقته في رسم الحروف. وقرأ:

«هل ستصلك هذه الكلمات يا بُنيّ؟ أكاد لا أصدّق.

«لقد أمضينا ليلة اختطافي كلّها في رحلة طويلة بالسيّارة، ثمّ انتقلنا في الصباح إلى عربة. لم أستطع أن أرى شيئاً. فقد عصبوا عيني. أما القصر الذي يحتجزونني داخل جدرانته فيبدو، استناداً إلى هندسته وأعشاب حديقته، أنه من قصور فرنسا الوسطى. والغرفة التي أقيم فيها تقع في الطبقة الثانية، فيها نافذتان إحداهما موصدة تماماً بشبيكة من نبات الوبستارية. خلال فترات بعد الظهر يُسمح لي، في ساعات معينة، أن أنتزّه في الحديقة ولكن تحت حراسة مشدّدة.

«أكتب لك هذه الرسالة دون أن أعرف بالضبط كيف لي أن أرسلها. لقد ربطتها بحجر وذات يوم ربّما استطعت أن أرمي بها إلى ما بعد السور فيعثر عليها مزارع ما. لا تقلق بشأنني. الأقي معاملة جيدة.

«والدك العجوز الذي يحبك كثيراً والذي يشعر بالأسى لما يسببه لك من كدر».

«بوتروليه».

سارع بوتروليه الى التحقق من الختم البريدي فإذا به يُشير الى كوزيون (اندر). اندر! هذه المقاطعة التي يستमित، منذ أسابيع، في البحث فيها!

دقق في دليل جيب يحمله دائماً معه. كوزيون، محافظة إيغوزون... لقد سبق له أن مرّ بتلك الناحية.

ولزيد من التحوّط نزع عنه شخصيّة الانكليزي التي أصبحت معروفة في الناحية، وتذكر بزّي عامل وقصد كوزيون، وهي بلدة صغيرة فلم يجد مشقة كبيرة في العثور على مرسل الرسالة.

لا بل عثر عليه على الفور، بضربة حظ.

«رسالة وضعت في البريد يوم الأربعاء الماضي؟... قال العمدة، وهو سيّد نبيل كان قد أسرّ إليه بغرض زيارته فوضع نفسه في تصرفه... اسمع، أعتقد أن لديّ ما يُساعدك في سعيك... صباح يوم السبت، صادفتُ في طريقي مجلّخاً عجوزاً يجوب كل أسواق المحافظة ويدّعي المعلم شاريل، فسألني: «سيدي العمدة هل يمكن وضع رسالة في صندوق البريد إذا كانت لا تحمل طابعاً بريدياً؟ - بالطبع! - وهل تصلُ إلى صاحبها؟ - بالطبع، عليه فقط أن يدفع ضريبة إضافية لا أكثر».

- «وأيّن يقيم المعلم شاريل؟

- إنه يقيم هناك، وحيداً، عند منحدر التلة... في كوخ خلف المقبرة... أتود أن أصحبك اليه؟.

كان كوخاً منعزلاً، وسط مرجة تحيط بها أشجار عالية. وعندما دخلا طار ثلاثة من طيور الهذار من حجرة كلب الحراسة المربوط إلى بابها. لم ينبج الكلب عند اقترابهما ولم يحرك ساكناً.

لم يخف بوترولييه دهشته من سلوك الكلب ودنا منه. فكان الحيوان المسكين رابضاً على جنبه متصلب القوائم، ميتاً.

فهرعا راكضين نحو البيت فوجدا الباب مفتوحاً.

دخلا. وإذا برجلٍ راقدٍ فوق فراش تبني، في صدر الحجرة الرطبة الواطئة.

- «إنه المعلم شاريل! صرخ العمدة... هل مات هو أيضاً؟».

كانت يدا الرجل باردتين وعلا الشحوب وجهه، إلا أن قلبه ما زال يخفق بطيئاً واهناً، ولم يُصب بأي جرح.

حاولا إنعاشه، ولما أخفقا في ذلك هرع بوترولييه بحثاً عن طبيب. ولم يفلح الطبيب أيضاً في إنعاشه. كان الرجلُ العجوز راقداً لا تبدو عليه معالم الألم؛ ومن يراه يحسب ببساطة أنه نائم لكنه نومٌ غير طبيعي كأنه خضع لتتويم مغنطيسي أو خدر بمادة مخدرة.

إلا أنه عند منتصف الليلة لاحظ إيزيدور الذي كان ساهراً بقربه أن تنفسه أصبح قوياً ومنتظماً وبدأ جسمه كله وكأنه يتحرر من تلك القيود الخفية التي كانت تشل حركته.

استيقظ عند الفجر وعاود حياته الطبيعية، فأكل وشرب وتحرك،

غير أنه لم يستطع الإجابة على أسئلة إيزيدور الذي ألح عليه بها طيلة النهار، كأن رأسه لا يزال غارقاً في خدرٍ غريب.

وفي اليوم التالي سأل بوتروليه:

- «وأنت، ماذا تفعل هنا؟».

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُعبر فيها عن استهجانه لوجود غريب إلى جانبه.

وشيئاً فشيئاً استعاد، على ذلك النحو، كلَّ وعيه. فتكلم وتحدث مطوّلاً عما يودّ أن يفعله. ولكن حين سأل بوتروليه عما جرى قبل نومه الطويل، بدا وكأنه لم يفهم.

وبالفعل كان بوتروليه يشعر في أعماقه بأن الرجل لم يفهم. لقد فقد ذاكرة الأحداث التي جرت منذ يوم الجمعة الفائت. كأن ثغرة عميقة تخالّت مجرى حياته العادية. إذ بدا قادراً على سرد كلِّ ما جرى له في صباح ذلك اليوم وفي فترة ما بعد الظهر، أعماله التي أنجزها في السوق ووجبة الطعام التي تناولها في المنزل. ثم... لا شيء... وعندما استيقظ من غفوته حسب أنه يستيقظ في صبيحة اليوم التالي.

وكان بوتروليه يشعر برعب حقيقي حيال هذا الأمر. فالحقيقة كانت هناك، أمامه، في عيني العجوز الذي رأى أسوار القصر، الأسوار التي خلفها يمكث والده منتظراً قدومه؛ الحقيقة الماثلة في اليدين اللتين عثرتا على الرسالة، وفي الدماغ المشوش الذي نسي المكان والديكور وكافة تفاصيل ذلك الركن الضيق من العالم حيث تدور المأساة. وكان الهلع يستبدُّ به ليقينه أنه لن يستطيع أن

يحصل، من هاتين اليدين، وهاتين العينين، وهذا الدماغ، على
صدى ولو بعيد من تلك الحقيقة التي بدت في متناول يده!

آه! يا لها من عقبة وهمية كأداء، تلك التي تحول دون أن تثمر
جهوده. عقبة مادتها الصمت والنسيان، وكم تحمل بصمات لوبين!
فهو وحده القادر بعد اكتشافه أمر الرسالة أن يضرب الشاهد
الوحيد القادر على فضحه بمثل هذا الموت الجزئي. ليس لأن
بوتروليه كان يشعر بأن أمره قد افترض وبأن لوبين الذي أخطر
بهجومه المكتوم وبالرسالة التي استلمها، قد بادر إلى الاقتصاص
منه. بل ما أذهله هو ما أبداه لوبين من التحوط والدراية والذكاء في
استعجاله التخلص من الاتهام المحتمل الذي قد يتعرض له بناءً
على أقوال عابر سبيل! وبات يستحيل على أي كان أن يعرف أن ثمة
محتجراً يستغيث طلباً للعون بين أسوار الحديقة.

لا أحد؟ بلى، هناك بوتروليه. ألا يستطيع المعلم شاريل الكلام؟
ليكن. ولكن من الممكن على الأقل الاهتداء إلى السوق حيث أنجز
الرجل العجوز أعماله، ومن هناك التوصل، بالمنطق، إلى معرفة
الطريق التي سلكها عائداً. وهكذا ربّما استطاع خلال سلوكه
الطريق نفسها أن يجد...

ولذلك قرّر إيزيدور أن لا يعود مرةً أخرى إلى كوخ المعلم
شاريل، وهو بأية حال كان قد اتخذ منذ البداية كل الاحتياطات
اللازمة لكي لا يثير الشبهات. وبعد تحريّات أجراها علم أن يوم
الجمعة كان يوم السوق في فريستلين، وهي بلدة كبيرة نسبياً على
بعد بضعة فراسخ، ويمكن الوصول إليها إما عبر الطريق العام،

وهي طريق متعرجة وطويلة، وإما عبر قادميات في البراري المحيطة.

ويوم الجمعة اختار أن يسلك الطريق العام قاصداً فريسيين، ولم يرَ خلال رحلته ما يلفت الانتباه، فلا أسوار عالية ولا أثر لقصر قديم. تناول طعام الغداء في نزلٍ هناك وكان يهَمُّ بالمغادرة عندما رأى المعلم شاريل قادماً عبر الساحة يدفع عربة المجلّخ الصغيرة أمامه. فتعقّبه ولكن من بُعد.

توقّف العجوز مرتين ومكث في كلّ منهما مدّة طويلة يجلّخ عشرات السكاكين. وفي آخر المطاف سلك طريقاً مختلفة تمتدّ في اتجاه كروزان وبلدة إيغوزون.

مشى بوتروليه خلفه على هذه الطريق. إلا أنه سرعان ما أدرك أنه ليس المتعقب الوحيد لأثر الرجل. فقد لمح شخصاً يسير بينهما يتوقف حين يتوقف المعلم شاريل وينطلق حين ينطلق، دون أن يكلف نفسه عناء التحوّط أو الحذر.

«إنهم يراقبونه، قال بوتروليه في سرّه، وربما يفعلون للتثبت من أنه سيتوقف حين يمرّ بالأسوار...».

راح قلبه يخفق بشدّة. فالمرتقب بات وشيكاً.

تابع الرجال الثلاثة سيرهم، واحد منهم خلف الآخر؛ يهبطون المنحدرات ويتسلقون التلال حتّى وصلوا إلى كروزان. وهناك استراح المعلم شاريل ساعة كاملة. ثم هبط المنحدر في اتجاه النهر واجتاز الجسر. وهناك حدث ما لم يتوقعه بوتروليه. إذ لم يعمد الرجل الآخر إلى اجتياز الجسر بل مكث يراقب الرجل العجوز

مبتعداً وعندما غاب عن أبصاره سلك درباً أفضى به إلى وسط الحقول. ما العمل إذا؟ مكث بوتروليه حائراً لثوانٍ. ثم حسم أمره فجأةً. وسار في أثر الرجل الغريب.

«لا بدّ أنه اطمأن إلى أن المعلم شاريل تابع طريقه المعتاد. قال إيزيدور في سرّه وحين اطمأن كفّ عن مراقبته وذهب. ولكن إلى أين؟ إلى القصر؟»

كان على مقربةٍ من الهدف، ويُدرك ذلك جيّداً بسبب تلك الخفة الموجهة التي تملّكته.

توغّل الرجلُ الغريب داخل غابة معتمة تطلّ على النهر، ثم خرج منها حيث رآه بوضوح عند ظاهر الدرب. وعندما خرج بوتروليه بدوره من الغابة كانت مفاجأة عظيمة إذ وجد أن الرجل قد اختفى. راح يُجِيل أبصاره في الأنحاء حين انطلقت منه بغتةً صرخة مكتومة وقفز إلى الوراء محتتماً بصف الأشجار عند طرف الغابة. لقد رأى، إلى يمينه، سوراً من الجدران العالية تتخلّلها، على مسافات متساوية، دعائمُ حصنٍ هائلة الحجم.

إنه المكان!! إنه المكان! إنها الأسوار التي تحتجز والده! لقد عثر على المكان السري الذي يحتجز فيه لوبين ضحاياها!

مكث بوتروليه في مكانه الذي تحجبه أغصان الغابة المتشابكة. وببطء شديد زحف في اتجاه الجهة اليمنى وبعد مشقةٍ وصل إلى قمة تلة صغيرة بارتفاع ذُرَى الأشجار المجاورة. وكانت الجدران تفوقها ارتفاعاً. ومع ذلك لمح سقف القصر الذي تسوّره، وهو من طراز لويس الثالث عشر القديم تعلوه قباب دقيقة ومصمّمة في شكل رأس تاج يحيطُ بسهمٍ مسنّنٍ يفوقه ارتفاعاً.

اكتمى بوتروليه ذلك اليوم بالمراقبة. إذ كان عليه أن يفكر ملياً قبل التخطيط للهجوم لكي يتجنب أية مفاجأة طارئة. فبعد اكتشافه المكان الذي يُقيم فيه لوبين أصبح هو سيّد الموقف وله وحده يعود اختيار توقيت الهجوم وأسلوب المعركة. ولذلك قدّر أن يعود أدراجه. قرب الجسر التقى مزارعتين تحملان دلاءً مليئةً بالحليب. فسألهما:

- «ما الاسم الذي يُطلق على ذلك القصر هناك، وراء الأشجار؟
- إنه قصر «المسلّة» يا سيّد».

كان بوتروليه يسأل دون أن يُعنى كثيراً بالجواب. ولكنّ الجواب أذهله.

- «قصر «المسلّة»... آه!... ولكن ما اسم هذه المنطقة؟ أهى محافظة الإندر؟

- لا، محافظة الإندر تقع عند الجهة المقابلة من النهر... نحن هنا في محافظة «لا كروز»^(*).

بدا إيزيدور وكأنّه تلقى صدمة انبهار. قصر المسلّة! ومحافظة لا كروز! المسلّة، الجوقاء! مفتاح لغز الوثيقة! لقد أصبح الانتصار في متناول اليد، حاسماً ونهائياً...

ودون أن يتفوّه بأية كلمة أخرى، أولى الإمرأتين ظهره وغادر مُترنحاً كرجلٍ ثمل.

(*) وتعني: الجوقاء. (م. ع).

الفصل السادس

سرّ تاريخي

كان قرار بوتروليه فورياً وحاسماً: سيعمل بمفرده لأنَّ اللجوء الى الشرطة قد يشكّل خطراً كبيراً. فبالإضافة الى أنَّ ما استنتجه مبنّي على تخمينات فقد كان إيزيدور لا يخفي تخوّفه من بطء الاجراءات الرسميّة، واحتمال تسرّب الخبر أثناء التحقيقات الأوليّة، الأمر الذي قد يثير انتباه لوبين فيجد متسعاً من الوقت لتنظيم قراره.

في صباح اليوم التالي، منذ الثامنة، حمل متاعه الخفيف تحت ذراعه وغادر النزل الذي كان مقيماً فيه في نواحي كوزيون وتوارى خلف أوّل دغل صادفه فنزع عنه أسمال العامل المزعوم واستعاد شخصيّة الرسام الانكليزي وقصد مكتب الكاتب العدل في إيغوزون التي تُعتبر أكبر بلدان المقاطعة.

ادّعى في حديثه أنّه معجب بالمنطقة وأنّه إذا عثر فيها على منزل ملائم فسيكون من دواعي سروره أن ينتقل اليها هو وأهله. أشار عليه الكاتب بعددٍ من المنازل الشاغرة ولحّ بوتروليه أن هناك من أشار عليه بقصر المسلة، شمالي منطقة لا كروز.

- «أجل، بالفعل، ولكن قصر المسلة الذي استملكه واحدٌ من زبائني منذ خمسة أعوام ليس للبيع.

– إنه يقيم فيه إذا؟

– كان يقيم فيه أو الأخرى كانت والدته تقيم فيه. إلا أنها لم تستطع احتمال العيش في مناخ القصر. ولذلك هجرته منذ سنة تقريباً.

– والآن، أهو شاغر؟

– لا، يقطنه رجلٌ إيطالي يُدعى البارون أنفريدي كان موكلي قد أجّره المكان لقضاء فصل الصيف.

– آه! البارون أنفريدي، إنه رجلٌ فتيّ، رصين.

– الحقيقة، لست أدري... فقد كانت صلتته بموكلي مباشرة. ولم يتمّ الايجار بموجب عقد... بل بموجب رسالة...

– ولكنك تعرف البارون؟

– لا، إنه لا يغادر القصر... أحياناً يغادره ليلاً، على ما يبدو، وبالسّيارة. أما بشأن المؤن فهناك طبّاخة عجوز تتولّى الأمر ولا تكلم أحداً. إنهم أناس غريبوا الأطوار...

– وهل يوافق موكلك على بيع قصره؟

– لا أعتقد. إنه قصر تاريخي، من أفضل ما بُني من طراز لويس الثالث عشر. وكان موكلي يُبدي تعلقه الشديد به، وإذا لم يطرأ في الأثناء ما يجعله يبدّل رأيه...

– بإمكانك أن تطلعني على اسمه؟

– لويس فالмира، ٢٤ شارع مونتابور.

استقلّ بوتروليه قطار باريس من أقرب محطة. وفي اليوم التالي استطاع، بعد ثلاث زيارات غير مثمرة، أن يقابل لويس فالмира. كان

رجلاً ثلاثينياً ذا وجه بشوش يتألق لطفاً. فارتأى بوتروليه على الفور أن لا حاجة للمناورة فعرف عن نفسه بصراحة وروى لمضيفه تفاصيل مسعاه والغرض منه.

- «لديّ كل الأسباب التي تدفعني للاعتقاد بأن والدي محتجز في قصر المسلة، قال في خلاصة حديثه؛ وأعتقد أن هناك محتجزين آخرين؛ وجئتُ إليك لأسألك عما تعرفه بشأن المستأجر البارون أنفريدي.

- لا أعرف الكثير. لقد التقيتُ البارون أنفريدي خلال الشتاء الماضي في مونت كارلو. وإذا علم بمحض المصادفة أنني أملك قصراً سارع إلى عرض استئجاره مني لأنه يود قضاء فصل الصيف في ربوع فرنسا.

- أهو رجلٌ فتى...؟

- أجل، ذو عينين مليئتين بالحيوية، وشعر أشقر...

- وله لحية؟

- بلى، لحية مفروقة تغطي ياقة مستعارة تزر من الخلف وتذكر بياقة رجل دين. ومظهره يشبه بأية حال مظهر راهب انكليزي.

- إنه هو، تمتم بوتروليه، إنه هو، تماماً كما رأيته، إنها الصفات التي تنطبق على مظهره.

- ماذا!... أعتقد أن...؟

- أعتقد، لا بل أنا واثق من أن البارون هو أرسين لوبين.

راقت الحكاية للويس فالмира. فقد كان مطلعاً على تفاصيل

مغامرات لوبين وعلى كافة مراحل صراعه ضد بوتروليه. فبدأ مُبتهجاً.

- «إذا سيُصبح قصر المسألة قبلة الانتظار... وهو أمر لا يُسيئني على الإطلاق، ذلك أنني غالباً ما راودتني فكرة بيعه لأوّل مُشتري منذ أن هجرته والدتي. وبعد كلّ ما قلته لي، فلن أجد صعوبةً في إيجاد المشتري ولكن...»
- ولكن ماذا؟

- أرجو منك أن تعالج هذه المسألة بحذر كبير وأن تمتنع عن إخطار الشرطة إلّا إذا تثبّت من الأمر. أنت تعلم جيّداً، احتمال أن لا يكون البارون هو أرسين لوبين؟..»

فأوضح بوتروليه مخطئه. سيذهب إلى القصر ليلاً، بمفرده فيتسلّق السور ثم يخبئ في الحديقة...
فقاطعه لويس فالмира على الفور:

- «لن تقدر على تسلّق جدران بمثل هذا الارتفاع. ولنفترض أنك أفلحت في ذلك فلن تطأ قدماك أرض الحديقة حتّى يستقبلك هناك كلبا حراسة من أشرس الأنواع، كانا لوالدتي فأبقيتهما في القصر.
- أوه! يا لهذه الغلطة...

- أشكرك! ولكن افترض أنك أفلحت في التخلص من الكلبين. ماذا تفعل؟ كيف ستدخل إلى القصر؟ فالأبواب ضخمة ومحصنة والنوافذ محمية بحواجز مُشبكة. ثم حتّى لو دخلت إلى القصر، من سيدلّك هناك؟ فهناك ثمانون غرفة.

- أجل، ولكن تلك الغرفة ذات النافذتين في الطبقة الثانية؟...

- أذكرها... نسميها غرفة الوستاريات. ولكن كيف ستهدي إليها؟ هناك ثلاثة أدراج ومتاهة من الأروقة. ومهما حاولت أن أدلك أو أن أرشدك إلى ما ينبغي أن تفعله، ستضلّ الطريق لا محالة.
- إذاً، تعال معي، قال بوتروليه ضاحكاً.

- مستحيل. لقد واعدت أمي على ملاقاتها في جنوب فرنسا.
عاد بوتروليه إلى منزل الصديق الذي استضافه وراح يعدّ العدة للرحيل. إلا أنه ما أن أنهى كلّ الترتيبات وهمّ بمغادرة المنزل حتّى فوجيء بزيارة فالمرّا.

. - «أما زلت مصمماً على اصطحابي؟»

- طبعاً!

- إذا سأذهب برفقتك. أجل، لقد أغوتني المغامرة. أحسب أن الأمر سيكون مسلياً، ويسرّني أن أشارك في كل هذا... هذا ناهيك عن أن وجودي هناك سيكون عوناً لك. خذ، هذا أول العون.
ولوّح بمفتاح ضخّم يغطيه الصدا كأنه خردة قابلة للكسر.
- «وهذا المفتاح يفتح؟...» سأل بوتروليه.

- يفتح باب السّرّبين دعامتين في السور لم يستخدم منذ قرون طويلة وبدأ لي أنه من غير الضروري أن أطلع مستأجري الجديد على وجوده. والباب يقضي إلى الحقول المجاورة، وبالتحديد إلى أطراف الغابة...»

قاطعه بوتروليه بغتة:

- «إنهم يعلمون بوجود هذا المدخل. ولا بدّ أن الرجل الغريب

الذي تعقبته قد دخل منه الى الحديقة. هيا، ستكون اللعبة مشوقة وستفوز بها. ولكنها لعبة صعبة جداً!..

... بعد ذلك بيومين وصلت الى كروزون عربية غجر يجرها حصان خائر، واستطاع حوزيها أن ينال الاذن بأن يحط الرحال عند طرف البلدة في عنبر مهجور. وبالإضافة الى الحوزي، الذي لم يكن سوى فالميرا بالذات، كانت العربية تحمل ثلاثة أشخاص منهمكين في جدلٍ مقاعد من ألياف السوحر: بوتروليه وبرفقتة اثنان من رفاق ثانوية جانسون.

مكثوا هناك ثلاثة أيام في انتظار ليلة ملائمة يجوبون فيها، كل واحد منهم على حدة، أرجاء الناحية المحاذية للحديقة. وخلال إحدى جولاته لمح بوتروليه باب السرّ. كان باباً صغيراً بين دعامتين يصعب أن تميّزه عين بعد أن كسسته الأشواك والعُليق عن الشكل البارز لحجارة السور. أخيراً، في مساء اليوم الرابع تلبّدت السماء بغيوم كثيفة داكنة وقرّر فالميرا أن يقوموا بجولة استكشاف على أن يعودوا أدراجهم إذ رأوا أن الظروف غير مؤاتية للتسلّل.

اجتاز الرجال الأربعة الغابة الصغيرة. ثم زحف بوتروليه بين نبات الخننج فأدّمت يديه إبر العوسج، ثم رفع جذعه قليلاً وبحركة حذرة وبطيئة أدخل المفتاح في القفل. وأداره فيه برفق. هل سيُفتح الباب ببساطة؟ أم أن مزلاجاً يوصده من الداخل؟ دفعه قليلاً ففتح الباب دون أن يحدث صريراً. فدخل الى الحديقة.

- «أنت هنا يا بوتروليه؟ سأل فالميرا، انتظرني. أما أنتما أيّها الصديقان فراقبا الباب جيداً للتنبّث من أن أحداً لن يعترض طريق عودتنا. وحين تشتبهان بأي شيء أطلقا صفرة واحدة».

أمسك بيد بوتروليه وتوغلا في ظلال الأشجار الكثيفة. وعندما وصلا الى طرف المرجة في وسط الحديقة بدت لهما فسحة أقل إظلاماً، ومن هناك شاهدا القصر بقبابه المستننة التي تزتر ذلك السهم المشوق الذي منه استقى القصر اسمه بلا ريب. كانت النوافذ معتمة، والسكون يُخيم على الأرجاء. أمسك فالмира بذراع رفيقه.

- «اصمت.

- ماذا؟

- الكلبان هناك... رأيتهما...».

سُمعت أصوات نخير فأطلق فالмира صفرة خافتة وإذا بكتلتين بيضاوين تقفزان في اتجاهه ولم تلبثا أن أقعتا عند قدميه.

- «مهلاً يا صغيري... اربضا هنا... أحسنتما... امكثا هكذا هادئين...».

ثم خاطب بوتروليه قائلاً:

- «لنمض الآن، لقد أصبحت مطمئناً.

- هل أنت واثق من الطريق؟

- أجل، لقد أصبحنا على مقربة من المصطبة.

- ماذا تقصد؟

- حالما نصل الى الناحية اليسرى من المصطبة المطلّة على النهر، حيث تعلو قليلاً وتحاذي نوافذ الطبقة الأرضية، سنجد، إن لم تخني الذاكرة، درفة يمكن فتحها من الخارج لأنها لا تقفل جيداً.

وبالفعل ما أن وصلا الى المكان الذي أشار اليه فالмира حتى

اهتديا الى الدرفة واستطاعا فتحها ببعض الجهد. واستطاع فالميرا أن يقطع الزجاج بطرف ماسة ورفع المزلاج. ثم دخلا الى القصر.

- «نحن الآن في الحجرة التي تقع عند طرف الرواق. ويجوارها هناك ردهة واسعة مزينة بتماثيل وعند طرف الردهة هناك درج يفضي الى الحجرة التي احتجز فيها والدك».

ثم تقدّم خطوة.

- «أتتبعني يا بوتروليه؟

- أجل، أجل.

- لماذا تقف هناك.. ما الذي أصابك؟».

أمسك يده فوجدتها باردةً أما بوتروليه فكأنه سُمر في مكانه.

- «ما الذي أصابك؟ سأله مجدداً.

- لا شيء... مجرد أمر عارض.

- ولكن، أخبرني..

- أنا خائف!

- خائف!

- أجل، قال بوتروليه بارتباك... إنها أعصابي... غالباً ما أكون قادراً على تمالك نفسي.. ولكن اليوم، كل هذا الصمت.. والإنفعال... وخصوصاً بعد الإصابة التي نلتها من خنجر ذلك الكاتب.. لكنه أمر عابر».

وبالفعل بدأ يتمالك نفسه فأمسك فالميرا بيده وقاده الى خارج الغرفة. تقدّما متلمّسين طريقهما في الرواق ببطء وحذر. وبدأ لهما

أن نوراً خافتاً ينبعث من الردهة التي يقصدانها. ولم يلبث أن اتضح لهما أنه نور قنديل وضع فوق طاولة عند أسفل الدرج، خلف شجيرة نخيل.

— «قف!» قال فالميرا هامساً.

فقد رأى رجلاً مسلحاً ببندقية يقوم بالحراسة قرب القنديل. فهل رآهما؟ ربّما. ولكن المؤكد أنه اشتبه بأمر ما لأنه سارع الى رفع سلاحه.

تهالك بوتروليه راكعاً قرب حوض زرعت فيه شجيرة ومكث بلا حراك هلعاً وقد تسارعت خفقات قلبه.

لم يلبث الرجل أن اطمأن الى سكون الأشياء من حوله. فأرخى سلاحه. لكنّه مكث يحدّق في اتجاه الشجيرة.

انقضت دقائق طويلة من الذعر، عشر دقائق، أو ربّما خمس عشرة دقيقة، وانعكس عبر النافذة شعاع أضواء الدرج. وسرعان ما أدرك بوتروليه أن انعكاس ضوء القمر لن يلبث أن ينتقل ببطء، وفي غضون عشر دقائق أخرى، سيسلّط على المكان الذي يختبئ فيه.

سقطت قطرات من العرق البارد المتصبّب من جبينه على يديه المرتجفتين. ولشدة هلهه كاد ينهض لائذاً بالفرار... ولكنّه تذكر أن فالميرا على مقربة منه فراح يُجيل نظراته في الأنحاء بحثاً عنه وفوجيء حين رآه، أو بالأحرى حين تراءى له، مُتسللاً في العتمة خلف الشجيرات والتماثيل حتّى وصل إلى أوّل الدرج، على بعد خطواتٍ من الحارس.

أتراه صمّم على العبور من هناك برغم وجود الحارس؟ ويصعد

بمفرده لنجدة المحتجز؟ ولكن هل يستطيع أن يعبر؟ كان بوتروليه يتساعل في سرّه حائراً حين أدرك فجأةً أن فاليريا قد توارى عن أنظاره وأحسّ بأنّ شيئاً ما سيحدث، وأنّ الحدث المرتقب يعتمل في كنف الصمت الثقيل، الراكد في وجوم الرهبة.

وفجأةً لح طيفاً ينقضّ على الرجل، فانطفأ القنديل وتناهدت الى مسامعه جلبة قتال... هرع بوتروليه للتحقق من الأمر، فوجد الرجلين يتصارعان على البلاط. أراد أن ينحني لمساعدة رفيقه لكنه لم يلبث أن سمع حشجة اختناق تبعثها زفرة أشبه بنخير ثم نهض أحد المصارعين وأمسك بذراعه.

- «هيا بنا، أسرع».

وكان ذلك صوت فاليريا.

صعدا طبقتين ووصلا إلى فناء أحد الأروقة وقد فرشت أرضيته بالسجاد.

- «إلى الجهة اليمنى، همس فاليريا... الغرفة الرابعة الى اليسار».

وسرعان ما اهتديا الى باب تلك الغرفة، وطبقاً لتوقعاتهما وجدا أن الباب مقفل بالمفتاح. وكان عليهما أن يفتحما الغرفة بالقوة فاستغرقهما ذلك نحو نصف ساعة. وفي آخر الأمر دخلا. استطاع بوتروليه أن يهتدي الى السرير متمسكاً طريقه في العتمة المطبقة. كان والده نائماً. فأيقظه برفق.

- «هذا أنا، إيزيدور.. ويرفقتي صديق... لا تخف.. انهض...
والزم الصمت...».

ارتدى الأب ملابسه ولكن ما أن همّوا بالخروج حتى قال هامساً:

- «لست المحتجز الوحيد في القصر...

- آه! ومن هم الآخرون؟ غانيمار؟ هولنز؟

- لا.. أو على الأقل لم أشاهدتهما.

- إذاً من؟

- هناك فتاة.

- إنها الأنسة دوسان فيران، من دون أدنى شك.

- لست أدري... لقد رأيته مراراً من بعيد في الحديقة... وكذلك الأمر أستطيع أن أرى نافذة غرفتها إذا ما انحنيت قليلاً فوق حافة نافذتي... وكانت تلوح لي بإشارات.

- وهل تعرف في أية غرفة يحتجزونها؟

- أجل، في إحدى غرف هذا الرواق، إنها الغرفة الثالثة لجهة اليمين.

- الغرفة الزرقاء، تمتم فالميرا. إنه باب بمصراعين ولن يصعب علينا اقتحامه.

وبالفعل، سرعان ما فُتح الباب، وتولّى بوتروليه الأب إخطار الفتاة بما يحدث.

ثم خرج من الغرفة برفقة الفتاة وقال مخاطباً ابنه:

- «لقد كنت محقاً... الأنسة دوسان فيران».

هبطوا الأدراج الى الطبقة الأرضية وعندما وصلوا الى أسفل

السلّم توقف فالميرا وانحنى قليلاً لمعاينة الرجل الممدّد على الأرض،
ثمّ انتحى بهم ناحية حجرة المصطبة وقال لهم:

— «لم يمت؛ سيحيا.

— آه! تنهّد بوتروليه تعبيراً عن ارتياحه.

— لحسن الحظ لم تكن الطعنة قاتلة. وبأية حال، هؤلاء الأندال
لا يستحقّون الشفقة».

وعندما وصلا الى الخارج هرع الكلبان لملاقاتهم ورافقاهم حتّى
باب السرّ. وهناك انضموا الى رفيقي بوتروليه وغادروا الحديقة.
كانت الساعة تشير الى الثالثة فجراً.

ما كان بوتروليه ليكتفي بانتصاره في الجولة الأولى. وما أن وجد
مكاناً آمناً لإقامة والده والفتاة حتّى راح يسألهما عن المقيمين في
القصر وعن عادات أرسين لوبين بصورة خاصة. وبهذه الطريقة
علّم أن لوبين لا يأتي الى القصر إلّا مرّة كلّ ثلاثة أو أربعة أيّام،
يصل مساءً في سيّارة ويغادر منذ الصباح الباكر. وفي كلّ مرّة يتفقد
سجينيه ويزورهما؛ وكان بوتروليه الأب والفتاة متّفقين على التنويه
بمعاملته لهما وبلطفه الشديد. وأوضح أنّه في تلك الأثناء لا بدّ أن
يكون غائباً عن القصر.

وفيما عدا لوبين لم ير أيّ منهما سوى امرأة عجوز تتولّى أمور
المطبخ وتدير شؤون القصر، بالإضافة الى رجلين آخرين كانا
يتناوبان على حراستهما بصمت، ولا بدّ أنّهما مجرد مرؤوسين نظراً
لمظهرهما وسلوكهما.

— «ومع ذلك يمكن القول إنّهما شريكا لوبين، قال بوتروليه، لا بل

ثلاثة إذا لم تغفل المرأة العجوز. إنه صيد ثمين. وإذا استطعنا أن نسرع في ما....».

ركب دراجة هوائية وهرع الى بلدة إيغوزون حيث أيقظ رجال المخفر وأخطر الجميع بحقيقة الأمر، ثم عاد الى كروزون عند الثامنة برفقة المفوض وثمانية من رجاله.

مكث اثنان منهم يحرسان العربة. فيما وقف اثنان آخران قرب باب السر. وتوجه الأربعة الآخرون وعلى رأسهم المفوض مصحوباً بيوتروليه وفالميرا الى المدخل الرئيس للقصر. لكنهم وصلوا بعد فوات الأوان. كان الباب الرئيس مشرّعاً على مصراعيه وأخبرهم أحد المزارعين أنه رأى، لساعة خلت، سيارة تغادرُ باحة القصر من الباب.

لم تؤدّ التحريات إلى أية نتيجة ملموسة والأرجح أن العصابة كانت على أهبة الاستعداد للانتقال من القصر في أية لحظة. ولم يُعثر بعد التدقيق إلا على بعض الأمتعة العتيقة والملابس وعددٍ من الأواني.

وما أذهل بيوتروليه وفالميرا هو اختفاء الجريح ولم يبق في المكان أي أثر للمعركة التي دارت بين الرجلين ولم يعثر على نقطة دماء واحدة على بلاط الردهة.

وفي النهاية لم يُعثر على دليل مادي واحد قد يؤكّد إقامة لوبين في قصر المسلة، وكان في استطاعة رجال الشرطة أن يرتابوا بصدق مزاعم بيوتروليه ووالده ومزاعم فالميرا والآنسة دوسان فيران، لو أنهم لم يعثروا، في اللحظات الأخيرة وفي غرفة مجاورة للغرفة التي احتجزت فيها الفتاة، على نصف دزينة من باقات الورد الرائحة

والتي أرفقت بها بطاقة أرسين لوبين. باقات لم تعرها الفتاة اهتماماً فبقيت في موضعها ذابلاً مهملة... وكانت إحدى هذه الباقات تحمل بالإضافة الى بطاقة لوبين، رسالة لم تنتبه الفتاة الى وجودها. وعندما أعطى قاضي التحقيق أوامره بفتح الرسالة، في فترة ما بعد الظهر، تبين أنها رسالة من عشر صفحات مليئة بالرجاء والتوسلات والوعود والتهديدات وعبارات اليأس أي كل ما يتضمنه قاموس الغرام الذي لم يلقَ إلا الصدَّ واللامبالاة. وكانت الرسالة قد ختمت بالعبارة التالية: «سأعود مساء الثلاثاء، يا ريموند. وحتى ذلك اليوم، فكّري جيداً. بتُّ لا أطيق الانتظار وقد أفعل أي شيء».

وحدث أنّ مساء الثلاثاء الموعد جاء بوتروليه وأطلق سراح الأنسة دوسان فيران.

يذكر الجميع تلك الموجة العارمة من الذهول والحماس والتي عمّت العالم بأسره لسماعه النبأ المفاجيء: الأنسة دوسان فيران طليقة! لقد نجت الفتاة التي تولّه لوبين بحبّها وأوقع بها مستخدماً أقصى أحابيله المكيفيلية، وانتزعت من بين مخالبه! وكذلك الأمر والد بوتروليه استعاد حرّيته؛ بوتروليه الأب الذي اختطفه لوبين في حمياً سعيه لهدنة ينصرف خلالها لتلبية ما يفرضه عليه هواه. لقد أصبحا طليقين

وسر المسئلة الذي اعتقد الجميع أنّه عصيّ على الفهم، فكّت رموزه وعُرف ونشرته الصحف في أرجاء العالم كلّهُ!

وأصبح المغامر سخرية الرأي العام وسلواه. ونظمت الأغنيات في هجائه: «غراميات لوبين». «نحيب أرسين!...»، «اللصّ العاشق»

أو «شكوى النشال!»، وكانت الأغنيات تتردد في الأماكن العامة والخاصة، في الشوارع والساحات.

وكانت ريموند تردّ على الحاح الصحفيين والفضوليين بالقدر الأكبر من التحفظ. ولكن الرسالة موجودة وكذلك باقات الورد وكل تفاصيل المغامرات البائسة! وهكذا هوى لوبين المهان الذي أصبح أضحوكة الجميع، من عليائه، ويات بوتروليه معبود الجماهير ومثالها، فقد رأى وخمن واكتشف كل شيء. وأكدت إفادة الأنسة دوسان فيران أمام قاضي التحقيق حول تفاصيل اختطافها، الفرضية التي انطلق منها العبقرى الشاب. وبدأت كل التفاصيل مطابقة لتوقعاته المسبقة. وبدأ أن لوبين قد وجد أخيراً من يغلبه.

الح بوتروليه على والده وأقنعه بأن يمضي بضعة أشهر من الراحة والاستجمام قبل عودته إلى جبال السافوا، واصطحبه بنفسه وبرفقة الأنسة دوسان فيران إلى نواحي «نيس» حيث أقام الكونت دو جيفر وابنته لقضاء فصل الشتاء. وفي اليوم التالي جاء فالмира بوالدته وانضمت إلى أصدقائه الجدد، فأصبحت فيلاً دو جيفر أشبه بمنتجع ترقاده جالية صغيرة من المتبطلين، ويخضع ليلاً نهاراً لحراسة نصف دزينة من الحراس الذين استقدمهم الكونت لهذا الغرض.

في مطلع تشرين الأول / أكتوبر، عاد بوتروليه، تلميذ علم البيان، إلى باريس لاستئناف دراسته والإعداد لامتحاناته. واستؤنفت عجلة الحياة، هادئة هذه المرة لا تعترضها الحوادث من أي نوع. ما الذي قد يحدث؟ ألم تنته الحرب؟

ولا بدّ أن لوبين قد أدرك، من جهته، هذه الحقيقة وأيقن أن لا

مفرّ من الرضوخ للأمر الواقع؛ ولذلك ربّما عُثر ذات يوم، ودون سابق إنذار، على ضحيتيه الآخرين، غانيمار وشرلوك هولمز. فجأة عادا الى الحياة ولم يكن في ظهورهما مجدّداً ما يدعوهم الى الفخر والاعتزاز. فقد عثر عليهما عامل التنظيفات عند «الكيه دورفيفر» قبالة مركز الشرطة، مكبلين ومخدّرين.

لم يتبدّد ذهولهما إلّا بعد انقضاء أسبوع كامل، وعلى الأثر استطاعا ترتيب افكارهما وراحا يرويان - أو الأحرى راح غانيمار يروي، لأنّ هولمز لزم صمتاً مطبقاً - أنهما قاما برحلة بوليسية على متن اليخت «ليرونديل»، حول أفريقيا، وكانت الرحلة ممتعة ومفيدة حيث مكثا طليقين طيلة المدّة التي استغرقتها باستثناء بعض الساعات التي أمضيها في قعر الأنبار، فيما طاقم اليخت يتنزّه في الموانئ الغربية. أما كيف وصلا إلى «الكيه دورفيفر» فلا أحد منهما يذكر شيئاً حول هذا الأمر، إذ لا بدّ أنهما خدّرا قبل ذلك بأيامٍ عديدة.

كان إطلاق سراح الرجلين بمثابة اعتراف بالهزيمة. وفي انسحابه من المعركة كان لوبين يقرّبها دون موارد.

وقد حدث أيضاً ما جعل الهزيمة أشد وضوحاً: الإعلان عن خطوبة لويس فالмира والأنسة دوسان فيران. فقد ساهمت ظروف العيش الحميمة المستجدة في التوفيق بين مشاعر القلبين العاشقين. فالмира، من جهة، أحبّ مسحة الكآبة في شخصية ريموند؛ أما هي التي كابدت قسوة الحياة فقد وجدت في شخصه ما يلبي حاجتها للإحساس بالأمان والرعاية، وجدت فيه قوّة واندفاعاً من ساهم بجرأة في انقاذ حياتها.

وكان الرأي العام ينتظر يوم زفافهما المُعلن بكثير من التوجّس والقلق. ألن يلجأ لوبين الى الهجوم مرّة ثانية؟ أيقبل صاغراً بأن يفقد الى الأبد المرأة التي أحبّها بجنون؟ لمرّتين أو ثلاث اشتبه الحرس بأشخاص غرباء يتجولون في جوار القيلّلا. وذات مساء، تعرّض فالميرا لإطلاق نار، فقد عمد سكّير مزعوم الى اطلاق النار عليه من مسدسه فاخترقت إحدى الرصاصات قبعته. إلّا أن هذا كلّه لم يحل دون اتمام مراسيم الزفاف في الموعد المحدّد، وهكذا أصبحت الأنسة دوسان فيران زوجة لويس فالميرا.

بدا الأمر وكأنّ القدر نفسه قد انحاز الى صف بوتروليه ووقع ببصمته على وثيقة انتصاره. وبدا الجمهور واثقاً من أمر هذا الانحياز فانبثقت، من بين المعجبين به، فكرة مأدبة حافلة تقام خصيصاً لتكريم البطل المنتصر والاحتفال بسحقه لوبين. فكرة رائعة أثارت الحماس الشديد. وفي غضون أسبوعين جمعت تواقع ثلاثمئة متطوّع. ووزّعت الدعوات على ثانويات باريس، بمعدّل دعوتين لكلّ من صفوف علم البيان. وكالت الصحف المدايح وأغذقت الدعاية. وجرت المأدبة كما ينبغي أن تكون: احتفال تمجيد بمآثر البطل.

لكنّه احتفال فائن وبسيط لأن بوتروليه بطله. إذا كان حضوره كفيلاً بإعادة كل الأمور الى نصابها الطبيعي. فإنه بدا متواضعاً على جاري عادته، مُستهجناً كلّ المبالغات في وصف مآثره والمطوّلات التي ألقيت في وصف تفوّقه على أبرع رجال الشرطة وأكثرهم شهرة... كان يشعر ببعض الضيق، إلّا أنه بدا متأثراً. وعبر عن تأثره بكلمات قليلة أعجبت الجميع وقيلت بارتباك طفلٍ يخجل أن

يكون محط أنظار الجميع . عبّر عن غبطته واعتزازه . والحقّ يقال أنه مهما بدا متعقلاً واثقاً من نفسه، فلا بدّ أنه شعر، في تلك اللحظات، بنشوة لا تنسى، وكان يقف هناك مبتسماً للأصدقاء، لرفاق المدرسة، لفالميرا الذي قدم خصيصاً لتكريمه، للسيد دوجيفر ولأبيه.

وما أن أنهى كلامه وكأسه ما زالت في يده، علا صوت في طرف الصالة وشوهد أحد المدعويين يلوح من بعيد بصحيفة . طُلب منه السكوت فجلس إلّا أنّ رعشة فضولٍ سرت حول الطاولة وانتقلت الصحيفة من يدٍ ليد، وكلّما اطلع عليها أحد المدعويين أطلق صرخة تعجب.

– «إقرأوا! إقرأوا!» صرخ أحدهم من الجهة المقابلة.

نهض الجالسون على منصّة الشرف، وتقدم بوتروليه الأب وانتزع من أحدهم الصحيفة وأعطاهما لابنه.

– «إقرأ! إقرأ!» صرخ الصوت مجدداً.

فأجابته أصوات أخرى:

– «إسمعوا! سيقرا... إسمعوا!».

كان بوتروليه واقفاً في مواجهة الجمهور، وعيناه تبحثان في صحيفة المساء عن المقالة التي أثارت هذا القدر من اللغط. وسرعان ما لفته عنوان وُضع تحته خطٌ بالحبر الأزرق. فرفع يده مُطالباً الحضور بالإصغاء، ثمّ راح يقرأ بصوتٍ يزداد تهديجاً كلّما توالى المعلومات المذهلة التي تقوّض كل الجهود التي بذلها وتكذب كلّ

أفكاره حول المسألة الجوفاء وتُظهر كل كفاحه في معركة ضد أرسين
لوبيين:

«رسالة مفتوحة موجهة من السيد ماسييان، عضو أكاديمية
المدونات والفنون الجميلة».

«حضرة المدير

«في ١٧ آذار/مارس ١٦٧٩ - وأقول بوضوح ١٦٧٩، أي إبان
ملك لويس الرابع عشر - صدر كتيب صغير في باريس يحمل
العنوان التالي:

«سر المسألة الجوفاء»

كل الحقيقة تُكشف لأول مرة. تم طبع مئة نسخة بفضل
جهود سعي لإخطار البلاط الملكي.

«عند الساعة التاسعة صباحاً من ذلك اليوم، يوم ١٧ آذار/مارس،
عمد المؤلف، وهو شاب أنيق المظهر مجهول الاسم، الى توزيع هذا
الكتيب على الشخصيات الرئيسية في البلاط. وعند العاشرة، كان قد
وزع أربع نسخ منه عندما اعترضه ضابط الحرس وأقتاده الى
ديوان الملك ثم سارع الى البحث عن بقية النسخ التي تم توزيعها.
وعندما جمعت النسخ المئة كاملة، وعُدّت وتم التثبت منها بعناية،
رمى الملك بها الى النار وأحرقها، باستثناء نسخة واحدة احتفظ بها
لنفسه بحضور المؤلف. ثم أمر الملك ضابط الحرس باقتياد مؤلف
الكتيب للمثول أمام السيد دو سان مارس، فما كان من هذا الأخير
إلا أن أمر بحبس المتهم في «بينيرول» لبعض الوقت، ثم تم نقله الى
حصن جزيرة «سانت مرغريت». ولم يكن هذا الرجل بالطبع، سوى
صاحب «القناع الحديدي» الشهير.

«وما كانت الحقيقة لتذاع، أو على الأقل، جزء منها، لو لم يعمد
ضابط الحرس الذي شهد المقابلة، ومُستغلاً غفلة الملك عنه لثوانٍ،

إلى إنقاذ نسخة أخرى من المدفأة قبل أن تلتهمها النيران. وبعد انقضاء ستة أشهر عشر على الضابط جثة مأمدة على طريق «غاييون» في «نانت». وكان القتلة قد جردوه من ثيابه، وعثر فيما بعد، في جيب سترته الأيمن، على جوهرة من الأنواع النادرة جداً ولا تقدر قيمتها بثمن.

«كما عثر بين أوراقه الشخصية على ملاحظات دوّنت بخط يده. لم يأت فيها على ذكر الكتيّب الذي انتشله من النيران إلا أنه ضمّنها ملخصاً لفصوله الأولى. تدور هذه الفصول حول سرّ عرفه ملوك انكلترا ثم فقدوه عندما انتقل تاج هنري الرابع الأبله المسكين ليزين راس دوق يورك، إلا أن «جان دارك» أفضت السرّ لملك فرنسا شارل السابع، ومنذ ذلك الحين أصبح «سراً من أسرار الدولة»، ينتقل من ملك إلى آخر بواسطة رسالة مختومة تترك على سرير الملك الميت وقد دوّنت عليها هذه العبارة: «إلى ملك فرنسا». يتضمّن هذا الكتيّب معلومات تتعلّق بوجود كنز رائع وتحدّد موقعه، ويُعتبر هذا الكنز ملكاً للملوك ويتضاعف حجمه على مرّ العهود.

«ولكن بعد انقضاء ١١٤ عاماً، وفيما كان الملك لويس السادس عشر سجين «التامبل»، انفرد أحد الضباط المولجين بحراسة العائلة المالكة وقال له:

- «يا سيّد، ألم يكن أحد أسلافك ضابط حرس في بلاط جدّي الملقّب بالملك الكبير؟

- «بلى يا صاحب الجلالة.

- «إذا، هلأ كنت رجلاً... هلأ كنت رجلاً...؟».

وتردّد لثوانٍ. فأكمل للضابط العبارة.

- «هلأ كنت رجلاً من الأوفياء؟ أوه، يا صاحب الجلالة.

- «إذن اسمعني جيّداً».

«أخرج الملك من جيبه كتيباً وانتزع إحدى صفحاته الأخيرة.
إلا أنه أرفف مُستدرِكاً:

«لا، الأفضل أن أنسخها...».

«تناول ورقة كبيرة وراح يمزق أطرافها ولم يستيق منها إلا
قصاصة مستطيلة ونسخ عليها خمسة أسطر من النقاط والخطوط
والأرقام. ثم أحرق الصفحة المطبوعة وطوى القصاصة في اثنتين
وختمها بالشمع الأحمر وأعطاهما له.

«يا سيّد، بعد وفاتي ستسلم هذه القصاصة للملكة وستقول
لها: «من قبل الملك، يا سيّدتى... لجلالتك ولوريثه...».

«وإن لم تفهم ما أقول؟...».

«بـ ستضيف: «إنها بشأن سرّ المسألة». وستفهم الملكة على
الفور».

«بعد أن أنهى كلامه رمى الكتيب فوق الجمر المتأجج في الموقد.

«ويوم ٢١ كانون الثاني/يناير اقتيد الى المقصلة.

«لم يستطع الضابط أن يفي بالوعد الذي قطعه أمام الملك إلا
بعد انقضاء شهرين بسبب نقل الملكة الى سجن الكونسليارجرى.
وأخيراً وبعد أن بذل جهوداً مضنية استطاع ذات يوم أن يقابل
ماري أنطوانيت وأسرّها اليها بما يلي:

«من قبل الملك، يا سيّدتى، لجلالتك ولوريثه».

«وأعطاهما الرسالة المختومة.

«وحين اطمأنت الى ابتعاد الحرس نزعَت الختم وبدأت عليها
الدهشة حيال السطور المرّزة، ثم سرعان ما تبدّلت ملامح وجهها
وبدا أنها فهمت المقصود منها. ابتسمت بشيء من المرارة وسمعها
الضابط تخاطبه بهذه الكلمات:

«لم تأخرت كثيراً؟».

«ترددت قليلاً. أين تخفي هذه الوثيقة الخطيرة؟ وأخيراً فتحت كتاب الصلوات ودسّتها القصاصة في جيب خفي بين جلد الغلاف والورقة التي تغطيه».

«لم تأخرت كثيراً؟...» قالت.

«وبالفعل، فإذا كان من شأن هذه الوثيقة أن تنقذ حياة الملكة فقد وصلتها متأخرة، لأنّ ماري انطوانيت اقتيدت الى المقصلة في شهر تشرين الأول/ اكتوبر التالي».

«إلا أن الضابط عثر بين أوراق جدّه العتيد، ضابط الحرس في بلاط لويس الرابع عشر، على المذكرة المكتوبة بخط يده. ومنذ تلك اللحظة كرّس كلّ أوقاته لحلّ هذه القضية الغريبة. فقرأ كلّ المؤلفين اللاتينيين، ودرس كلّ المصنّفات في تاريخ فرنسا والبلدان المجاورة، وقصد الأديرة وتصفح كتب الحساب والخرائط والمعاهدات، وبهذه الطريقة استطاع أن يعثر على بعض الشواهد المتفرقة، عبر العصور».

«في الكتاب الثالث من كتاب [الشروحات] لقيصر حول حرب الغوليليل ذُكر أنّ اثر هزيمة فيريدوفيكس على يد نج. تيتوليوس سابينوس، اقتيد زعيم الكاليتين أمام القيصر وأُنه افتدأً لروحه أفشى سرّ المسئلة...»

«وتفيد معاهدة سان كلير سور أبت، المعقودة بين شارل الساذج و«رول»، زعيم برابرة الشمال، أن اسم «رول» قد ذكر متبوعاً بكلّ ألقابه وبين هذه الألقاب نقرا التالي: مالك سرّ المسئلة».

«وتفيد المفكرة الساكسونية (طبعة جيبسون، ص ١٢٤) على ذكر «غيوم الفاتح» أن عقب سارية بيرقه قد جُعل في شكل حدّ مقولذ وفيه ثقب يُشبه ثقب الإبرة».

«وفي إحدى العبارات التي تلفظت بها جان دارك خلال محاكمتها، تعترف أنها ما زالت تحتفظ بسرٍ يجب أن تقوله لملك فرنسا، وكان ردُّ القضاة عليها: «أجل، نعلم جيداً طبيعة هذا السرِّ ولذلك يا جان ستلاقين حتفك».

«كان الملك الطبيب هنري الرابع يحلف أحياناً «بفضائل المسلة».

«وقبل ذلك وفيما كان فرنسوا الأول يخطب في أشرف الهافر عام ١٥٢٠، نُقلت عنه هذه العبارة التي درّنها أحد بورجوازيي هونفلور في مفكرته الخاصة:

«إن ملوك فرنسا يحفظون أسراراً تسوّي مسار الأشياء كما مصير المدن».

«كل هذه الشواهد، يا سيدي المدير، وكل الروايات حول القناع الحديدي وضابط الحرس وحفيد أحفاده، قد وجدتها اليوم في كتيب ألفه هذا الحفيد بالذات ونُشر في حزيران/يونيو عام ١٨١٥، عشية أو غداة معركة واترلو أي في حقبة من الاضطراب الهائل فلم يستلفت مضمونه الانتظار.

«ما أهمية هذا الكتيب؟ قد تقول، لا أهمية له على الإطلاق، وينبغي ألا نصدّق ما يتضمّنه من معلومات. في البداية تكوّن لدي انطباع مشابه. ولكن كم كانت دهشتي عظيمة عندما فتحت كتاب «الشروحات» لقيصر ووجدت في الفصل المشار إليه العبارة الواردة في الكتيب! وكذلك الأمر معاهدة سان كلير سور أبت، والمفكرة الساكسونية ومحاكمة جان دارك، أي باختصار، كلُّ ما أتيج لي أن أدقق بصحته حتّى الآن.

«وفي الختام أشير إلى واقعة يسرد تفاصيلها مؤلّف كتيب العام ١٨١٥. ويقول إنّه خلال الحملة الفرنسية كان ضابطاً في جيش نابوليون، وذات يوم، إذ نفق حصانه، قرع باب أحد القصور فاستقبله رجل عجوز من قدامى فرسان سان لويس. وعلم خلال

حديثه الى الرجل العجوز أن هذا القصر الذي يقع عند طرف مقاطعة «لا كروز» يُسمى قصر المسلة وأن لويس الرابع عشر هو الذي شيّده وسمّاه، وأن القباب والسهم الذي يشبه المسلة قد صمّمت بطلب منه. ولا بدّ أن يكون ذلك قد تمّ نحو عام ١٦٨٠.

«١٦٨٠، أي بعد انقضاء عام واحد على صدور الكتيّب واحتجاز القناع الحديدي. وبهذه الطريقة يتضح كلّ شيء: لقد شاء لويس الرابع عشر، خوفاً من ذبوع السرّ، أن يشيّد هذا القصر ويسميه قصر المسلة لكي يُعطي للفضوليين تفسيراً ملموساً للسرّ القديم. المسلة الجوفاء؟ إنه قصر ذو قباب مرسّنة يقع عند طرف مقاطعة «لا كروز» ويملكه صاحب البلاط. فيحسب الفضولي أنه اكتشف مفتاح اللغز فيكفّ عن البحث والتدقيق!

«وكان الملك مصيباً في حساباته، فبعد نيفٍ وقرنين من الزمن وقع السيد بوتروليه في شرك الفضول، وهذا، يا سيّدي المدير، كلّ الغرض من تدبير رسالتي هذه. ذلك أنّه إذا كان لوبين قد استأجر قصر المسلة من السيّد فاليرا باسم البارون آنفريدي، ثمّ عمد الى احتجاز سجينه هناك، فلأنه افترض سلفاً أن تحريّات السيّد بوتروليه ستقوده الى القصر حتماً، ولأنّه سعياً وراء السلم الذي طالب به، كان يُعدّ للسيّد بوتروليه بالذات ما يمكن أن نسميه شرك لويس الرابع عشر التاريخي.

«ما يُقضي بنا الى التالي، كاستنتاج قاطع لا يُردّ، وهو أنه، أي لوبين، متوسّلاً اشراقاته الخاصة، ودون أن يتوفّر لديه أكثر مما توفر لدينا من معطيات، قد توصّل، مُستعيناً بعبقريته الخارقة والتي لا مثيل لها، إلى فك رموز الوثيقة المبهمة. ذلك أن لوبين، آخر ورثة ملوك فرنسا، يعرف السرّ الملكي بشأن المسلة الجوفاء».

وكانت تلك خاتمة المقالة. ولم يتمكّن بوتروليه من قراءة المقالة حتّى الخاتمة. فما أن شرع الكاتب في الكلام على قصر المسلة، حتّى

أصبح بوتروليه عاجزاً عن المتابعة، كأنه أدرك هزيمته وأحس
بوطاة المهانة التي تعرض لها، فترك الصحيفة وتهاك على كرسيه
وقد أخفى وجهه بين راحتيه.

ولم يلبث الحاضرون أن أثارتهم تلك الرواية العجيبة وراحوا
يقتربون منه حتى تحلقوا من حوله. وساد انتظار صامت يشوبه
القلق تحسباً لما سيقوله إيزيدور وما سيردّ به على مزاعم المقالة.
إلا أنه مكث ساكناً.

وبرفق دنا منه فالميرا ونظر إليه.

كان إيزيدور بوتروليه يبكي.

الفصل السابع

كتابُ المسألة

إنَّها الرابعة فجراً وإيزيدور لم يعد الى الثانوية. ولن يعود اليها قبل نهاية الحرب الضارية التي أعلنها على لوبين. فقد أقسم في سره على خوض هذه الحرب بلا هوادة فيما كان أصدقاؤه ينقلونه بالعربة مُتْهالِكاً وكُتَيْباً. قَسَمَ أحمق! وحربٌ عبثيةٌ وغير منطقية! إذ ما الذي يستطيعه، هو، الولد المعزول والأعزل، ضدَّ ظاهرة الحيوة والطاقة التي يمثلها لوبين؟ فمن أية جهة يُساقُ الهجوم عليه؟ إنه حصن حصين. وكيف النيل منه؟ إنه لا يقهر. وكيف الوصول اليه؟ إنَّه المتعذر بلوغه.

الرابعة فجراً... ومجدداً قبل إيزيدور أن يحلَّ ضيفاً على رفيق مدرسته. يقف أمام مدفأة غرفته يتكئ بمرفقيه على حافة رخامها وقد أسند ذقنه بقبضتيه المضمومتين، ويستغرق في تأمل صورته في المرأة.

كفَّ عن البكاء، ولا يريد أن يبكي بعد الآن ولا أن يتقلب مغيضاً فوق سريره، ولا أن ينال منه القنوط كما استبدَّ به طيلة الساعتين المنصرمتين. يريد أن يفكر، ويفهم.

عيناه لا تفارقان عينيه في المرأة، كأنه يودُّ بذلك أن يُضاعف قوَّة

أفكاره عبر تأمله صورته المفكرة، لكي يعثر في أعماق الكائن المائل
قبالته على الحلّ المستحيل الذي لم يعثر عليه في أعماقه هو. لبث
على هذه الحال حتى السادسة صباحاً. وفي الأثناء كانت المسألة
تتضح تدريجياً مُجرّدة من كافة التفاصيل التي تضاعف غموضها
وتعقيدها، وتطرح نفسها عليه فظة وصريخة وبدقة معادلة لا شبهة
فيها.

بلى، لقد أخطأ. بلى، وتفسيره الوثيقة مغلوطة. فكلمة «مسألة» لا
تشير الى قصر مقاطعة «لا كروز». وكذلك الأمر، كلمة «أنسات» لا
تعني ريموند دوسان فيران وابنة عمّها، ما دام نصّ الوثيقة يعودُ
إلى قرونٍ سحيقة.

إذاً، ينبغي أن يعود الى البداية. كيف؟

إن منطلق كلّ عمل توثيقي حول الموضوع ينبغي أن ينطلق من
الكتيّب الصادر في عهد لويس الرابع عشر. والحال، أنّ النسخ المئة
التي طبعها القناع الحديدي العتيد قد أحرقت باستثناء نسختين.
ضابط الحرس سرق إحداهما ثم فقدّها. والأخرى احتفظ بها لويس
الرابع عشر وأورثها للويس الخامس عشر لتصل الى لويس
السادس عشر الذي أحرّقها. ولكن هناك نسخة عن الصفحة
الأساسيّة في الكتيّب، الصفحة التي تشتمل على حلّ المسألة، أو
على الأقلّ الحلّ المرمّز، تلك الصفحة التي سلّمت الى ماري
انطوانيت فدسّتها تحت غلاف كتاب الصلوات.

أين أصبحت هذه القصاصة؟ أهي نفسها تلك القصاصة التي
أمسكها بوتروليه بيديه والتي انتزعها لويس منه بواسطة الكاتب
بريدو؟ أم انها لا تزال في كتاب ماري انطوانيت؟

وتعود المسألة لتطرح على النحو التالي: «ماذا حلّ بكتاب الملكة؟».

بعد استراحة لم تستغرق سوى ثوانٍ معدودات، سأل بوتروليه والد صديقه، وهو خبير مجموعات أثرية وفنية شهير، وغالباً ما يُستدعى بصفة غير رسمية للمساعدة في هذا المجال، وكان آخر هذه الاستدعاءات ما طلبه مدير أحد متاحفنا من مساعدة في إصدار فهرس متخصص.

- «كتاب الصلوات الذي كانت تحتفظ به ماري أنطوانيت؟ قال الخبير. لقد أعطته الملكة لخادمتها وكلفتها بإيصاله الى الكونت دو فرسن. وقد حافظت أسرة الكونت على الوديعة بأمانة وورع. أما اليوم فتجده معروضاً في واجهة، وضع فيها منذ خمس سنوات.

- في واجهة؟

- في إحدى واجهات متحف كرنافاليه، ببساطة.

- ومتى يفتح هذا المتحف أبوابه؟

- في غضون عشرين دقيقة».

في اللحظة التي فُتحت فيها أبواب فندق السيّد دو سيفينيه القديم، كان إيزيدور يترجل من العربة برفقة صديقه.

- «انظر، إنّه السيد بوتروليه!».

حيّت وصوله عشرة أصوات من هنا وهناك. ولدهشته البالغة أدرك أنها جمهرة الصحفيين الذين يتابعون قضية «المسلة الجوفاء». وصرخ أحدهم قائلاً:

– «أليس أمراً غريباً! لقد راودتنا جميعاً الفكرة نفسها. ولكن حذار، قد يكون أرسين لوبين بين الحاضرين».

دخلوا معاً. ولم يلبث مدير المتحف أن وضع نفسه بتصرفهم ما أن بلغه نبأ قدومهم، وأرشدهم الى الواجهة المعنية وأشار في داخلها الى مجلد بائس خالٍ من أي نقش أو زينة ولا تبدو عليه أي من سمات الطابع الملكي. وبرغم ذلك سرت في أعماقهم رعشة انفعال حيال هذا الكتاب الذي لمستته أصابع الملكة في تلك الأيام المأساوية، والذي نظرت اليه عيناها المتورمتان بالدموع. ومكثوا على هذه الحال لا يجروا أحدهم على الإمساك به وتفتيشه لشعورهم أن قيامهم بمثل هذا العمل يُشبه تدنيس المقدسات.

– «هيا يا سيد بوتروليه، إنها مهمتك».

أمسك بالكتاب متوجساً، وبدأ له أن أوصافه مطابقة لتلك التي أوردها مؤلف الكتيب الثاني. ما يلفت فيه أولاً هو الغلاف المصنوع من الرق، الرق المتسخ المسود والتالف في بعض مواضعه وتحتة التجليد الفعلي، من الجلد الخشن.

وكم ارتعشت يدا بوتروليه حين بدأ بالبحث عن الجيب الخفي! أليكون مجرد خرافة؟ أم أنه سيعثر على الوثيقة التي تركها لويس السادس عشر وأودعتها الملكة في رعاية صديقها الوفي؟

عند مقلب الغلاف الأول، من الجهة العليا لم يجد أثراً للجيب.

– «لا شيء، تمتم قائلاً».

– «لا شيء، ردّدوا جميعاً في حالة من الاضطراب».

إلا أنه حين تفحص الغلاف الأخير، وبعد أن ضغط بقوة على

طرف الرقّ من الأسفل عثر على ما يُشبه الجيب بين الرقّ والتجليد.
فدسّ أصابعه... بلى أحسّ بشيء ما يلامس أصابعه... إنها
قصاصة ورق...

– «أوه! قال بلهجة انتصار، هذه... ولكن أيعقل هذا؟

– هيا أسرع! أسرع! صرخ أحدهم. ماذا تنتظر؟».

وسحب من الجيب الخفي ورقة مطوية.

– «هيا، اقرأ! ثمة كتابة بالحرير الأحمر... انظر كأنه دم.. دم
باهت.. هيا اقرأ!».

فقرا:

«إليك يا فرسن. من أجل ابني. ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر
١٧٩٣... ماري أنطوانيت».

وفجأة انطلقت صرخة تعجّب من صدر بوتروليه. تحت توقيع
الملكة رأى كلمتين مدوّنتين بالحرير الأسود وتحتهما إمضاء...
كلمتين: «أرسين لوبين».

تناوبوا جميعهم على قراءة الورقة وأطلق كلُّ بدوره صرخة تعجّب
مماثلة:

– «ماري أنطوانيت... أرسين لوبين».

ران صمت مطبق. هذا التوقيع المزدوج، هذان الاسمان
مجتمعان، إذ عثر عليهما في جيب كتاب الصلوات، حيث دفن منذ
قرن ونيف من الزمن، نداء الملكة اليائسة، وهذا التاريخ الرهيب،
١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٩٣، يوم قطع الرأس الملكي، كلُّ هذا
كان يُضفي على المكان مناخاً مأساوياً كثيباً.

– «أرسين لوبين!»، غمغم أحد الأصوات وكأَنَّهُ يشير بذلك الى مقدار الرعب الذي قد يثيره توقيع هذا الاسم الشيطاني على الورقة المقدسة.

– «أجل، أرسين لوبين، رَدَد بوتروليه. لم يستطع صديق الملكة أن يدرك معنى استغاثة المرأة الموشكة على الموت. وعاش حياته في صحبة التذكار الذي أرسلته اليه صديقه المحبوبة، ولم يفطن إلى السر المدفون في هذا التذكار. أما لوبين فقد عرف كلَّ شيء... وأخذ.

– وما الذي أخذه؟

– الوثيقة، بحق السماء! الوثيقة المكتوبة بخط يد لويس السادس عشر، تلك الوثيقة التي حملتها، أنا بيدي. الأوصاف ذاتها، والحجم ذاته والختم ذاته. الآن أدرك سبب استماتة لوبين في انتزاعها مني، فلو كنت لا أزال أحتفظ بها لاستطعت أن أصل الى شيء ما لمجرّد تفحص الورق والأختام... إلخ.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أَنَّهُ ما دامت الوثيقة التي أعرف نصّها صحيحة، لأنني رأيت الأختام الحمراء، ولأن ماري أنطوانيت تؤكد، عبر العبارة المكتوبة بخطيها، أَن كل رواية الكتيب التي نقلها السيّد ماسييان صحيحة، ولأنّ هناك بالفعل قضية تاريخية تتعلّق بالمسألة الجوفاء، لكلّ هذه الأسباب أنا واثق من النجاح.

– وكيف ذلك؟ سواء كانت الوثيقة صحيحة أم لا، فإذا لم تتوصّل إلى حلّ رموز الكتابة لن يكتب لك النجاح لأنّ لويس السادس عشر قد أحرق الكتاب الذي يتضمن حلّ المسألة.

– هذا صحيح. ولكن النسخة الثانية التي أنقذها ضابط
الحرس في بلاط لويس الرابع عشر من بين النيران لم تتلف.

– وما أدراك أنت؟

– برهن لي على العكس.

سكت بوتروليه ثم، متمهلاً، مغمضاً عينيه كأنه يسعى إلى
إيضاح وتلخيص ما يدور في رأسه، قال:

– «عندما أصبح ضابط الحرس مالكاً للسر، راح يكشف عن
أجزاء متفرقة منه في دفتر يومياته الذي عثر عليه حفيد حفيده. ثم
لزم الصمت، وتكتم على مفتاح اللغز. لماذا؟ لأن إغراء استخدام
السر لمصلحته قد بدأ يتسرب إلى كيانه، ثم لم يلبث أن استسلم له.
والبرهان على ذلك؟ عملية قتله. والبرهان؟ الجوهرة الرائعة التي
وجدت في أحد جيوبه، والتي أخذها، بلا ريب، من الكنز الملكي
المخبأ في مكان لا يعرفه أحد، ولا بد أن هذا المخبأ هو الذي يدور
حوله سر المسئلة الجوفاء. لقد ألح لوبين إلى هذا الأمر أمامي: ولم
يكن لوبين كاذباً.

– إذاً ما هو استنتاجك، يا بوتروليه؟

– أخلص من كل ما سبق إلى القول أنه ينبغي إثارة ضجة
إعلامية كبيرة حول هذه الحكاية ولتنشر الصحف، كل الصحف،
أننا بصدد البحث عن كتاب يحمل عنوان: «كتاب المسئلة». وقد
يعثر عليه أحد ما في إحدى مكتبات المناطق المنسية.

على الفور كتبت المقالة، وبدون أن ينتظر ما ستثيره من ردود فعل
محتملة، باشر بوتروليه تحرياته.

كان عليه أن ينطلق من طرف خيط: فقد وقعت جريمة القتل في نواحي غاييرون. وفي اليوم نفسه قصد هذه المدينة. لم يكن يحسب بالطبع أنه سيتمكن من كشف تفاصيل تلك الجريمة التي وقعت منذ أكثر من مئتي سنة، ومع ذلك كانت تحدوه قناعة ما بأن بعض الجرائم تترك أثراً في ذكريات سكان المنطقة وتقاليدهم.

ولا بد أن الصحف المحلية تنشر بعض هذه الذكريات. فذات يوم قد يعثر أحد مثقفي المناطق، أو أحد المهتمين بالخرافات القديمة، أو أحد الرواة المهتمين بسرد وقائع الحقب المنصرمة، قد يعثر أحد هؤلاء إذاً على واقعة أو أثر ما فيكتب حوله مقالة لصحيفة محلية أو دراسة يرسلها إلى الأكاديمية المختصة في عاصمة منطقته.

استطاع أن يتحدث إلى ثلاثة أو أربعة باحثين من هذا الطراز. وتمكن بمساعدة أحدهم، وهو كاتب عدل عجوز، أن يطلع ويدقق في سجلات السجن وفي سجلات المحاكم وقيود أحوال الرعية. ولم يعثر على أية إشارة إلى مقتل أحد ضباط الحرس في القرن السابع عشر.

لم يُحبطه إخفاق المحاولات الأولى وواصل تحرياته في باريس حيث قد يجد في محفوظاتها ملفات التحقيق في القضية. إلا أن جهوده هناك لم تُسفر أيضاً.

إلا أن طرف خيط آخر دفعه لمتابعة تحرياته في اتجاه آخر. ليس بإمكانه معرفة اسم ضابط الحرس الذي هاجر حفيده والذي خدم حفيد حفيده في جيوش الجمهورية وتمّ إلحاقه بسجن «التامبل»

أثناء اعتقال الأسرة المالكة، وخدم تحت لواء نابوليون وشارك في الحملة الفرنسية؟

وبعد تدقيق وطول أناة تحصلت لديه لائحة أسماء من بينها اسمان متطابقان تقريباً: السيّد دو «لاربيري» في عهد لويس الرابع، والمواطن «لاربيري» في حقبة الطغيان.

كان ما أحرزه بوتروليّه تقدماً ملحوظاً في متابعة القضية. وكشف عمّا توصل اليه عبر مقالة صغيرة نشرت في الصحف يطلب فيها كافة المعلومات المتوفرة حول المدعو «لاربيري» أو حول أحفاده.

وجاءه الجواب من السيّد ماسييان، محقق الكتيّب الثاني وعضو الأكاديمية:

«حضرة السيّد،

«أفيدكم علماً بمضمون إحدى الفقرات التي وردت في كتاب «فولتير» المخطوط: «عصر لويس الرابع عشر» (الفصل الخامس والعشرون: «نوادير وحكايات عن ملكه») وقد تمّ حذف الفقرة المذكورة من كافة الطباعات الصادرة حتى اليوم.

«لقد سمعت في أحد مجالس المغفور له السيّد دوكو مارتان، رئيس ديوان الأموال وصديق الوزير شامبيان، أن الملك غادر على عجل، ذات يوم في عربته الملكية بعد أن بلغه نبأ اغتيال السيّد دو لاربيري وسرقة مجوهرات ثمينة كانت في حيازته. وبدأ آنذاك في حالة من الانفعال الشديد وكان يردد: «لقد ضاع كل شيء... لقد ضاع كل شيء...». وفي العام التالي صدر أمر ملكي بنفي ابن لاربيري وابنته، زوجة الماركيز دوفيلين، وفرض الإقامة الجبرية عليهما في ممتلكاتهما في البروفانس وبيروتانيه. إن الصلة بين الحادثتين أمر لا يرقى اليه الشك.

«لا بل وأضيف من جهتي أن ما يؤكّد الصلة بين الواقعتين هو ما أورده «فولتير» أيضاً بأنّ السيد شامبيار كان آخر وزير اطلع على سرّ القناع الحديدي الغريب.

«لا بدّ أنّك أدركت، يا سيّد، حجم الفائدة التي نستقيها من تلك الفقرة والصلة البديهيّة التي تربط تلقائياً بين المغامرتين. أما أنا فلا يسعني التقدّم بفرضيّات بالغة الدقّة حول سلوك، وحول شكوك، وحول مخاوف لويس الرابع عشر في مثل تلك الظروف، ولكنّ الا يحقّ لنا، من جهةٍ أخرى، وبما أنّ للسيد دو لاربييري ابناً أصبح على الأرجح جدّ المواطن الضابط لاربري، وابنة، الا يحقّ لنا الافتراض بأنّ قسماً من الأوراق التي تركها لاربييري قد انتقل الى الابنة وانها بين الأوراق المذكورة عثرت على النسخة الشهيرة التي أنقذها ضابط الحرس من الاحتراق؟

«لقد دققت في دليل القصور. ووجدتُ أن في نواحي «رين» ثمة من يدعى البارون دوفيلين. فهل يكون البارون المذكور أحد أحفاد الماركيز؟ ومهما يكن من أمر ما كان، فقد كتبتُ يوم أمس رسالةً الى هذا البارون أسأله فيها إذا كان يحتفظ بكتاب قديم ترد في عنوانه كلمة «مسألة». وما زلت أنتظر رسالته الجوابيّة.

«وإنّه لمن دواعي سروري أن أتحدّث اليكم حول هذه الأمور. وإذا كانت زيارتي لا تكبّدكم عناء المشقة الكبيرة، فأهلاً بكم. وتفضلوا، يا سيّدي، بقبول... الخ.

«ملاحظة: بطبيعة الحال، لطالما امتنعت عن اطلاع الصحف على مثل هذه الاكتشافات الصغيرة. والآن وقد اقتربتم من الهدف، أرى أن التكم التام واجب على الجميع».

وكان بوتروليه يشاطره الرأي في ذلك. لا بل سيذهب في حذره الى أبعد حدّ: ففي صباح ذلك اليوم بالذات ألحّ عليه صحفيّان للإدلاء

بتصريح ما، فما كان منه إلا أن زوّدهما بمعلومات هوائية غير دقيقة حول حالته النفسية ومشاريعه المرتقبة.

وخلال فترة بعد الظهر هرع لزيارة ماسييان الذي يقطن الرقم ١٧ في «كيه فولفير». وهناك فوجيء بأن ماسييان اضطر للمغادرة على جناح السرعة بعد أن ترك رسالة له في حال استطاع المجيء. ففتح إيزيدور الرسالة وقرأ:

«لقد تلقيت برقية عاجلة اثارت في بعض الأمل. سأغادر فوراً وأمضي ليلتي في رين. أما أنت فتستطيع أن تسافر في قطار المساء بدون أن تتوقف في رين تابع رحلتك إلى محطة فيلين. وسألتقي في القصر الذي يبعد أربعة كيلومترات عن هذه المحطة».

لقد استحسن بوتروليه خطة الرجل، وخصوصاً فكرة أن يصل إلى القصر في الوقت الذي يصل فيه ماسييان. تحسباً لأية هفوة قد يرتكبها نظراً لقلة خبرته في هذا المجال. عاد إلى منزل صديقه وأمضى بقية النهار في صحبته. وعند المساء استقل قطار بروتانيه السريع. وعند السادسة صباحاً وصل إلى فيلين. واجتاز الكيلومترات الأربعة سيراً على قدميه بين الغابات الكثيفة. ومن بعيد لاح له القصر الريفي المستطيل عند أعلى التلة، وبدأ من طراز هجين يتراوح بين طرازي عصر النهضة ولويس - فيليب، إلا أن ذلك لم يفقده شيئاً من مظهر الآبهة بأبراجه الأربعة وجسر المدخل المتحرك المغطى باللبلاب.

أحس بوتروليه أن خفقات قلبه تتسارع كلما اقترب من المكان. فهل كان حقاً في طريقه إلى خاتمة المطاف؟ وهل يجد مفتاح السر في القصر؟

وكانت خشيته كبيرة. فكلّ ذلك بدا له أجمل مما ينبغي وراح يسأل نفسه عما إذا كان ينقاد هذه المرّة أيضاً لخطّة جهنمية صمّمها لوبين بعناية، وماسيّان بالذات، لماذا لا يكون، مثلاً مجرد أداة طيّعة بين يدي عدوّه اللدود.

ثم انفجر ضاحكاً.

مهلاً، إنها هواجس مثيرة للضحك. وكأنّ لوبين رجل لا يخطيء واسع الحيلة يعلمُ بالأشياء مسبقاً، نوع من الإله القادر الذي لا يقاوم. هراء! لوبين يُخطيء، ولوبين يجد نفسه، هو أيضاً، مُرغماً على مراعاة الظروف، لوبين يرتكب الهفوات، ولأنه ارتكب هفوة فقدانه الوثيقة، بدأت اتغلّب عليه. تلك كانت البداية. وكلّ الجهود التي يبذلها الآن، ليست في المحصلة، إلّا محاولة منه لاستدراك تبعات تلك الهفوة. وإذ عاودته البهجة والثقة بالنفس، قرع الباب.

ـ «آية خدمة، يا سيّدي؟ قال خادم عند العتبة.

ـ هل لي بمقابلة البارون دو فيلين؟».

وأعطاه بطاقته.

ـ «سيّدي البارون لم يستيقظ بعد، ولكن إذا شاء سيّدي أن

ينتظره...

ـ ألم يحضر شخص آخر لمقابلة البارون، رجل ذو لحية بيضاء

منحني القامة قليلاً؟»، قال بوتروليه الذي يعرف أوصاف ماسيّان من خلال الصور التي نشرتها الصحف.

ـ «بلى، لقد وصل هذا السيّد منذ عشر دقائق، وأدخلته الى

الردهة. أرجو من سيّدي أن يتبعني أيضاً».

كان اللقاء بين ماسييان وبوتروليه لقاءً ودياً وحاراً.. فقد عبّر إيزيدور عن امتنانه للمعلومات القيّمة التي زوّده بها العجوز، كما عبّر له ماسييان عن إعجابه الكبير به بعبارات مفعمة بالود والحرارة. ثمّ تبادل الآراء حول الوثيقة وحول الفرص المتاحة للحصول على الكتاب، وردّد ماسييان على مسامع بوتروليه ما استطاع أن يعرفه بخصوص السيّد دوفيلين. فالبارون رجلٌ في الستين من عمره اختار، بعد وفاة زوجته منذ سنوات بعيدة، أن يحيا في عزلةٍ تامةٍ إلى جانب ابنته، غابرييل دوفيلمون، التي فجعت بفقدان زوجها وابنها البكر على أثر حادث سيارّة.

ـ «سيّد البارون يرجو منكما، أيّها السيّدان، الصعود اليه».

وقادهما الخادم الى الطابق وأدخلهما الى حجرة فسيحة عارية الجدران وخالية من الأثاث تقريباً باستثناء بعض المكاتب الصغيرة والخزائن والطاولات التي وضعت عليها كميات من الأوراق والسجّلات. استقبلهما البارون بمودّة ظاهرة وبذلك الرغبة في الكلام التي يُبديها عادةً الأشخاص الذين اختاروا حياة العزلة التامة. فوجدا صعوبة بالغة في شرح غرض زيارتهما.

ـ «آه! بلى، أعلم، لقد كتبت لي رسالة بهذا الشأن يا سيّد ماسييان. أنت تبحث عن كتاب يتحدّث عن مسألة ما، والمفترض أن أكون ورثته عن أجدادي؟

ـ بالضبط.

ـ إذاً أقول لكما منذ البداية أنني كنت على خلافٍ حادٍّ مع أجدادي. كانت العائلة حريصة على تقاليد وقناعات غريبة في ذلك

الوقت. أما أنا فأشعر بأنني أنتمي الى قناعات العصر الذي أحيأ فيه. فقطعت صلاتي بالماضي.

- أجل، قال بوتروليه معترضاً وقد عيل صبره، ولكن الا تذكر أنك رأيت هذا الكتاب؟

- بلى، طبعاً! لقد أرسلت له برفقية عاجلة بهذا الشأن، قال مخاطباً ماسيبيان الذي بدا منزعجاً يذرع أرجاء الردهة جيئةً وذهاباً محدّقاً في النوافذ العالية. بلى، بالطبع!... أو في الأقلّ لقد بدا لابنتي أنها رأت هذا العنوان بين آلاف الكتب التي تزحم المكتبة. ذلك أن القراءة بالنسبة لي، أيها السادة... حتى أنني لا أقرأ الصحف...! ابنتي تقرأ أحياناً، فقط حين يكون صغيرها جورج، الذي تبقى لها من هذه الدنيا، في حالة صحية جيّدة! فقط حين تكون عقاراتي جيّدة وماشييتي على خير ما يرام!... أتريان سجلّاتي... أنا أحيأ فيها، أيها السادة... واعترف لك أنني لم أفقه كلمة واحدة من تلك الحكاية التي أطلعتني عليها في رسالتك يا سيد ماسيبيان....».

سارع إيزيدور بوتروليه الذي أصغى لهذه الثثرة ساخطاً، إلى مقاطعته بفظاظة:

- «عفوك يا سيّدي ولكن ماذا عن الكتاب...؟»

- لقد بحثت عنه ابنتي. منذ الأمس وهي تبحث عنه.

- إذاً؟

- إذاً، لقد عثرت عليه، عثرت عليه منذ ساعة أو اثنتين. لحظة وصولكما...

- وأين هو الآن؟

- أين هو؟ لقد وضعته على هذه الطاولة .. هناك ...».

قفز إيزيدور. وهناك وجد الكتاب فوق كومة من الأوراق غير المرتبة؛ كتاب صغير مغلف بالسختيان الأحمر. ووضع يده عليه بقوة كأنه بذلك يحول دون أن يمسه كائن سواه... أو كأنه أيضاً لا يجرؤ، هو نفسه، على الإمساك به.

- «ماذا إذاً، صرخ ماسييان لشدة انفعاله.

- لقد وجدته... إنه هنا... والآن قُضي الأمر...

- ولكن العنوان... هل أنت واثق؟...

- بحق السماء! أنظر».

وأشار إلى الحروف المذهبة التي نقشت على الجلد الأحمر! «سرّ المسئلة الجوفاء».

- «هل اقتنعت؟ هل أصبح مفتاح السرّ بين أيدينا أخيراً؟

- الصفحة الأولى... ماذا ترى فيها؟

- إقرأ: «كل الحقيقة تُكشف لأول مرة. تم طبع مئة نسخة بفضل جهودي سعياً لإخطار البلاط الملكي».

- إنه هو، إنه هو، تتم ماسييان بصوت متهدّج، إنها النسخة التي انتزعت من بين النيران! إنه الكتاب الذي أحرقه لويس الرابع عشر».

راحا يتصفحانه. كان القسم الأول منه يتضمّن الشروحات التي أوردها الضابط دو لارييري في دفتر يومياته.

- «أقلب الصفحات، هيا، قال بوتروليه مُتَعَجَّلاً الوصول الى الحل.

- كيف أقلب الصفحات! لن أفعل. فنحن نعلم حتى الآن أن الرجل ذا القناع الحديدي قد سجن لأنه علم بسر الأسرة المالكة في فرنسا وأراد أن يذيعه! ولكن كيف استطاع أن يكشف السر؟ ولماذا أراد أن يذيعه؟ ثم من يكون هذا الرجل الغريب؟ أهو أخ غير شقيق للويس الرابع عشر، كما زعم فولتير، أم أنه الوزير الإيطالي ماثيولي، كما تؤكد الأدبيات الحديثة؟ سجعاً! إنها أسئلة بالغة الأهمية!

- سنرى في ما بعد! في ما بعد! أجاب بوتروليه معترضاً وكأنه يخشى أن يتلاشى الكتاب بين يديه قبل أن يهتدي الى حل اللغز.

- ولكن، قال ماستيان الذي تستهويه مثل هذه التفاصيل التاريخية، لدينا كل الوقت، في ما بعد... لذلك دعنا نقرأ الشروحات.

ويغتنة سكت بوتروليه. الوثيقة! في وسط إحدى الصفحات، لجهة اليسار، لمحت عيناه السطور الخمسة الغامضة والمؤلفة من أرقام ونقاط. وسرعان ما تبين له أن نص هذه السطور مطابق للنص الذي انكب على تحليله. كان ترتيب الاشارات هو نفسه... والفواصل نفسها التي اتاحت له تركيب كلمة «أنسات» واكتشافه، على التوالي، كلمتي «المسلّة الجوفاء».

وفوق هذه السطور درّنت الملاحظة التالية: «لقد قام الملك لويس الثالث عشر بحصر كل الإرشادات اللازمة في الجدول التالي نصه».

ويلي الملاحظة نص الجدول. وفي أسفله يرد شرح الوثيقة.

فقرأ بوتروليه بصوتٍ متقطع:

«كما نرى، حتى لو تمَّ استبدال الأرقام بأحرف ساكنة فإنَّ هذا الجدول لن يعين على إيجاد الحل. إذ يمكن القول إن شرط العثور على حل لهذا اللغز هو أن يعرف الباحث ماهية اللغز أولاً. فكلُّ ما يُعطاه أولئك الذين لهم الدراية بشعاب المتاهة هو طرف خيط. فلنمسك بطرف الخيط هذا فأرشدكم في مسعاكم.

«لنأخذ السطر الرابع أولاً. السطر الرابع يشتمل على قياسات وإرشادات. فباتباعنا الارشادات وحفظنا للقياسات المدونة نصلُ إلى الغاية من دون ريب، ولكن بالطبع شريطة أن تكون مُدركين أين نقف وإلى أين نسير، أي باختصار أن نكون مدركين للمعنى الحقيقي للمسئلة الجوفاء. وهذا المعنى تتضمنه السطور الثلاثة الأولى. السطر الأول يُقرأ على النحو التالي لانتقامي من الملك، وبأية حال لقد سبق لي أن حدّثته....».

— «ماذا هنالك؟ ماذا؟ قال ماسييان.

— هذا الكلام ليس له معنى.

— بالفعل، قال ماسييان. «السطر الأول يُقرأ على النحو التالي

لانتقامي من الملك....» ما معنى هذا الكلام؟

— سحقاً! صرخ بوتروليه.

— ماذا جرى؟

— لقد مُرّقت! صفحتان! الصفحتان التاليتان!... انظرا!....».

كانت يدها ترتجفان لشدة ما أحسَّ بالغيظ والأحباط. إقترَب

ماسييان وتمعّن في صفحات الكتاب:

«هذا صحيح ما زالت نتفّ الصفحتين عالقة. ويبدو أن الأثر حديث العهد. لم يعمد الفاعل الى قصّ الورقتين بل انتزعهما.. انتزعهما بعنف... انظر، كلّ الصفحات الأخيرة تبدو مدعوكّة بعض الشيء.

— ولكن مَنْ؟ من؟ قال إيزيدور مغيظاً... أحد الخدم؟ أحد شركاء لوبين؟

— ولكن ريمّا حدث ذلك منذ بضعة أشهر. قال ماسييان مستدركاً.

— سيّان... فلا بدّ أن يكون هناك من استطاع أن ينبش الكتاب، أن يعثر عليه... إذاً، أنت، يا سيّد، صرخ بوتروليه مخاطباً البارون، ألا تعلم شيئاً حول هذا الأمر؟... ألا تتهم أحداً؟
— لنسأل ابنتي.

— أجل.. أجل.. أحسنت.. فقد يكون لديها ما تقوله...».

نادى السيّد دوفيلين على الخادم. وفي غضون دقائق انضمت اليهم السيّدّة دوفيلمون. كانت ابنة البارون امرأة شابة تبدو على محيّاها معالم الألم والصبر. فبادر بوتروليه الى سؤالها:

— «هل وجدت الكتاب في المكتبة، يا سيّدي؟»

— أجل، وجدته بين كتب أخرى كانت لا تزال في رزمة مختومة.
— وهل قرأته؟

— أجل، مساء أمس.

— وعندما قرأته هل لاحظت أن هناك صفحات ناقصة، هنا؟
تذكّري جيداً. الصفحتان التاليتان لجدول الأرقام والنقاط هنا؟

.. لا، أبداً، على الإطلاق، قالت مذهولة؛ لقد كانت صفحات الكتاب كاملة.

.. ومع ذلك لقد انتزعت منه صفحتان...

.. إنه أمر مُستغرب... لقد أبقيت الكتاب في غرفتي طيلة الليلة الماضية.

.. وهذا الصباح؟

.. هذا الصباح، أحضرت الكتاب بنفسى ووضعتة هنا عندما أبلغنا الخادم بوصول السيد ماسييان.

.. إذاً؟

.. إذاً، أنا لا أرى... إلّا إذا... لا، لا..

.. ماذا؟

.. جورج.. ابني.. هذا الصباح... كان يلهو بالكتاب..

وغادرت مُسرعةً يرافقها كلُّ من بوتروليه وماسييان والبارون. لم يجدوا الطفل في غرفته. بحثوا عنه في كلِّ مكان. وفي آخر المطاف وجدوه خلف القصر مُنهمكاً باللعب. إلّا أن اضطرابهم وأسئلتهم التي تنم عن لهجة تأنيب لم تسفر، إذ راح الطفل يصرخ مذعوراً ومنتحباً. هرع الجميع في كلِّ اتجاه وناحية. واستجوب الخدم، وشهد القصرُ بلبلة لا توصف. وفي الأثناء كان بوتروليه في ذروة حيرته يشعر بأن الحقيقة تتوارى مبتعدةً عنه كما ينسرب الماء من بين أصابع اليدين. إلّا أنه بذل كلَّ ما في وسعه لكي يتمالك نفسه وامسك بذراع السيِّدة دوفيلمون واصطحبها مجدداً الى الصالون يتبعهما البارون وماسييان، ثم قال لها:

- «صفحات الكتاب ناقصة، فليكن، لقد انتزعت منه
صفحتان... ولكنك قرأت هاتين الصفحتين أليس كذلك يا سيدتي؟
- بلى.

- وتذكرين جيداً محتواه؟

- أجل.

- هلاً أطلعنا عليه؟

- حرفياً. لقد قرأت الكتاب بفضول كبير، إلا أن ما لفتني بالفعل
هو محتوى هاتين الصفحتين نظراً لأهمية ما تكشفانه، أحسب أنه
أهم ما في الكتاب.

- إذاً، هيا يا سيدتي، تكلمي، أتوسّل اليك. الأمر بالغ الخطورة.
تكلمي، أرجوك، فالدقائق التي تضيع لا تعوّض. المسألة الجوفاء...

- إنه أمر بسيط! المسألة الجوفاء تعني...».

في تلك اللحظة دخل خادم.

- «رسالة لسيدتي...»

- أمر غريب... لقد مرّ الساعي من قبل.

- لقد أتى بها صبيّ، لا أعرفه.»

فتحت السيدة دوفيلمون الرسالة وقرأتها ثم لم تلبث أن وضعت
يدها على صدرها، ناحية القلب، وكأنها موشكة على السقوط وبدا
وجهها مترباً ومذعوراً.

سقطت الورقة من يدها. فلمّا بوتروليه، ودون أن يستأذن، قرأ

بدوره:

«إلزمي الصمت... وإلا فأبنتك النائم لن يستيقظ أبداً...».

– «إبني، إبني...» قالت متلعثمة، وقد أقعدها الهلع عن الذهاب فوراً لنجدة الطفل المهدّد.

طمأنها بوتروليه.

– «هذا التهديد غير جدّي... إنه مجرد دعابة... لنرّ قليلاً، ما الجدوى من كل هذا، ولصلحة من؟»

– «إلا إذا كان أرسين لوبين، قال ماسيبان».

أشار عليه بوتروليه بالسكوت. فقد كان يعلم، وحقّ السماء جيّداً أنّ العدو في الأنحاء، مُجدّداً، مُتربّصاً ومتأهباً لكل شيء، ولذلك، بالضبط، أراد أن ينتزع من فم السيّدة دوفيلمون زبدة الكلام الموعود منذ زمنٍ طويل، أن ينتزعها تَوّاً وعلى الفور.

– «أتوسّل اليك يا سيّدتني، تمالكِي نفسك... كلّنا هنا من حولك... وما من خطر على الإطلاق...».

هل تتكلم؟ كان يعتقد أنها ستفعل، لا بل يأمل أن تفعل. فغمغمت بكلام غير مفهوم. إلا أن الباب فُتح مجدّداً ودخلت الخادمة هذه المرّة وبدأ عليها الاضطراب.

– «السيّد جورج.. يا سيّدتني.. السيّد جورج».

فجأة استعادت الأمّ كلّ قواها. وبسرعة نهضت مدفوعةً بالحدس الذي لا يخطئ، هبطت السلم واجتازت الردهة وهرعت نحو المصطبة. وهناك كان جورج الصغير ممدّداً على كنبه، نائماً بلا حراك.

– «إذاً ماذا! إنه نائم:....»

– لقد نام بغتة، يا سيدتي، قالت الخادمة. أردت أن أبقيه
صاحياً ريثما أصعد به الى الغرفة. لكنه غفا بين يدي، ويداه..
كانت يداه باردتين.

– باردتين! تمتت الأم... أجل، صحيح... آه! يا الهي، يا
الهي... أرجو أن يستيقظ!..»

دس بوتروليه يده في أحد جيوبه وأمسك بقبضة مسدسه
واضعاً سبّابته على الزناد، ثم شمر السلاح بغتة وأطلق النار على
ماسييان.

إلا أن ماسييان استطاع أن يتلافى الطلقة بحركة مفاجئة كأنه
استبق ما كان في حسبان، فانقضّ عليه بوتروليه مُستنجداً
بالخدم:

– «ساعدوني! إنه لوبين!...».

لم يستطع ماسييان أن يصدّ عنف اندفاعه خصمه، فارتمى
فوق كرسي قريب.

وبعد ثوانٍ، نهض ماسييان شاهراً مسدس بوتروليه الذي مكث
دائماً متلاحق الأنفاس.

– «حسناً.. إمكث كما أنت.. لا تتحرك... أمامك دقيقتان أو
ثلاث... لا أكثر... لقد تأخرت كثيراً في اكتشافك... لا بد أنني كنتُ
بارعاً في انتحال شخصية ماسييان، اليس كذلك؟...».

انتصب في وقفته متفائلاً وراح يسخر منهم جميعاً محدّقاً
بالخدم الثلاثة ثم رمق البارون الذي بدا مذعوراً.

«إيزيدور، لقد ارتكبت إحدى هفواتك. لو أنك لم تصرخ
«ساعدوني» إنه لوبين!» لانقضَّ علي هؤلاء الأشاوس، سحقاً،
ولكنَّ الآن في خبر كان، رحماك يا رب! هجوم معاكس!».

ودنا منهم.

«هيا لا تخافوا يا صغاري... لن اصفع مؤخراتكم... خذوا...
هذه بعض السكاكر، فقد تُعينكم على استرداد عافيتكم. آه! أنت
مثلاً، ساستردُ منك المئة فرنك. بلي، بلي، اعرف أنك أنت. لقد
اعطيتك المال منذ قليل لكي تسلم الرسالة... هيا، أسرع، أيها
الخادم الخائن...».

وخطف المئة فرنك من يد الخادم ومزَّقها.

«مال الخيانة... إنه يحرق أصابعي».

ثم رفع قبَّعته وانحنى طويلاً أمام السيدة دوفيلمون:

«هلاً غفرت لي يا سيديتي؟ إن مصادفات الحياة - وحياتي أنا
على نحو خاص - تدفعنا دائماً إلى ارتكاب فظاعات أكون في طبيعة
من يخل بها. ولكن لا تقلقي كثيراً بشأن طفلك، إنها مجرد حقنة،
حقنة صغيرة في الذراع... أثناء انشغالكم باستجوابه. لا تقلقي،
ساعة واحدة على الأكثر، وسيكون على ما يرام... ومرة ثانية، أرجو
أن تقبلي اعتذاري. ولكن صمتك ضروري».

انحنى مجدداً، وشكر السيد دوفيلين على ضيافته الكريمة،
امسك بعصاه وأشعل سيكارة ثم أشعل سيكارة للبارون، وأشار
بقبَّعته بتحية مودَّة دائرية للجميع ثم خاطب بوتروليه بلهجة من له

دالة عليه : «وداعاً يا طفلي!» وغادر بهدوء وهو ينفث دخان لفافته في وجه الخدم.

تريث بوتروليه لبضع دقائق، ورمق السيدة دو فيلمون التي بدا أنها استعادت بعض هديرها. ثم دنا منها عازماً على تكرار رجائه للمرة الأخيرة.. فالتقت نظراتهما ولم يقل شيئاً. لقد أيقن أنها لن تتكلم مهما ألح عليها بالرجاء. وأدرك أن لغز المسئلة الجوفاء قد دُفن مرة ثانية في رأس الأم كما دُفن من قبل طي ظلمات الماضي.

فكف عن المحاولة وغادر.

كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف، وثمة قطار يغادر في الحادية عشرة والدقيقة الخمسين. اجتاز الممر عبر الحديقة متمهلاً ثم انعطف سالكاً درب المحطة.

«إذاً، ما رأيك، هل أعجبتك الخدعة؟».

كان ذلك صوت ماسييان، أو الأخرى صوت لوبين الذي ظهر بغتة من بين أشجار الغابة المحاذية.

«أليست حبكة رائعة؟ وصاحبك العجوز، أترأه يجيد الرقص على الحبال؟ أدرك جيداً أنك ما زلت تحت وطأة المفاجأة، أليس كذلك؟ وربما كنت تسأل نفسك إذا كان المدعو ماسييان، عضو أكاديمية المدونات والفنون الجميلة، موجوداً بالفعل؟ بالطبع، إنه موجود فعلاً.. وسندعك تراه إذا أبديت بعض التعقل. ولكن، أولاً، أعيد لك مسدسك... آه، تريد أن تعرف إذا كان مذكراً؟ بالطبع، يا بني. خمس رصاصات تبقت، وتكفي واحدة منها لأصبع في جوار

الرب(*)... إذا هلاً وضعته في جييك؟... أخيراً... كم أثمن لك ما تفعله الآن ولكن هناك... لقد كانت حركة رذيلة! ببساطة، تأخذنا حمياً الشباب إذ ندرك فجأة - كالبرق! - أننا خُدعنا مرة أخرى بأحبابيل لوبين اللعين، وما أن نرى أنه أمامنا على بعد ثلاث خطوات... بووم... نطلق النار... ولكني لستُ حاقداً عليك، هياً... والبرهان هو أنني أدعوك للركوب في سيارتي المئة حصان. اتفقنا؟.

ودسّ اصبعين في فمه وصَفَر.

بدا الأمر على قدرٍ من الطرافة إذ غلبَ ذلك التناقض الواضح بين المظهر الوقور لماسييان العجوز وتصرف لوبين الصبياني في لهجته وحركاته. ولم يستطع بوتروليه إلا أن يضحك.

- «لقد ضحك! لقد ضحك! صرخ لوبين مغتبطاً. رأيت يا صغيري، كنت تفتقد نعمة الإبتسام... إذ تبدي من الرصانة ما لا يتلاءم وسنّك... أنت صبيّ لطيف وتتمتع بسحر السذاجة والتواضع.. ولكن بالفعل، أنت لا تجيد الإبتسام».

واستدار نحوه فأصبحا وجهاً لوجه.

- «مثلاً، أراهنك الآن أنك ستبكي. أوتدري كيف استطعت أن أتتبع تحريّاتك؟ وكيف علمت بأمر الرسالة التي كتبها لك ماسييان وبأمر الموعد هذا الصباح في قصر دو فيلين؟ بفضل صديقك الثرثار، ذاك الذي يستضيفك في منزله... أنت تسرّ لهذا الأحمق بكلّ شيء، فيسارع الى البوح بكلّ شيء على مسمع صديقه

(*) باللاتينية في الأصل: ad Patres .

الصغيرة... وصديقه الصغيرة لا تحفظ سرّاً أمام لوبين. ماذا قلت لك؟ ها أنت توشك على البكاء... لقد اغرورقت عيناك... الصداقة التي تخون... أليس كذلك؟ لقد أحزنتك الأمر... أوتعلم يا بني، أنت رائع... ولولا الحرج لكنتُ أقبلُك.. لك ذلك النوع من النظرات التي تصيبني مباشرةً في الصميم... أذكر جيداً ذلك المساء في غاييون، عندما جئتُ لاستشارتي... بلى، بالطبع، الكاتب العدل العجوز لم يكن أحدٌ سواي.. أنا.. هيا اضحك، يا بني... أقول لك مجدداً، صحيح أنك لا تجيد الإبتسام. لا بل تفتقد... كيف أعبرُ لك؟ أنت تفتقد «التلقائية». أما أنا فأتّمتع بها، «التلقائية».

على مقربةٍ منهما كان يُسمع هدير محرك. وفجأة أمسك بذراع بوترولييه وخاطبه بنبرة جفاءٍ قائلاً:

«والآن، هل ستدعني وشأني؟ أنت تعلم جيداً أنك لن تتغلب عليّ. إذا ما الداعي لاستنفاد قواك ووقتك؟ هناك لصوص آخرون في العالم... فطاردهم وكفّ عن إزعاجي... وإلا... اتفقنا، أليس كذلك؟».

كان يهرّبه بعنف لكي يملي عليه إرادته. ثم قال هازئاً:

«يا لي من أحقق! أطلب منك أنت، أن تدعني وشأني؟ لست من النوع الذي يتراجع... آه! لا أعرفُ ما الذي يُثنييني... لو شئتُ لأشرتُ بأصبعي وفي غضون ثوانٍ تكون مقيّداً مكّماً... وفي غضون ساعتين تُصبح في موضع النسيان لبضعة أشهر... وعندئذٍ أمكث مطمئنّاً البال منصرفاً إلى الحياة الهانئة التي أعدّها لي أجدادي، ملوك فرنسا، والتمتع بالكنوز التي تكمّموا وكدّسوها من أجلي... ولكن، كُتِبَ لي أن أواصل الغلطة إلى النهاية... ماذا أفعل؟»

لكل منا مكان ضعفه... وأحد مكان الضعف لدي هو أنت... ثم،
ما الذي أخشاه. فبين اليوم واليوم الذي ستضع فيه أصبعك في
جوف المسلة روح من الزمن يليه روح... بحق الشيطان! لقد
استغرقني الحل، أنا، لوبين، عشرة أيام. فلا بد أن يستغرقك عشرة
أعوام. هناك فرق بيننا، برغم كل شيء».

وصلت السيارة ذات الهيكل المغلق الضخم. فتح الباب، فلم
يتمالك بوترولييه صرخة صدرت عنه. داخل الليموزين رأى رجلاً.
وكان الرجل هو لوبين، أو الأخرى كان ماسييان.

وإذ أدرك الخدعة راح يضحك.

فقال له لوبين:

«لا تتمالك ضحكك، إنه مستغرق في النوم، لقد قلت لك إنك
ستراه. وبإمكانك الآن أن توضح لنفسك حقيقة ما جرى، اليس
كذلك؟ عند منتصف الليل أبلغت بالموعد في القصر. وعند الساعة
صباحاً كنت هناك، وعندما مرّ بي ماسييان لم يكن إلا أن أقطفه...
ثم حقنة صغيرة... وقُضي الأمر! نم، يا صديقي الطيب، سنودعك
عند ثلثة ما... تحت أشعة الشمس لكي لا تشعر بالبرد... هيا...
حسن... لا بل حسن جداً... بل رائع... وقبّعنا في اليد!... درهم
واحد... لو سمحت... آه! يا صديقي ماسييان، هلاً اعتنيت
بلوبين؟».

كان المشهد هزلياً بالفعل، أن ترى ماسييان قبالة ماسييان،
وجهاً لوجه، ماسييان النائم وماسييان الرصين، المتيقظ والوقور.

.. محسنه للأعمى الفقير... هاك يا ماسيبان، درهمين وبطاقة زيارة.

- والآن، يا ابنائي، لننطلق بأقصى سرعة... هل سمعت أيها السائق، بسرعة ١٢٠ كلم في الساعة. هيا يا إيزيدور، اصعد... هناك اجتماع للأكاديمية بكامل هيئتها، اليوم، والمفترض أن يقرأ ماسيبان عند الثالثة والنصف نصّ مذكرة حول ما لست أدري. وبالفعل، سيقراً ماسيبان مذكرته. سأمثل أمامهم كما لم يكن ماسيبان من قبل، ما سيبان بلحمه وشحمه، الحقيقي، الأكثر من حقيقي، مزوداً بأفكاري الخاصة حول المدونات البحرية. بسرعة أكبر أيها السائق، ما زلت عند حدود ال ١١٥ كلم في الساعة... ما بك؟ هل أنت خائف، أنسيت أنك في رفقة لوبين؟... آه! يا إيزيدور... وهناك من يجرؤ على القول إن الحياة رتيبة، الحياة رائعة... يا صغيري ويكفي أن يعرف المرء.. وأنا، من جهتي، أعرف... كم كانت بهجتي عظيمة هناك، في القصر، عندما انهمكت، أنت، بالثرثرة مع فيلين العجوز، كنت، من جهتي، ألوذ بناحية النافذة لكي أنتزع الصفحتين من الكتاب التاريخي! وفي ما بعد، حين انشغلت باستجواب السيّد فيلمون حول المسألة الجوفاء! كنت أسأل نفسي: هل تتكلم؟ أجل، ستتكلّم... لا، لن تتكلّم.. لا.. بلى.. وكنت في الأثناء مستسلماً لقشعريرة سرت في جسمي... لو تكلمت لكان عليّ أن أبدأ حياتي من الصفر، لتقوّض كلّ ما بنيته في حياتي... هل يصل الخادم في الوقت المناسب؟ بلى.. لا.. هوذا أتى... ولكن بوتروليه، أسيكتشف هويّتي الحقيقيّة؟ أبداً! حماقته تفوق الحد! بلى.. لا.. قضي الأمر.. لا لم يُقَضَّ الأمر.. بلى.. إنه يرمقني بنظرات غريبة.. قضي الأمر.. سيشهر مسدسه... آه! يا للنشوة!... إيزيدور، أنت

تفرط في الكلام... هيا، لننم قليلاً، لو سمحت؟ أكاد أغفو.. عم مساءً....

التفت بوتروليه نحوه. فبدا غارقاً في سبات عميق. كان قد غفا بالفعل.

كانت عجالات السيّارة تنهب الطريق، مُسرعةً في اتجاه أفق لا يني يقتربُ لكنّه يتجدّد في البعيد. لم يبقَ في اتساع الفيا في مدنٍ أوقرى أو حقول أو غابات، لم يبقَ إلاّ الاتساع نفسه، طريق تنهبها العجالات وتبتلعها. حدّق بوتروليه طويلاً في وجه رفيق رحلته بكثيرٍ من الفضول المتوقّد، تحدّوه الرغبة في اكتناه الملامح الحقيقيّة التي يغطّيها القناع. وراح يفكّر في الظروف التي جمعت بينهما، أحدهما الى جنب الآخر، في الحيز الضيق الذي يُفسحه الداخل الحميم لتلك السيّارة.

ولكن بعد أن أنهكته انفعالات الصباح واحباطاته، حلّ التعبُ في أوصاله وغفا بدوره.

عندما استيقظ وجد لويين منكباً على القراءة. فأنحنى بوتروليه قليلاً ليرى عنوان الكتاب. وكان: الرسائل إلى لوسيليوس، بقلم سينيكا الفيلسوف.

الفصل الثامن

من قيصر الى لويين

«بحقّ الشيطان! لقد استغرقني الحلّ، أنا، لوبين، عشرة أيام. فلا بدّ أن يستغرقك عشرة أعوام!».

لقد كان لهذه العبارة التي أطلقها لوبين عند مغادرتها قصر دوفيلين، أبلغ الأثر على سلوك بوتروليه، فبرغم ما تمتّع به من هدوء وثقة بالنفس كانت تراود لوبين أحياناً، لحظات من الانتشاء والبوح الرومانسي، لحظات من الحماسة الدراماتيكية والسانجة في وقتٍ معاً، حيث تصدر عنه بعض الإعترافات، بعض الأقوال التي قد يجد فيها صبيّ من طراز بوتروليه ما يعينه على التفكير.

وكان بوتروليه، بصرف النظر عن جانب الحق والصواب في ما يراه، يعتقد أنّ مثل هذه العبارة لا يمكن إلّا أن تكون اعترافاً غير مقصود. وبناءً عليه توصّل، وله كلّ الحقّ في ذلك، إلى الإستنتاج التالي: إذا كان لوبين يُقارن بين جُهديهما لاكتشاف الحقيقة حول المسألة الجوفاء، فذلك لأنّه يقرّ بأنّ كليهما يمتلكان الوسائل نفسها للوصول إلى الغاية المنشودة. وهذا يعني أن لوبين لم يعثر على عناصر تعينه على النجاح وتختلف عن تلك التي يمتلكها خصمه. فحظوظ النجاح متساوية. والحال أنّ لوبين، مزوداً بحظوظ النجاح

وعناصره هذه، لم يعثر على الجواب إلا في غضون عشرة أيام من الجهد. فما هي هذه العناصر والوسائل والحظوظ؟ إن مصدرها المؤكد ينحصر بالاطلاع على الكتيب الصادر عام ١٨١٥، ولا بد أن لوبين، شأنه شأن ماسييان، قد عثر على هذا الكتيب بمحض المصادفة، وبفضله استطاع أن يكتشف في رسالة ماري انطوانيت البالغة الإيجاز، الوثيقة العتيدة. إذًا، الوثيقة والكتيب هما قاعدتا انطلاق لوبين. وبهما استطاع أن يعيد تركيب اللغز. ولم يتوسل أي عون خارجي. تمحيص الكتيب وتمحيص الوثيقة، فقط، نقطة على السطر.

في مثل هذه الحال، ألا يستطيع بوتروليه أن يقف على الأرضية ذاتها؟ إذًا ما الجدوى من ذلك الصراع المستحيل؟ وما الجدوى من كل التحريات التي لا طائل فيها والتي، إذا اطمأن إلى قدرته على تجنب شراكها العديدة، لن تفضي به، في آخر الأمر، إلا إلى نتائج بائسة.

كان قراره فورياً وواضحاً، وما أن عقد العزم على الالتزام به حتى راوده الحدس المفرج بأنه سلك الدرب الصحيح. فبادر أولاً إلى الانتقال من منزل صديق الدراسة في جانسون دوسايي دون لوم، أو اتهامات لا طائل فيها؛ وحمل حقيبته بحثاً عن مقر جديد لاقامته. وبعد جهدٍ وطوافٍ استقر في فندقٍ صغيرٍ في وسط باريس التجاري. مكث في الفندق لا يغادره لأيام عديدة. حتى أنه قليلاً ما كان يُشارك النزلاء الآخرين وجبات الطعام. فقد كان، في معظم الأوقات، منصرفاً إلى التفكير داخل غرفته بعد أن يُقفل بابها بالمفتاح ويُغلق نوافذها جيداً ويُسدل الستائر لمزيد من العزلة. «عشرة أيام»، قال أرسين لوبين. وكان بوتروليه، في سعيه

الدُّرُوب لنسيان كلِّ شيء باستثناء العناصر التي يذكرها من الكُتَيْب
والوثيقة، يطمح فعلاً للإهداء إلى الجواب خلال مهلة العشرة أيام.
إلا أن اليوم العاشر انقضى، وكذلك الأمر الحادي عشر والثاني عشر؛
ولكن في اليوم الثالث عشر التمعت بارقة في ذهنه، وبسرعة خاطفة،
بالسرعة المحبطة لتلك الأفكار العجيبة التي تنمو في داخلنا مثل نبتة
عجائبية، انبثقت الحقيقة وأينعت وتوطدت. طبعاً لم يكن في مساء
اليوم الثالث عشر قد اهتدى إلى مفتاح اللغز، لكنّه اهتدى، من دون
ريب، إلى إحدى الطرق التي قد تؤدي إلى اكتشافه، وهي الطريقة
المثمرة التي استخدمها لوبين بلا أدنى ريب.

طريقة بسيطة يمكن استنباطها من السؤال التالي: هل هناك
صلة ما بين كافة الأحداث التاريخية، مهما تراوحت أهميتها، التي
يربط الكُتَيْب بينها وبين سرّ المسألة الجوفاء؟

كان التنوع الهائل في طبيعة هذه الأحداث يجعل الإجابة صعبة
المنال. ومع ذلك استطاع بوتروليه، بعد تمحيصه المعمق، أن يعزل
طابعاً جوهرياً تشترك فيه هذه الأحداث قاطبة. فقد جرت كلّها، ومن
دون استثناء، ضمن حدود مقاطعة «نوستريا» القديمة التي
أصبحت اليوم مقاطعة النورماندي. وكلّ أبطال هذه المغامرة
العجيبة هم نورمانديون، أو يصبحون نورمانديين أو ينشطون فوق
الأرض النورماندية.

يا لها من رحلة مذهلة بين العصور! ويا له من مشهد مؤثر إذ
يحتشد فيه ذلك العدد الهائل من البارونات والدوقات والملوك،
الذين ينطلقون من نقاط متباعدة ومتقابلة ثم يلتقون، في آخر
المطاف، في تلك البقعة من العالم!

عمد بوتروليه إلى تصفُّح كتب التاريخ دون قصد أو غاية. وعلم
أن رول، أو رولون، وهو أول دوق نورماندي، كان مالك سرّ المسلّة
على أثر معاهدة سان كلير سور أبت!

وأن غيوم الفاتح، دوق نورمانديا، ملك انكلترا، هو الذي جعل
سارية بيرقه مثقوبةً مثل المسلّة.

وفي روون أحرق الانكليز جان دارك مالكة السرّ!

وفي بداية المغامرة، من يكون زعيم الكاليتين الذي يفتدي حياته
بإفشاء سرّ المسلّة على مسامع القيصر، إن لم يكن زعيم محاربي
بلاد القوط التي تقع في وسط نورمانديا؟

بدأت الفرضيّة تتضح. وكلّما اتضحت ضاق نطاق البحث،
لينحصر في نواحي روون، وضافاف السين، وبلاد القوط... إذ بدا
أنّ كلّ السبل تفضي إلى تلك الناحية. وإذا أتت المصنّفات التاريخية
على ذكر اثنين من ملوك فرنسا، على نحو خاص، بعد أن فقد زعماء
مقاطعة النورماندي وورثتهم ملوك انكلترا سرّ المسلّة، وأصبح بين
يديّ ملوك فرنسا، فالأوّل هو هنري الرابع، هنري الرابع الذي
حاصر روون وانتصر في معركة «آرك» عند أبواب «دييب». والثاني
هو فرنسوا الأوّل، الذي شيّد «لوهافر» وأطلق هذه العبارة: «إنّ
ملوك فرنسا يحفظون أسراراً تسوّي مسار الأشياء كما مصير
المدن!» «روون»، «دييب» و«لوهافر»... زوايا المثلث الثلاث، المدن
الكبيرة الثلاث التي تحتلّ زوايا المثلث. وفي الوسط بلاد القوط.

ثمّ يحلّ القرن السابع عشر. ويعمد لويس الرابع عشر إلى إحراق
الكتيّب الذي يكشف فيه الغريب حقيقة السرّ. ويستولي الضابط
دولابيري على نسخة منه ويحاول أن يستغلّ اكتشافه السرّ،

فيسرق عدداً من المجوهرات ثم يعترضه قطاع طرق ويموت قتلاً. وأين تقع الجريمة؟ في غاييون! غاييون البلدة الصغيرة التي تحاذي الطريق التي تؤدي من «الهافر» أو «روون» أو «دييب» الى باريس.

بعد ذلك بعام واحد يأمر لويس الرابع عشر بتشيد قصر المسلة. وأي موقع يختار له؟ وسط فرنسا، سعياً منه لتضليل الفضوليين. وعندئذ يكفّ الفضوليون عن البحث في منطقة النورماندي.

روون.. ديب.. لو هافر... المثلث القوطي... هنا بيت القصيد... من جهة، البحر. ومن جهة أخرى، نهر السين. ومن الجهة الثالثة، تقع الوديان التي تربط بين روون ودييب.

وفجأة التمعت فكرة في ذهن بوتروليه، إن هذا النطاق الواسع من الأراضي، إن هذه المقاطعة المكونة من هضاب مرتفعة التي تبدأ من ضفاف السين الصخرية لتصل الى ضفاف المانش الصخرية، كانت بالذات مسرح عمليات لوبين خلال السنوات الأخيرة.

فمنذ عشر سنوات أصبحت تلك المنطقة مسرحاً لعمليات لوبين المنتظمة، وكأنه اختار مقراً له في وسط البلاد التي ترتبط مباشرة بأسطورة المسلة الجوفاء.

قضية البارون دو كاهورن^(*)؟ كان مسرحها ضفاف السين، بين روون ولو هافر. قضية تييرمينيل^(**)؟ جرت أحداثها عند طرف

(*) أرسين لوبين، اللصّ الظريف (أرسين لوبين في السجن).

(**) أرسين لوبين، اللصّ الظريف (شرلوك هولمز يصل بعد فوات الأوان).

الهضبة المقابل، بين روين ودييب. وسرقات غروشييه، ومونتيني وكراسفيل؟ في وسط بلاد القوط. وأية مدينة كان لوبين في طريقه اليها عندما هاجمه بيار أونغري، سقّاح شارع لا فونتين(*)، في مقصورته وكبله؟ كان في طريقه الى روين. وعندما وقع شرلوك هولمز في أسر لوبين، أين احتجزه(**)؟ في مكان قريب من الهافر.

والقضية التي جمعت بين لوبين وبوتروليه أين تدور أحداثها؟ في أمبروميزي، على الطريق المؤدية من الهافر الى ديب.

روين، ديب، لو هافر، المثلث القوطي نفسه.

إذا لبضع سنوات خلت، استطاع أرسين لوبين أن يحصل على كتيب عام ١٨١٥ وهكذا استطاع أن يهتدي الى المكان الذي خبأت فيه ماري انطوانيت الوثيقة، وانتهى به الأمر الى الاستيلاء على كتاب الصلوات العقيد. وبعد أن استولى على الوثيقة، بدأ حملة التفتيش، وعثر على ضالته، وأقام نهائياً هناك في المقاطعة السليبية.

وبدوره بدأ بوتروليه حملته.

انطلق في حملته تراوده مشاعر إثارة حقيقية؛ فقد كانت صورة لوبين ورحلته ماثلة في ذهنه. لوبين الذي ساورته الآمال نفسها والإثارة نفسها في رحلته الطويلة لاكتشاف ذلك السرّ الرائع الذي

(*) أرسين لوبين، اللصّ الظريف (المسافر الغامض).

(**) أرسين لوبين ضدّ شرلوك هولمز (السيدة الشقراء).

منحه هذا القدر الهائل من السطوة. فهل تسفر جهود بوتروليه عن نتائج مماثلة؟

غادر روين في ساعة مبكرة، سيراً على الأقدام، وقد طلى وجهه بمساحيق كثيرة وحمل حقيبته على ظهره مُستعيناً بعصا، فبدأ كرحالة في مقبّل العمر يقوم برحلة في كافة أنحاء فرنسا.

اتّجه مباشرةً إلى دو كلير حيث تناول طعام الغداء. وعندما غادر تلك القرية، تبع مجرى «السين»، ولم يحد عنه. كان حدسه المشفوع بعدد كبير من القرائن، يملّي عليه خط السير بمحاذاة الضفاف المتعرّجة للنهر الجميل. فعندما سطا اللصوص على قصر كاهورن، هُزّبت التحف عبر السين. وعندما سرقت «لا شابيل دو ديو» أرسلت المسروقات الأثرية إلى ضفاف السين ليتم نقلها عبر النهر. وكان بوتروليه في استغراقه يتخيّل أسطولاً صغيراً من المعدّيات التي تقوم برحلات منتظمة بين روين والهافر، محمّلة بالتحف الفنية وثروات المقاطعة لتنقلها من هناك إلى بلاد أصحاب المليارات.

«أتحرق لهفة! أتحرق لهفة!...» كان الفتى يردّد مترنحاً تحت ضربات الحقيقة التي توالى عليها عنيقة.

لم يحبط عزائمه إخفاق الأيام الأولى. فقد كان مسلحاً بإيمان عميق ورأسخ بصحة الفرضية التي ينطلق منها. فرضية جسورة ومفرطة، ليس مهماً ما تكون! يكفي أنها تليق بالخصم المُطارَد. لقد كانت الفرضية تليق بالواقع الخارق الذي يُدعى «لوبيين». فيأزاء هذا الرجل أيمن البحث خارج ما هو هائل ومفرط ويفوق إدراك البشر وطاقتهم؟ جو ميبج، لا مأيوريه، سان واندري، كودوبيك،

تأنكارفيل، كييوف، كلها دساكر مفعمة بذكراه! وكم من المرات وقف
متأملًا عظمة قبابها القوطية أو روعة خرائبها الشاسعة!

إلا أن لو هافر ونواحي لو هافر كانت محط أنظار إيزيدور
كأضواء منارة.

«إن ملوك فرنسا يحفظون أسراراً تسوي مسار الأشياء كما
مصير المدن».

كلمات غامضة ولكنها بدت فجأة شديدة الوضوح! أليس في
هذه العبارة بيان الأسباب التي جعلت فرنسا الأول يأمر بتشديد
مدينة في ذلك الموضع بالذات، أليس مصير «هافر دو غراس»
مرتبطاً بسر المسئلة بالذات؟

«لقد وجدتتها... وجدتتها... تتم بوتروليه باندفاع ثمالة... إن
المصب النورماندي القديم، وهو أحد المواضع الأساسية، وإحدى
اللحمت الأولى التي تشكلت من حولها الهوية الفرنسية، إن هذا
المصب القديم لا يجد تمام حقيقته إلا مقروناً بهاتين القوتين؛
الأولى واضحة، وضع النهار، حية، وذائعة الصيت، ميناء جديد
يتحكم بثغر المحيط ويطل على العالم. والثانية أشد غموضاً
ومجهولة ومقلقة بمقدار ما هي غير مرئية وغير ملموسة. فتمة جانب
كامل من تاريخ فرنسا والأسرة المالكة لا يمكن تفسيره إلا بسر
المسئلة، وكذلك الأمر بالنسبة لتاريخ لوبين. ذلك أن مصادر الطاقة
والقوة هي نفسها المصادر التي تغذي وتحدد ثروة ملوك فرنسا
وثررة المغامر الشهيرة.

كان بوتروليه يتنقل من بلدة إلى بلدة، من النهر إلى البحر، يبحث

وينقب، مُستنقِر الحواس محاولاً استنتاج الأشياء نفسها عما تخفيه من دلالات عميقة الغور. أينبغي هذه التلّة؟ أم هذه الغابة؟ أم منازل تلك البلدة؟ أيكون مفتاح السرّ في كلام هذا المزارع الذي يبدو في الظاهر بلا معنى؟

ذات صباح، وفي ما كان يتناول طعام الغداء في نزل قريب من هونفلور، وهي إحدى المدن التاريخية في نواحي المصبّ النهري، وجلس قبالة أحد تجّار الخيل النورمانديين ذوي السحن المحمّرة والأجسام القويّة الضخمة الذين يجولون أسواق المنطقة ويبيدهم سوط، وسترة طويلة ملقاة على الظهر. ولم تمضِ ثوان معدودة حتى شعر بوتروليه أن الرجل ينظر إليه بتمعّن كأنه يعرفه أو على الأقل كأنه يسعى للتعرف إليه.

.. «دعك من هذا! قال في سرّه، إنها إحدى افتراضاتي الخاطئة، فأتا لم أرّ تاجر الخيل هذا من قبل وهو أيضاً لم يرني من قبل».

وبالفعل بدا أن الرجل ما عاد مُهتماً به. فأشعل غليونيه وطلب فنجان قهوة وكأساً، وراح يدخن ويشرب. وما أن أنهى طعامه حتّى نهض بوتروليه ودفع الحساب. وعندما همّ بمغادرة المكان دخلت مجموعة من الأشخاص فكان عليه أن ينتظر قليلاً قرب طاولة التاجر نفسه، وسمعه يهمس:

.. «صباح الخير يا سيّد بوتروليه».

لم يتردد إيزيدور فسارع إلى الجلوس بقربه وقال له:

.. «أجل، أنا بوتروليه... ولكنّ من أنت؟ وكيف عرفتني؟

.. ليس بالأمر الصعب... مع أنني لم أرّ إلا صورتك في الصحف،

ولكن يبدو لي أنك لم تنجح كثيراً... كيف تقولون ذلك بالفرنسية؟
لم تنجح كثيراً في تبديل سحنتك.

كانت لكنته الأجنبية واضحة. وحسب بوتروليه، حين أمعن
النظر اليه، أنه هو أيضاً، يتنكر خلف قناع يخفي سحنته الفعلية.

- «من أنت؟ سأله مجدداً.. من أنت؟».

ابتسم الغريب وقال:

- «أما عرفتني بعد؟»

- لا. لم أرك من قبل.

- وأنا أيضاً. ولكن تذكر جيداً... فصورى أيضاً تنشر في
الصحف... وغالباً. إذاً، هل عرفتني؟

- كلاً.

- شلوك هولمز.

كان اللقاء بين الرجلين غريباً بعض الشيء، وله دلالة خاصة.
ولم يلبث الفتى أن أدرك مغزاه الفعلي. وبعد تبادل اللياقات
المعتادة، قال مخاطباً هولمز:

- «أحسب أنك هنا... بسببه هو؟»

- أجل...

- إذاً أنت تعتقد أن هناك احتمالات.. في هذه الناحية...

- لا، بل أنا واثق من ذلك.

لم تكن غبطة بوتروليه لتخلو من بعض التوجس برغم ارتياحه
إلى ما وجده من تطابق بين وجهة نظره ووجهة نظر هولمز. ذلك أنه

إذا استطاع الإنكليزي أن يصل الى الهدف، فمعنى ذلك أن ثمة من يقاسمه انتصاره، ومن يدري، قد يسبقه في الوصول الى الغاية المنشودة؟

— «أليك براهين؟ قرائن؟

— لا تخف، قال الإنكليزي ضاحكاً وقد أدرك مبعث قلقه، لن أسير على خطاك. أنت تنطلق من الوثيقة والكتيب... من أشياء لا تبدو لي موضع ثقة كبيرة.

— وأنت؟

— اقتنسي أثراً مختلفاً.

— هل ارتكب هفوةً ما؟...

— لا، على الاطلاق. أنت تذكر قضية التاج، قضية الدوق دوشارموراس^(*).

— أجل.

— وما زلت تذكر، بالطبع، تلك العجوز فيكتوار، مُرضعة لوبين، تلك التي أفلتت من يد صديقي غانيمار في عربة سجن مزيفة؟

— أجل.

— لقد استطعت أن أهتدي الى فيكتوار. إنها تقيم في مزرعة على مقربة من الطريق العام رقم ٢٥، إنها الطريق التي تصل الهافر بـ «لِيل». وبواسطة فيكتوار سأصل بسهولة الى لوبين.

— إنها الطريق الأطول.

(*) أرسين لوبين، مسرحية في أربعة فصول.

— سيّان! لقد كرّست نفسي لهذه القضية. ولم يبق لي إلا أن أصل إليه. فما يدور بيني وبين لوبين أشبه بمعركة... معركة حتّى الموت».

كان كلامه مشوباً بنبرة ضراوة تكشف كلّ الحقد الذي اعتمل في قلبه لما تعرّض له من إذلال، وكلّ البغضاء التي يكنّها للعدو العنيد الذي طالما أقلع في خداعه والسخرية منه.

— «هيا اذهب، تتمم قائلاً، إنهم ينظرون إلينا... الأمر لا يخلو من المخاطرة... ولكن تذكّر جيداً ما قلته لك: إن اليوم الذي سيشهد لقائي لوبين وجهاً لوجه سيكون يوماً مأساوياً!».

غادر بوتروليه هولز، وهو يشعر باطمئنان تام: لن يستطيع الإنكليزي أن يسبقه في مسعاه.

ويا له من دليلٍ حسيّ زوّده به ذلك اللقاء الذي تمّ بمحض المصادفة! فالطريق التي تصل الهافر بـ«ليل» تمرّ بـ«دييب». وهي الطريق الساحلية الأساسية لبلاد القوط! الطريق الساحلية التي تتحكم بالشواطئ الصخرية لبحر المانش! وفيكتوار تقطن مزرعة مجاورة لهذه الطريق. فيكتوار، يعني لوبين، لأن أحدهما لا يفارق الآخر، السيّد والخادمة والوفاء الخرافي الذي يربط بينهما.

«اتحرّق لهفة.. اتحرّق لهفة... كان الفتى يردّد في سرّه... ما أن تزوّدني الظروف بمعلومة جديدة حتّى يتضح أنها تؤكد افتراضي. فمن ناحية، اليقين التام بشأن ضفاف السين، ومن الناحية الأخرى، اليقين التام بشأن الطريق العام. ويتقاطع الدربان عند الهافر، مدينة فرنسوا الأوّل، مدينة السرّ، إن الحدود تضيق. وبلاد

القوط ليست شاسعة، ولم يبق إلا أن أبحث في الناحية الغربية من هذه البلاد.

واستأنف البحث بحماس.

«ما من سبب يجعلني غير قادر على إيجاد ما وجده لوبين من قبل». كان يردّد في سره. بالطبع، لا بدّ أن للوبين ما يضمن له الغلبة من بعض النواحي، وقد يكون ذلك بسبب معرفته التامة بالمنطقة، وبعض المعطيات الدقيقة حول الخرافات المحليّة، أوريّما ما هو أقلّ من ذلك، مجرد ذكرى - ما يشكّل سبقاً لا يستهان به، ما دام بوتسوليه، من جهته، لا يعرف شيئاً ويجهل طبيعة المنطقة جهلاً مطبقاً إذ لم يتسنّ له أن يجوب في أنحائها إلا عند وقوع عملية السطو في قصر أمبروميزي، ودون أن يتريّث أو يتّاح له التدقيق.

ولكن ليس هذا المهم!

لو استغرقه إنجاز هذه المهمّة عشر سنوات كاملة، لن يتراجع فقد كان يدرك جيّداً أن لوبين موجود هناك. كان يراه، ويخمن حضوره الطاعني. وكان يتوقّع ظهوره عند هذا المنعطف، أو عند طرف الغابة ذاك، أو عند أطراف هذه البلدة أو تلك. وتكرّرت خيبات الأمل إلا أن إيزيدور كان يجد في كلّ خيبة سبباً لمواصلة عناده.

غالباً ما كان يجلس فوق هضبة محاذية وينكبّ، باستغراق وطول أناسة، على التدقيق بنصّ الوثيقة التي نسخ سطورها، أي باستبدال الأرقام بالحروف الساكنة:

e. a. a.. e.. e. a.
a.. a... e. e. .e. oi. e.. e.
.ou.. e. o... e.. e. o.. e
D DF 19 F + 44 357
ai. ui.. e ..e u. e

وغالباً أيضاً ما كان يستلقي، حسب عادته، فوق العشب النابت
ويستغرق في التفكير لساعات طويلة. فأمامه متسع من الوقت.
والمستقبل ملكٌ يديه.

وبمناوبة مدهشة كان يجوب المنطقة من السين الى البحر، ومن
البحر الى السين، مبتعداً بتدرّج، عائداً أدراجه، متقدّماً، لا يبرح
الموضع إلا بعد أن يستنفد نظرياً، احتمال العثور على أقلّ معلومة
ممكنة.

نقّب ويحث وتمعن في مونتيفيليه وسان رومان، وأوكتيفيل
وغونفيل وكريكوتو.

كان يطرق باب المزارعين ليلاً طلباً للمأوى. وكان يجلس اليهم
بعد طعام العشاء، فيدخنون ويتحدثون. وكان يطلب منهم أن
يردّدوا على مسامعه الحكايات التي تُروى في ليالي الشتاء
للمسامرة.

وفي الختام كان يسأل دائماً:

... «والمسلّة؟ أسطورة المسلّة الجوفاء.. ألا تعرفونها؟

... لا، لم أسمع بها من قبل...

... حاول أن تتذكر جيّداً حكاية ترويتها العجائز عادةً... حكاية

ما تدور حول مسئلة.. مسئلة مسحورة ربما... لست أدري بالضبط؟»

لا شيء. ما من أسطورة. ما من ذكرى. وفي اليوم التالي كان إيزيدور يتابع طريقه جذلاً.

ذات يوم مرّ ببلدة سان جوين الجميلة المشرفة على البحر، وهبط المنحدر بين الصخور.

ثم صعد إلى الهضبة وتوغّل في اتجاه الوادي الصغير في برونوفال، ثم في اتجاه رأس انتيفير البحري، وفي اتجاه جون بيل - بلاج. كان يسير مبتهجاً جذلاً وبرغم بعض التعب كان يشعر بسعادة أن يحيا وبلغت به الغبطة، غبطة الحياة، حدّاً نسي معه لوبين ولغز المسئلة الجوفاء وفيكتوار وهولز، واستغرق في مشهد الأشياء من حوله، السماء الزرقاء، البحر الزمردي الواسع المتألق تحت أشعة الشمس.

تلّع مصطفى في خط مستقيم، خرائب جدران من آجر كأنها آثا. معسكر روماني قديم، فوق حيالها متوجّساً. ثم رأى ما يشبه قلعة صغيرة وقد شيدت على غرار حصن قديم، بأبراجها المتصدّعة ونوافذها القوطية العالية. كانت القلعة مشيدة على مساحة من الأرض الصخرية كأنها جزء من الضفة المنهارة. وعلى مدخلها سياج تعلوه حواجز وأشواك معدنية.

استطاع بوتروليه أن يجتاز المدخل بمشقة كبيرة. وفوق البوابة المقوسة الموصدة بقفل قديم صدىء، قرأ هذه الكلمات:

حصن فريفوسيه(*)

لم يحاول الدخول، بل انعطف يمنةً وبعد أن هبط المنحدر، طالعه درب ضيق يمتد على طول نتوء ترابي ويحدّه من الجانبين درابزين من خشب. وعند نهاية الدرب رأى مغارة ضيقة الفتحة كأنها مرقب حارس عند طرف الصخرة التي حفرت فيها، وهي صخرة شديدة التحدر كأنها تنبثق من البحر.

كانت المغارة تكاد لا تتسع لرجل واقف. وعلى جنباتها نُقشت كتابات لا تحصى وثمة ثقب مربع الفتحة يُطل، مثل كوة، نحو الأسفل، قبالة حصن فريفوسيه الذي يبدو اكليله المحرز على بعد ثلاثين أو أربعين متراً. رمى بوتروليه حقيبته وجلس. فقد كان نهاره ثقيلاً ومرهقاً. وغفا لبعض الوقت.

أيقظته النسائم العذبة التي كانت تُلطف هواء المغارة. ومكث لدقائق ساكناً، شارد الذهن غائم العينين. كان يحاول الإمساك بخيط أفكاره وأن يصحو من غفلة النوم. وما أن صحا قليلاً وهمّ بالنهوض حتى شخصت عيناه فجأة، جاحظتين تحدّقان... سرت في أوصاله رعشة. وتصلبت يداه وأحسّ بالعرق البارد يتقطر من بصيلات شعره.

«لا، لا... غمغم قائلاً... إنه حلم، إنه مجرد هذيان... أهذا ممكن حقاً...؟»

(*) كان حصن فريفوسيه يحمل اسم قصر مجاور كان من ملحقاته. وقد أمرت السلطات العسكرية، بعد ذلك بسنوات، بأن يتم تدميره إثر الحقائق، والمعطيات التي تضمنها هذا الكتاب.

ثم ركع فجأة وانحنى. فرأى حرفين ضخمين، يبلغ طول واحدتهما قدماً، محفورين بشكل بارز على الأرضية الغرانيتية.

كان الحرفان واضحين برغم رداءة النقش وعوامل الحث عبر العصور التي ساهمت في تدوير حوافهما المسننة، D و F.

D و F ! يا للمعجزة! حرف D وحرف F، هما الحرفان اللذان تضمّنتهما الوثيقة! بل هما الحرفان الوحيدان في الوثيقة!

آه! لم يكن بوتروليه في حاجة للتثبت من الأمر، فهو يذكر جيداً ورود هذين الحرفين في السطر الرابع، سطر القياسات والإرشادات!

كان يعرفهما جيداً! فقد طُبعاً الى الأبد في حدقيته، وتمثلتهما خلايا دماغه!

نهض وهبط الطريق المنحدرة ثم مشى صعوداً بمحاذاة الحصر القديم، ومن جديد حاول اجتياز البوابة ذات الأشواك المعدنية، ثم مشى مُسرِعاً في اتجاه مرجة حيث يرعى قطع من الماشية.

«تلك المغارة، هناك... تلك المغارة...» كانت شفاته ترتجفان فيسعى لإيجاد الكلمات المناسبة ولا يجدها. كان الراعي يرمقه بذهول. وفي آخر الأمر استطاع أن يسأله:

– «أجل، تلك المغارة... هناك، إلى الناحية اليمنى من الحصن...
أتعرف لها اسماً؟»

– أجل! كافة الأهليين في «إيتريتا» يقولون إنها قلعة
«ليه دوموازيل»^(*).

(*) الأتسات.

— ماذا؟ ... ماذا؟ ... ماذا تقول؟

— بلى، بلى، غرفة الآنسات....

بدا إيزيدور وكأنه يهَمّ بالانقضاء على عنقه وكأن كل الحقيقة يمتلكها الرجل المائل أمامه ولذلك يودّ أن يعرفها على الفور، يودّ أن ينتزعها منه...

«ليه دوموازيل»! إحدى الكلمتين، إحدى الكلمتين الوحيدتين اللتين استطاع أن يركّب أحرفهما في الوثيقة!

هبت رياح الجنون وعصفت بقامة بوتروليه. وكانت الأشياء كأنها تتورّم وتتسع من حوله. رياح تعصف به كأنها الإعصار الوافد من عرض البحر، الوافد من أقصى الأرض، الوافد من كل حدب وصوب ويعصف بكيانه حقيقة تلو الأخرى... أصبح بإمكانه أن يفهم! فقد بدت له الوثيقة في تمام مغزاها الحقيقي! غرفة الآنسات... إتريتا...

«وجدتها... قال في سرّه وكأنّ إشراقة إدراك التمتع في ذهنه... لا يمكن أن يكون سوى ذلك. ولكن كيف لم أفطن إلى الحلّ من قبل؟».

وقال للراعي بصوت خفيض:

— «حسنًا.. اذهب.. بإمكانك أن تذهب.. شكرًا...».

ولم يلبث الرجل الذي لم يفارقه الدهول أن نادى كلبه بصفرة وابتعد.

وما أن اطمأن بوتروليه إلى أن الراعي قد أصبح بعيداً حتّى عاد أدراجه في اتجاه الحصن. وكان قد تجاوزه قليلاً عندما ارتمى

أرضاً بحركة مفاجئة ومكث ممدداً بمحاذاة جدار. وراح يفكر قلقاً:
«هل أصبت بالجنون! ماذا لوراني؟ ماذا لوراني شركاؤه؟ فمئذ
ساعة وأنا لا أكف عن التجول في الأنحاء...».

ومكث بلا حراك. كانت الشمس قد غربت، وراح الليل يمازج
تدرجياً ضياء النهار مظلاً الأشياء بعتمته.

ثم راح يزحف على مهل بحركاتٍ متأنية ومحسوبة وتقدم نحو
الناحية الخلفية من الجرف محاولاً الوصول الى طرف الضفة
الصخرية. وعندما وصل الى هناك أزاح بيديه بعض غمار العشب
ورفع رأسه قليلاً.

كانت صخرة عملاقة، على مستوى المنحدر الصخري تقريباً،
تنتصب وسط مياه البحر، ويفوق ارتفاعها الثمانين متراً؛ مسألة
هائلة الحجم بسقت عمودياً من قاعدة غرانيتية عريضة على
مستوى المياه واستدقت ارتفاعاً حتى قممتها التي بدت مروسة،
كأنها سن عملاقة لمسح بحري. بيضاء بلون صخور المنحدر،
وبياضها أملل للرمادي أو للابيض الكدر؛ كانت الكتلة الصخرية
العملاقة محززة بخطوط أفقية كأنها حفرت بصوان وحيث يبدو
بوضوح أثر تعاقب العصور التي راكمت، واحدة فوق الأخرى،
طبقات الكلس والحصى الأملس.

وفي بعض المواضع أثار واضحة لشروخ، أو تجوفات، وهنا
وهناك بعض التراب والعشب، والأوراق اليابسة.

كان المنظرُ بمجمله يوئد انطباعاً بالجبروت والمتانة والروعة،
إضافةً إلى سيماء الأشياء التي تدوم على مر الزمن لا تبالي بالأمواج

العاتية، والعواصف الهوجاء. منظر ما هو أبدي ومتأصل وهائل
برغم ضخامة المنحدر الصخري الذي يقف في كنفه، وشاسع برغم
اتساع المدى الذي ينبثق في فضائه.

كان بوتروليه قد غرز أظافره في التراب كمخالب وحش كاسر
يتحين فرصة الانقضاض. وكانت عيناه تسيران القشرة الخشنة،
لا بل جلد الصخرة، ولحمها الحي. كان يلمسها، يجسها، يتعرفها
ويتملكها... لا بل كأنه يتمثلها تمثلاً..

غص الأفق بشفق الشمس الغاربة، وبدت الغيوم الطويلة
المتوقدة كأنها تتشكل في مناظر رائعة؛ بحيرات وهمية، سهول من
الذهب، غابات ذهب وأحواض دماء؛ كل ما تراه المخيلة الهاذية في
توقدها ودعتها.

أعتم لازوردي السماء. التمعت فينوس ببوارق فاتنة، ثم بزغت
أنوار النجوم الأخرى بحياء.

فجأة أغمض بوتروليه عينيه وشبك ذراعيه المضطربتين فوق
جبينه. هناك - أوه! كان يحسب أن الانفصال الذي يعصر قلبه
بعنف سيودي به - هناك، في أعلى مسلة «إتريتا»، تحت القمة التي
تحوم فوقها النوارس، كانت سحابة من دخان تتسرب من أحد
الشقوق، كما ينبعث دخان من مدخنة غير مرئية؛ غمامة دخان
كانت تتصاعد في حلقات لولبية بطيئة في قضاء الغروب الصامت.

الفصل التاسع

إفتح يا سمسم!

مسئلة إتريتا جوفاء!

أهي ظاهرة طبيعِيّة؟ أهو تقعر ناجم عن عوامل داخلية أو بفعل التأثير البطيء لمياه البحر النائرة أو المطر الذي يتسرب الى الجوف؟ أم كان إنجاز قوى تفوق قدرة البشر، ومع ذلك نُفِّذَ بأيدي بشر، سلتيين وغوليين، ورجال ما قبل التاريخ؟ أسئلة كثيرة ستبقى، بلا ريب، دون أجوبة. ولكن آية أهمية لذلك؟ فالمهم هو التالي: المسئلة كانت جوفاء.

على بُعد أربعين أو خمسين متراً من تلك القوس الحجرية الضخمة التي تسمى «بؤابة السافلة»^(*) والتي تنبثق من أعلى المنحدر الصخري لتمتدّ مثل غصن شجرة عملاق، وتغوصُ في المياه متجذرةً بين صخور القعر؛ على مسافةٍ منها إذاً ينتصب مخروط كلسيّ هائل الحجم، ليس في الحقيقة سوى كُمةٍ من القشور الحجرية التي تستندُ الى فراغ!

كشفٌ مُعْجَز! بعد أرسين لوبين، توصّل بوتروليه الى اكتشاف

(*) سافلة النهر.

كلمة السرّ الكبير الذي سادَ على نحو عشرين قرناً من الزمن! فقد كان لكلمة السرّ هذه أهميّة بالغة في نظر من امتلكها في العصور الغابرة حين كانت قبائل البرابرة تغزو العالم القديم! كلمة سحرية تفتح أبواب المغارة الخرافية لقبائل يُطاردها العدو! كلمة غامضة تحرس باب الملاذ الأكثر منعة! كلمة عجيبة تمنح السلطان وتضمن الغلبة!

ولأنه امتلك هذه الكلمة، استطاع قيصر أن يستعبد الغوليين. ولأنهم امتلكوها استطاع النورمانديون بسط سيطرتهم على كافة أنحاء البلاد ومنها انطلقوا لغزو الجزيرة المجاورة، واحتلوا صقلية ثم الشرق وغزوا العالم الجديد!

وإذ ملكوا السرّ تمكّن ملوك إنكلترا من السيطرة على فرنسا وأذلّوها وقطّعوا أوصالها، وتوجّوا أنفسهم ملوكاً على عرش باريس. وحين فقدوا كلمة السرّ كانت الهزيمة.

وإذ ملكوا السرّ عَظُم نفوذ ملوك فرنسا واستقروا وجاوزوا حدود مناطقهم الضيقة، واستطاعوا، شيئاً فشيئاً، تشييد أمّتهم الكبيرة وأن تكون لهم حظوة المجد والسلطان - وما أن أخذتهم الغفلة عنه أو النسيان أو حتّى العجز عن استخدامه، حتّى ضُربت مصائرهم بالموت والمنافي والسقوط.

مملكة لامرئية في كنف المياه وعلى بُعد عشرة أبواع^(*) من اليابسة!... قلعة منسية أكثر ارتفاعاً من أبراج «نوتردام» ومشيدة

(*) مفردة: باع وهو مقياس بحريّ، طول ذراعين، يتراوح بين متر ونصف ومترين.

فوق قاعدة غرانييتية أكثر اتساعاً من ساحة عامّة... يا للجبروت،
يا للملاذ الأمنين! من باريس الى البحر، عبر نهر السين. وهنا،
«لوهافر»، المدينة الجديدة، المدينة الضرورية. وعلى بعد سبعة
فراسخ منها، المسلة الجوفاء، اليس ذاك هو الحصن الحصين؟

إنه الحصن والملاذ ولكنّه أيضاً المخبأ المذهل. كلّ كنوز الملوك،
التي كُنُزَت عبر العصور، كلّ ذهب فرنسا، كل ما ابتزته السلطات
من الشعب، وكل ما انتزع من أملاك الإكليروس، وكلّ الثروات التي
غُنِمت في ساحات الوغى في أوروبا، كلّها كُدِّست في الكهف الملكي.
القروش الذهبية القديمة والريالات^(١) المفضضة والدبلونات^(٢)
والدوقات^(٣) والفلورونات^(٤) والجنيهات، والأحجار الكريمة
والمجوهرات والماسات والحلي، كلّها مكنوزة هناك. فمن يستطيع
اكتشاف الكنز؟ من يستطيع أن يكشف سرّ المسلة المبهمة؟ لا أحد.

بلى، لوبين.

ويصبح لوبين من طراز تلك الكائنات التي لا يحدّها المنطق
المعروف، من طراز تلك المعجزات التي يتعذّر تفسيرها ما دامت
الحقيقة في موضع السرّ. ولكن مهما بلغت قدراته من التفوّق
والعبقريّة، فهي لا تكفي وحدها لمتابعة حربه التي يشنّها على
المجتمع. إذ يحتاج لمصادر قوّة مختلفة، ماديّة وملموسة. يحتاج

(١) عملة فرنسية قديمة.

(٢) دنانير اسبانية ذهبية.

(٣) عملة ذهبية راجت في البندقية.

(٤) عملة هولندية.

المخبأ الآمن، والحصانة، والسلم الذي يُتيح له تنفيذ مخططاته.
دون المسئلة الجوفاء يظل لوبين عصبياً على الفهم والإدراك،
أشبهه بأسطورة، بشخصية روائية لا تمت بصلة إلى صلب الواقع.
ولكن امتلاكه مفتاح السرّ - وأي سرّ! - يجعله ببساطة، رجلاً
كالآخرين، ومميزته أنّه يتفوّق في استخدام السلاح المذهل الذي
خصّه به القدر.

إذاً، المسئلة جوفاء، إنها حقيقة لا يرقى إليها الشك. ولم يبق
أمام بوتروليه إلا أن يهتدي الى طريق الوصول اليها.
من جهة البحر، بالطبع. فلا بدّ أنّ هناك فجوة ما، لجهة عرض
البحر، يمكن الوصول اليها بواسطة القوارب في ساعاتٍ محدّدة
خلال المدّ والجزر. ولكنّ أما من سبيل للوصول اليها من جهة
اليابسة؟

مكث بوتروليه حتّى المساء فوق مطلّ الهاوية، وعيناه
شاخصتان في الكتلة الداكنة التي تشبه الهرم. مكث متأملاً
مستغرقاً في التفكير كأنّه يستنفد كلّ ملكات ذهنه للإهتداء.

ثمّ هبط في اتجاه إتريتا، واختار أكثر الفنادق تواضعاً فيها حيث
تناول طعام العشاء ثمّ صعد الى غرفته وراح يدقق في الوثيقة.

فقد أصبحت الرموز أشبه بلعبة أطفال ولن يجد صعوبة في
إيجاد معناها. وعلى الفور لاحظ أن الحروف الساكنة الثلاثة
الموجودة في كلمة Etretat (*) تردّ في السطر الأول حسب الترتيب

(*) إتريتا.

الملائم والفواصل المناسبة. وهكذا يصبح تشكيل السطر الأول على النحو التالي.

e. a. a.. étretat. a..

فما هي الكلمة التي قد تسبق كلمة إيتريتّا؟ لا بدّ أنها من الكلمات التي تدلّ على موقع المسلة بالنسبة للبلدة. والحال أن المسلة تقع الى الجهة اليسرى، غرباً... ففكر قليلاً ثمّ سرعان ما أدرك أنّ الرياح الغربية التي تهب على الساحل تُسمّى رياح «السافلة»، وأن البوّابة تُدعى ببوّابة السافلة. فكتب :

(*) En aval d'Etretat. a..

السطر الثاني كان السطر الذي يتضمّن كلمة Demoiselles (آنسات) ولاحظ على الفور أن الأرقام التي تسبق هذه الكلمة ثلاث الحروف الساكنة التي تتألف منها عبارة غرفة الـ (la chambre des) ودوّن العبارتين:

عند سافلة إيتريتّا
غرفة الأنسات

عند السطر الثالث وجدّ بعض الصعوبة في حلّ الرموز، ولم يُفلح إلا بعد جهد، حين استعاد في ذاكرته صورة القلعة الصغيرة التي شُيّدت على غرار حصن فريفوسيه على مقربة من غرفة الأنسات؛ وهكذا استطاع بوتروليه أن يعيد تركيب النص كاملاً تقريباً:

(*) عند سافلة إيتريتّا، أو، أسفل إيتريتّا...

عند ساقلة إتريتا - غرفة الأنسات - تحت حصن فريفوسيه -
مسلة جوفاء.

كانت تلك الصيغ الأربع الكبرى للوثيقة، الصيغ الأساسية
والعامّة. ومن خلالها ندرك أنه ينبغي التوجه نحو أسفل إتريتا وأن
ندخل الى غرفة الأنسات ومن هناك ينبغي، على الأرجح، العبور من
تحت حصن فريفوسيه للوصول الى المسلة.

كيف؟ بواسطة الإرشادات والقياسات التي يتضمنها السطر
الرابع:

D DF 19F+44 357

ولا بد أن هذه الرموز تشكّل صيغاً ذات أهمية مميزة، إذ تشير
الى موقع المدخل والسبيل الذي يفضي الى المسلة.

وسرعان ما افترض بوتروليه - وفرضيته هذه هي النتيجة
المنطقية لمعطيات الوثيقة - أنه إذا كان الممر الذي يربط الياسة
بالمسلة موجوداً بالفعل؛ فلا بد أنه سرداب يبدأ من غرفة الأنسات
ويمتد تحت حصن فريفوسيه ليصل الى انحدار رأسي بانخفاض
مئة متر يعادل ارتفاع الضفة الصخرية، ومن هناك يفضي نفق تحت
صخور البحر إلى داخل المسلة الجوفاء.

مدخل السرداب؟ أليس هذا ما يشير اليه حرفا D و F المحفوران
بعناية؟ أليس ممكناً أيضاً أنهما يشيران الى الطريقة التي تؤدي
الى فتح بابه الغريب؟

أمضى بوتروليه صبيحة اليوم التالي متنقلاً بين نواحي إتريتا.
كان يحدث كل من يصادفهم كيفما اتفق سعياً وراء معلومة مفيدة.

وفي فترة ما بعد الظهر صعد الى الضفة الصخرية. كان تنكّره في زي بحّار بلباسه القصير جداً ومايوه صيّادي الأسماك، يجعله أشبه بصبي لم يتجاوز الثانية عشرة.

وما أن دخل الى المغارة حتى انحنى راکعاً أمام الحرفين. وكانت الخيبة في انتظاره حاول أن يطرقهما بقيضتيه، أن يضغطهما بشدّة، أن يحركهما في أي اتجاه ولكن عبثاً ما حاول. وسرعان ما أيقن أن الحرفين ثابتين ولا سبيل لتحريكهما فعلاً، وأنهما، بالتالي، لا يتّصلان بجهاز ما لفتح باب السرداب. ومع ذلك... لا بدّ أن تكون لهما دلالة ما! وكانت المعلومات التي جمعها من أهل البلدة تفيد بأن لا أحد يعرف بالضبط، أو يستطيع أن يفسّر وجود هذين الحرفين في ذلك المكان، وبأنّ الأخ كوشيه قد انكبّ هو أيضاً، في كتابه القيم حول إتريتا^(*)، على تمحيص هذا اللغز. إلّا أن إيزيدور يعلم حول هذه المسألة ما كان يجهله عالم الحفريات النورماندي، أي أنه يعلم بوجود هذين الحرفين في نصّ الوثيقة، وفي سطر الإرشادات. فهل هي محض مصادفة؟ مُستحيل. إذاً؟...

وفجأة طالعتة فكرة وبدت له عقلانية جداً وبسيطة جداً فلم يساوره الشك لحظة واحدة في أنها فكرة صائبة. ألا يُعقل أن يكون حرفا D و F هما الحرفين الأولين من الكلمتين الرئيسيتين في الوثيقة؟ كلمتان تشيران - إلى جانب كلمة مسلة - إلى المحطتين الرئيسيتين في خطة السير التي ينبغي اتباعها: غرفة الأنسات (Demoiselles)

(*) أصول «إتريتا» - يخلص الأخ كوشيه في نهاية تحليله الى أنّ هذين الحرفين ليسا سوى الحرفين الأولين من اسم عابر سبيل. إلّا أن المعطيات التي ترد في كتابنا هذا تبرهن على خطأ مثل هذا الاقتراض.

وحصن فريفوسيه (Fréfossé) . أي D الأولى و F الثانية . ففي مثل هذا التطابق ما لا يدعُ هامساً لفعل المصادفة .

وانطلاقاً مما سبق كان لا بدّ من اعتبار الصلة التالية: إنّ الرمز DF يجسّد العلاقة التي تربط غرفة الآنسات بحصن فريفوسيه . فالحرف D منفرداً عند أول السطر يُشير الى الآنسات، أي الى المغارة حيث ينبغي أن نقف في البداية . أما حرف F منفرداً كما يرد في منتصف السطر فيشير الى فريفوسيه، أي الى المدخل المحتمل للسرداب .

ومن بين هذه الرموز المختلفة، يبقى اثنان: ما يُشبه مستطيلاً غير متساوي الأضلاع تشوبه علامة عند الزاوية السفلى الى جهة اليسار، والرقم ١٩، وهما علامتان تشيران دون أدنى ريب الى طريقة العبور تحت الحصن انطلاقاً من المغارة .

كان شكل المستطيل يبعث الحيرة في نفس بوتروليه . ألا يوجد من حوله، على الجنبات أو على الأقلّ على مدى بصره، كتابة ما، أو ربّما شيء ما مستطيل الشكل؟

تفحص المكان من حوله وكان على وشك الاقتناع بعبث المحاولة حين لمحت عيناه بغتة تلك الكوة المحفورة في الصخر والتي تشبه النافذة . ولاحظ أن حوافّ هذه الفتحة ترسم شكلاً مستطيلاً على قدرٍ من الإرتجال، غير متساوي الأضلاع أو مستقيماً، ولكنه شكل المستطيل . وسرعان ما لاحظ بوتروليه أنه حين وضع قدميه على الحرفين المنقوشين على الأرضية - وهكذا وجد تفسيراً للخط المرسوم فوق الحرفين في نصّ الوثيقة - أصبح رأسه مباشرة على مستوى النافذة!

فوقف في ذلك الموضع وراح ينظر. كانت النافذة تطلّ، كما ذكرنا، مباشرة على اليايسة، واستطاع أن يرى أولاً الدرب الذي يصل المغارة باليايسة، وهو درب يمتدّ بين هاويتين، ثم رأى قاعدة الهضبة التي شيد عليها الحصن. وحاول بوتروليه أن يرى الحصن فأنحنى قليلاً لجهة اليسار، وعندئذ أدرك معنى الخطّ المقوس الذي رُسم عند الزاوية السفلى لجهة اليسار. فقد رأى عند الزاوية السفلى الى يسار النافذة قطعة صوان ناتئة وبدا طرفها مقوساً على هيئة مقلب. بدت بالفعل كعلامة تسديد حقيقية، وحين سدد نظراته من خلال علامة التسديد هذه، شاهد بوضوح، عند سفح الهضبة المقابلة مساحة ضيقة نسبياً وليس فيها سوى جدار قديم من الآجر، هو على الأرجح من خرائب حصن فريفوسيه أو المدينة الرومانية المحصنة التي شيدت في الموضع نفسه.

هرع بوتروليه الى بقايا الجدار الذي لا يتجاوز طوله العشرة أمتار والذي نبت العشب على جنباته وغطتها النباتات من كل صوب، وهناك لم يعثر على أية قرينة.

إذاً، ماذا يعني الرقم ٩١٩

عاد إلى المغارة وأخرج من جيبه كُبيرة خيوط ومترّاً من القماش وراح يقيس الخيط بعد أن ربط طرفه بمقلب الصوان وعندما أتمّ قياس تسعة عشر متراً من الخيط ربط طرفه الثاني بحصاة ورماه صوب اليايسة. لم تصل الحصاة الى أبعد من طرف الدرب.

«يا لي من أحمق، قال بوتروليه في سرّه وهل كانوا يستخدمون

التر كوحدة قياس في ذلك العصر؟ ١٩ تعني ١٩ قامة(*) أو لا تعني شيئاً.

إثر عملية حساب بسيطة تبين له أنها تساوي ٣٧ متراً ورمى الحصاة فوصلت إلى جدار الآجر المتداعي. وحاول بوتروليه أن يعثر في الجدار على الموضع الصحيح والوحيد بأية حال، الذي يبعد ٣٧ متراً عن نافذة غرفة الآنسات. استغرقه الأمر بضع دقائق من البحث والتدقيق ثم اقترب من موضع ما وبيده الطليقة انتزع بعض أوراق البوصير النابت بين الشقوق.

وأطلق صرخة حادة. فقد وصل طرف الخيط في أقصى مداه إلى اشارة صليب نقشت نقشاً بارزاً فوق أحد الأحجار. وبالفعل فإن الرمز الذي يلي الرقم ١٩ في الوثيقة هو شكل الصليب!

بذل كل ما في وسعه لتمالك الإنفعال الذي انتباه فجأة. وبسرعة خاطفة وضع أصابعه المتشنجة على الصليب وضغط عليه بقوة وفي نفس الوقت أداره كما يدير عجلة. تحركت الآجرة قليلاً. فعاود الكرة باذلاً أقصى جهده: لم تتحرك. وعندئذ كف عن إدارتها واكتفى بالضغط عليها بكل ما أوتي من قوة. وسرعان ما أحس بأن شيئاً ما يحدث. ثم فجأة سمع تكة مزلاج، صرير قفل يُفتح. ورأى بوتروليه إلى الجهة اليمنى من الآجرة قسماً من الجدار، بعرض متر تقريباً، يدور دورة على مداره ويتكشف عن فتحة سرداب.

فما كان من بوتروليه، وقد أفقدته المفاجأة صوابه، إلا أن أمسك بالباب الحديدي المموه وأغلقه بقوة، كان هول المفاجأة عظيماً

(*) وحدة قياس قديمة (تعاادل ست أقدام).

بمقدار ما امتزج شعوره بالغبطة والخوف فجعلت وجهه مشدود
القسمات وبدلت من سيمائه. فقد تراءت له كل المشاهد المخيفة لما
جرى هناك، أمام ذلك الباب بالذات، منذ عشرين قرناً من الزمن؛
وتراءت له وجوه كافة الأشخاص الذين امتلكوا حقيقة السر الكبير،
والذين دخلوا عبر تلك الفتحة الى السرداب... سلتيون وغوليون
ورومانيون ونورمانديون وانكليزيون وفرنسيون، بارونات ودوقات
وملوك، ومن بعد أولئك جميعاً، أرسين لوبين... ومن بعد لوبين، هو!
إيزيدور بوتروليه... أحس بأن دماغه يتلاشى ويغيب مبتعداً عنه.
كانت عيناه ترمشان بسرعة غريبة فلم يلبث أن وقع مغشياً عليه
وتدحرج فاقد الوعي الى الحافة.

كان قد أنجز مهمته، أو على الأقل، الجزء الذي يستطيع أن
ينجزه منها بمفرده، وبالوسائل المتاحة له.

وعند المساء، كتب رسالة مطوّلة الى رئيس جهاز الأمن، ضمّنها
الرواية التفصيلية لنتائج تحريّاته واستقصاءاته وكشف فيها عن
حقيقة سرّ المسألة الجوفاء. وفي الختام طلب المساعدة لإتمام العمل
وذيل الرسالة بعنوانه.

وفي انتظار الجواب أمضى ليلتين متواليتين في غرفة الأنسات.
وقد أمضاهما مُرتعد الفرائص مشدود الأعصاب في حالة من الهلع
تضاعفُ جلبه الليل من حدتها... كانت تتراءى له أطياف وظلال
تتقدّم نحوه. فلا بدّ أنّ العدو يعلم بوجوده في المغارة.. ولا بدّ أنّه
قادم اليه... لذبحه... ويرغم ذلك كانت نظراته ثابتة لا يجعلها
تحيد، وبكلّ ما أوتي من قوّة الإرادة، عن الجدار الخرب في الجهة
المقابلة.

في الليلة الأولى لم يلحظ شيئاً يعكّر سكونها. أمّا في الليلة الثانية
فرأى الباب وقد قُتِح فجأةً وخرجت من كنف عتمته خيالات
لأشخاص. إثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

وبدا له أن هؤلاء الرجال الخمسة ينقلون أحمالاً كبيرة الحجم.
واجتازوا الحقول مباشرةً الى طريق «هاقر»، ثم سمع هدير سيارة
تبتعد.

عاد أدراجه، وسار بمحاذاة مزرعة كبيرة. إلّا أنه حين وصل الى
منعطف الدرب الذي يحدّها عمد بغتةً الى تسلّق إحدى التلال
وتوارى خلف أشجارها. ورأى رجالاً آخرين يعبرون الفتحة،
أربعة.. خمسة... وكانوا يحملون عدداً من الرزم. ولم تنقض
دقيقتان حتّى سمع هدير سيارة أخرى. إلّا أنه هذه المرة لم يشأ
العودة إلى مكمنه فقد أحسّ بتعب شديد وذهب لينام.

عندما نهض في الصباح أتاه صبيّ الفندق برسالة. فتحها.
ووجد أنّها بطاقة زيارة باسم غانيمار.

«أخيراً!» قال بوتروليه مبتهجاً، لشدة ما كان يشعر بالفعل، أنّ
بعد مشقّات حملته المنفردة أصبح في أمسّ الحاجة للعون. وهرع
اليه ممدود اليدين. فصافحه غانيمار بحرارة وتأمّله للحظات ثمّ
خاطبه قائلاً:

– «إنّك حقاً لعنيد، يا بنيّ.

– دعك من هذا! أجاب إيزيدور، لقد أسعفتني المصادفات.

– لا وجود للمصادفات في الصراع معه، أكّد المفتش الذي كان
لا يأتي على ذكر لوبين إلّا بلهجة وقار ودون أن يسمّيه.

جلس.

- «إذاً، هل أوقعنا به؟»

- كما سبق أن أوقعنا به أكثر من عشرين مرّة، قال بوتروليه ضاحكاً.

- أجل، ولكن اليوم...

- بالفعل، اليوم ليس كالمرات السابقة، فنحن نعرف مخابئه، حصنه. ما يعني، برغم كلّ شيء، أن لوبين هولوبين. وقد يتمكّن من الإفلات. أما مسألة إتريتا فليس بإمكانها الإفلات.

- ولماذا تضع في حسابك احتمال تمكّنه من الإفلات؟ سأل غانيمار متوجّساً.

- ولماذا تفترض أنّه سيتوجب عليه الفرار؟ أجابه بوتروليه. فلا شيء يؤكد لنا أن لوبين موجود في المسألة في الوقت الحاضر. لقد غادر أحد عشر رجلاً من رجاله خلال الليل الفائت. وربما كان لوبين أحدهم.

أطرق غانيمار لبعض الوقت.

- «أنت محقّ في ما تقول. المهمّ هو المسألة الجوفاء. أما الباقي فلنأمل أن يسعفنا الحظ. والآن، لنتحدّث قليلاً».

إستعاد غانيمار نبرة صوته الصارمة، ومظهر الإعتداد بالنفس وقال:

- «يا عزيزي بوتروليه لقد تلقيت أمراً بأن أوصيك بالتكتم التام حول هذه القضية».

- ومن أصدر الأمر؟ قال بوتروليه مازحاً. أمر صادر عن رئيس الشرطة؟

- من مراتب أعلى.

- من رئيس مجلس الوزراء؟

- من مراتب أعلى.

- سحقاً!.

خفض غانيمار صوته.

- «بوتروليه، لقد وصلت للتوّ قادماً من قصر الإليزيه. وهناك صنّفت القضية على أنها سرّ من أسرار الدولة البالغة الخطورة. وثمة أسباب تدفعهم الى طلب التعتيم التام على وجود هذه القلعة اللامرئية... أسباب استراتيجية. فقد تصبح مركزاً للتسلّح، جبّخانة لأنواع جديدة من البارود والقذائف الحديثة الصنع، ما أدراني أنا؟ الترسانة الخفية لفرنسا.

- ولكن كيف تأمل الإليزيه الحفاظ على السرية التامة حول هذا الأمر؟ في ما مضى كان رجل واحد يمتلك السرّ ولا أحد سواه، وهو الملك. أمّا اليوم فأصبح ذائعاً بين عددٍ لا بأس به من الأشخاص، بالإضافة الى عصابة لوبين.

- حتّى لو لم يَدُم هذا التكتّم أكثر من عشرة أعوام، أو خمسة أعوام! فقد يكون الخلاص فيها...

- ولكن لكي نتمكن من الإستيلاء على هذه القلعة، على ما تسميه، ترسانة المستقبل، ينبغي أن نهجمها وأن نُجلى لوبين عنها. ولن يتمّ هذا الأمر في ظلّ التكتّم التام.

– بالطبع، لا بدّ أن العملية ستثير بعض الشكوك والتخمينات،
لكنّ الحقيقة ستبقى طيّ الكتمان. ثمّ لنحاول على الأقل.

– ليكن، ما هي الخطّة؟

– أوجزها لك بكلمتين. أولاً أنت لست إيزيدور بوتروليه والمعني
بالقضيّة ليس أرسين لوبين. أنت مجرد صبيّ من إتريتا شاهد في
إحدى نزّهاته بضعة رجال يخرجون من فتحة سرداب. ولكن
أخبرني، أتعقد أن هناك سلماً جوفياً يخترق الضفة الصخرية من
أعلاها الى أسفلها؟

– أجل، فهناك عدد من السلالم المماثلة على طول الخطّ
الساحلي. لقد قيل لي مثلاً إنّ هناك سلماً، يسمونه سلّم الكاهن،
قبالة بينوفيل، وجميع رواد الشاطئ يعلمون بوجوده. ولا أقصد
هنا ثلاثة أو أربعة أنفاق أخرى يستخدمها صيادو الأسماك.

– إذا، سأتولّى قيادة نصف عديد القوة التي ترافقني في عملية
الدهم وستتولّى، أنت، إرشادنا الى المكان. سأدخل بمفردي أو برفقة
أحد ما، سنرى هناك. المهمّ أن عملية الدهم ستتم من هذه الناحية.
وإذا كان لوبين قد غادر المسألة ننصبّ له كميناً هناك ولا بدّ أن يقع
بين أيدينا ذات يوم. أما إذا كان هناك...

– إذا كان لوبين داخل المسألة، يا سيّد غانيمار، فسيتمكّن من
الفرار من الجهة الخلفية المطلة على البحر.

– في مثل هذه الحال سيقع بين أيدي بقية رجالي.

– أجل، أجل، ولكن إذ اخترت توقيت العملية خلال فترة الجزر،
كما أحسب، فعندئذ تكون المياه انحسرت عن قاعدة المسألة وتصبح
المطاردة علنية وأمام أعين صيّادي بلح البحر والجمبري وأنواع

الصدفيات الأخرى التي يعجّ بها الشاطئ الصخري المجاور.
- ولذلك سأختار فترة المدّ.

- في هذه الحال سيستخدم زورقاً.

- وأنا أيضاً سأستخدم بضعة زوارق حيث يكون رجالي على أهبة الاستعداد لاعتراضه والقاء القبض عليه.

- ماذا لو تجنّب المرور بين زوارق رجالك؟ كما قد تفلت السمكة من خروم الشبكة.

- ليكن. عندئذ سأعمد الى إغراق زورقه.

- سحقاً! هل استقدمت المدفعية؟

- بحق السماء، هناك سفينة نسّافة في مياه الهافر متأهبة للتدخل وفي انتظار مكالمات هاتفية منّي لتصبح في غضون ساعة في مياه المسلة.

- كم سيشعر لو بين بالاعتزاز! سفينة حربية!... أرى يا سيد غانيمار أنّك اتخذت كل الاحتياطات اللازمة. ولم يبق إلا أن نبدأ بالهجوم. ومتى ستتمّ العملية؟

- غداً.

- ليلاً؟

- لا، في وضح النهار خلال فترة المدّ، عند العاشرة صباحاً.

- جيّد جداً.

كان بوتروليه يُخفي خلف مظاهر الإبتهاج التي أبدأها، إحساساً عميقاً بالقلق. ولم يغمض له جفنٌ طوال الليل مُقلّباً في رأسه أكثر الخطط استحالة. وكان غانيمار قد غادره قاصداً

«بيبور»، على بعد عشرة كيلومترات من إتريتا، حيث من المفترض أن
ينضم إليه رجاله هناك لمزيد من الحيلة والحذر وحيث أمر بتجهيز
نحو اثني عشر زورق صيد زاعماً أنها ستستخدم في عمليات سبر
على طول الخط الساحلي.

عند التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين انضم إلى إيزيدور
مصحوباً بدزينة من الرجال الأقوياء عند أسفل الدرب التي تفضي
صعداً إلى أعلى الضفة الصخرية. وكانت ساعة الصفر قد دنت.
- «ما بك إذاً، يا بوتروليه؟ تبدو لي ممتنعاً؟ قال غانيمار هازناً.
- وأنت يا سيد غانيمار، أجاب بوتروليه، تبدو وكأن ساعة الأجل
قد حانت».

جلسوا جميعاً، وتناول غانيمار بضع جرعات من الشراب.

- «لا أقول إنها لحظات التهيّب، قال، ولكن، اللعنة، أي انفعال!
ففي كلّ مرّة أقترّب فيها من لحظة الإمساك به أشعر بشيء من
الإنقباض والتشنج. أتريد جرعة من الشراب؟
- لا.

- ماذا لو مكثت هنا؟

- أفضل الموت.

- سخفاً! على أية حال، سنرى. والآن، هيا افتح. ألا يستطيعون
رؤيتنا من هناك؟

- لا، فالمسلة أقل ارتفاعاً من الضفة، بالإضافة إلى أن المكان
الذي نقف فيه أشبه بمنخفض في أرض مستوية».

دنا بوتروليه من الجدار وضغط على الآجرة. فسمعت نكة المزلاج وتبعها الدوران التلقائي وظهرت فتحة السرداب، فدخل مزودين بمصابيح ولاحظا أن النفق محفور في شكل قبة وأن هذه القبة مكسوة بالآجر وكذلك أرضيتها.

سارا لبضع ثوانٍ وإذا بهما أمام سلم. وعد بوتروليه خمساً وأربعين درجة من الآجر أيضاً وبدأت جميعها خاسفةً من الوسط بفعل الوطاء البطيء على مر الزمن.

- «سحقاً! صرخ غانيمار مغيضاً وقد وضع يده على رأسه وتوقف فجأة كأنه ارتطم بشيء ما.

«ما الأمر؟

- إنه باب!

- تبا، تمت بوتروليه بعد أن رآه، وليس من السهل اقتحامه. إنه كتلة من الحديد.

- لقد قضي الأمر، قال غانيمار، حتى أنني لا أرى أثراً لقفل أو مزلاج.

- وهذا بالضبط ما يُبقي لدي بعض الأمل.

- كيف؟

- يوضع الباب عادةً لكي يُفتح، وإذا كان هذا الباب من دون قفل أو مزلاج فلأن هناك طريقة سرية لفتحه.

- وبما أننا لا نعرف شيئاً عن سرّ فتحه..

- سأهتدي إليه.

كيف؟

- بواسطة الوثيقة. فقد وضع السطر الرابع لغاية وحيدة وهي أن يساعد على حل الصعوبات الطارئة. ولا بد أن يكون الحل بسيطاً نسبياً لأنه كُتب في الأصل لا بقصد التضليل بل بقصد المساعدة.

- بسيط نسبياً! لا أشاطرك الرأي، صرخ غانيمار وقد بسط الوثيقة أمامه... الرقم ٤٤ ويليه مثلث ونقطة في زاويته اليسرى؛ أجد الرمز غامضاً.

- لا، على الإطلاق. تفحص الباب جيداً وستلاحظ أنه مدعم عند الزوايا الأربع بألواح حديدية مثلثة الشكل وأن هذه الألواح مثبتة بمسامير ضخمة. لنأخذ لوح الزاوية السفلى لجهة اليسار ونحاول تحريك المسمار المثبت عند الزاوية... وأعتقد أن حظوظ النجاح في مسعانا هي الغالبة بنسبة تسعة أعشار مقابل عُشر واحد.

- لقد أصبنا العُشر الواحد، قال غانيمار بعد أن حاول وأخفق.
- إذاً، يبقى أن نرى ما معنى الرقم ٤٤...

وإذ بدا مستغرقاً في التفكير، أردف بوتروليه قائلاً بصوت خفيض:

- «لنرَ قليلاً... نقف غانيمار وأنا جنباً إلى جنب على الدرجة الأخيرة من السلم... وهناك ٤٥ درجة... ولكن لماذا ٤٥، بينما تُشير الوثيقة إلى الرقم ٤٤؟.. أهي مجرد مصادفة؟ لا... لم نجد في هذه القضية ما يمكن وصفه بالمصادفة، أو في الأقل ما يمكن وصفه بالمصادفة غير المتعمدة. هلاً صعدت درجة واحدة يا غانيمار.. حسناً.. الزم مكانك عند الدرجة الرابعة والأربعين. والآن أحرك المسمار فيفتح الباب وإلا أكون مجرد أبله».

وبالفعل فُتِح الباب تلقائياً على مصراعه، ودخلا الى كهفٍ فسيحٍ نسبياً.

- «لا بد أننا أصبحنا تحت حصن فريفوسيه. قال بوتروليه؛ فقد شُقَّ النفق عبر طبقاتٍ من التراب المتكلس،، انتهى غطاء الآجر. وأصبحنا في قلب الكتلة الكلسية.»

كانت الحجرة مضاءةً بانعكاس ضوءٍ خافتٍ مصدره الجهة المقابلة. وحين اقتربا قليلاً تبين أنه ناجم عن شقٍّ عريضٍ نسبياً استحدث في نتوءٍ بارزٍ من الجانب الداخلي لجدار الضفة الصخرية ويُستخدم على الأرجح كمرصد. وقيالتهما، على بعد خمسين متراً كانت كتلة المسلة الهائلة باسقةً من بين الأمواج. ولجهة اليمين بدت القوس الحجرية العملاقة لبوابة الساقلة، ولجهة اليسار، أبعد قليلاً، بدت قوسٌ حجريةٌ أخرى، أكثر ضخامةً من الأولى وكأنها علقت فوق جوفٍ واسع. إنها بوابة الأعطيات (مانيا بورتا)، الهائلة الحجم والارتفاع، حتى أن سفينة كبيرة قد تعبر تحت قوسها بصواريها المرتفعة وأشرعتها. وفي الخلفية البعيدة لا شيء إلا مياه البحر.

- «لا أرى أسطولنا الصغير، قال بوتروليه.

- ليس بإمكانك أن تراه، قال غانيمار، لأنَّ بوابة الساقلة تحجب عنا كلَّ شاطئٍ إتريتا وبيبورت. ولكن انظر، هناك، في عرض البحر، أترى هذه الكتلة السوداء عند الأفق...؟

- أجل..

- إنها أسطولنا الحربي، السفينة النسافة رقم ٢٥. والآن باستطاعة لوبين أن يحاول الفرار... إذا أراد أن يتمتع بمناظر

الأعماق». لحا طرف درابزين خشبي قرب المرصد فأدركا أنها فتحة سلم. فسلكاه، ومن حين الى آخر، كانا يلاحظان وجود كوة في الجدار ومنها يشاهدان المسئلة التي كانت تبدو أكثر ضخامة في كل مرة. وقبل أن يصلا الى مستوى المياه بقليل أصبح الجدار خالياً من الكوى وسادت العتمة.

كان إيزيدور يعدّ درجات السلم بصوتٍ مسموع. وبعد أن هبطا ثلاثمئة وثمانين وخمسين درجة أفضيا إلى رواقٍ أوسع تسده بوابة أخرى مدعمة بالألواح حديدية ومسامير.

- «نعرف الطريقة، قال بوتروليه، تُشير الوثيقة الى العدد ٣٥٧ وإلى مثلث موسوم بنقطة الى جهة اليمين. ليس علينا إلا أن نكرّرها فعلناه في المرة السابقة».

وفُتح الباب الثاني كما فُتح الأول. وطالعهما نفق طويل، نفق طويل جداً تُضيئه في مواضع متفرقة أنوار مصابيح مُتدلّية من السقف المقيبب. كانت الجدران ترشّح رطوبةً وأغرقت القطرات المتساقطة منها أرض النفق ففرشت برصيف حقيقي من الألواح لتسهيل عبور المارين.

- «إننا نعبر تحت البحر، قال بوتروليه. هلاً تبعثني يا غانيمار؟».

دخل المفتش الى النفق ومشى فوق الألواح الخشبية وتوقف عند أحد المصابيح وانتزعه من مكانه:

- «المصابيح قديمة وربما صُنعت في القرون الوسطى، أمّا أسلوب الإنارة فحديث العهد. فهؤلاء السادة يستخدمون الرتينات المشتعلة للإنارة».

تابع طريقه. وأفضى بهما النفق الى كهفٍ آخر أكثر اتساعاً من الأول حيث تراءت، قُبلاً،، أولى درجات سلّم يُفضى إلى الأعلى.

– «والآن بدأ درب الصعود نحو المسلة، قال غانيمار، ومن الآن فصاعداً ستصبح الأمور أشد خطورة».

إلا أنه سمع أحد رجاله يُناديه:

– «هناك سلّم آخر، هناك، إلى الجهة اليسرى».

ثم انتبهوا الى وجود سلّم ثالث إلى الجهة اليمنى.

– «سحقاً، تمتع المفتش، لقد ازدادت الأمور تعقيداً. فإذا سلكننا

هذا الاتجاه قد يتمكن اللصوص من الفرار عبر الاتجاه الآخر.

– لننفصل إذاً وليذهب كلُّ منا في اتجاه، قال بوتروليه.

– لا، لا... بهذه الطريقة نفقد عنصر تفوقنا العددي... من

الأفضل أن يذهب أحدنا للإستطلاع.

– أنا أذهب إن شئت...

– أنت يا بوتروليه، ليكن. وسأمكث هنا مع رجالي... وبهذه

الطريقة لا نتوقع مفاجآت غير محسوبة. فقد يكون هناك دروب

أخرى غير ذلك الدرب الذي سلكناه عند الضفة الحجرية، وقد

يكون هناك أيضاً أكثر من درب داخل المسلة. ولكن المؤكد أن لا

وجود لأي ممرٍ آخر يصل الضفة بالمسلة إلا النفق. إذاً، هذا

الكهف هو الممرّ الإجباري. ولذلك سأمكث هنا إلى حين عودتك.

هيا، اذهب يا بوتروليه، وكُن حذراً... وعند بوابر أي خطر... عُد

أدراجك على الفور».

وبسرعة سلك بوتروليه سلّم الوسط. وبعد أن تسلّق ثلاثين درجة

أوقفه بابٌ، بابٌ حقيقي من الخشب فأمسك بعتلة القفل وأدارها.
لم يكن الباب مقفلاً.

دخل الى ردهة بدت له واطئة السقف ولكنها فسيحة جداً.
وكانت مصابيح ساطعة وُضعت فوق مساند ثخينة تُضيء أرجاءها.
كانت الردهة في اتساع تجويف المسلة بلا ريب، وقد كُتبت فيها
أعداد من الصناديق والحاجيات وقطع الأثاث والكراسي والصيان
والخزائن؛ ركام من كل نوع أشبه بمستودع متجر للتحف. ولاحظ
بوتروليه، إلى جهة اليمين وجهة اليسار، فتحتين لسلمين هما من
دون شك امتداد السلمين اللذين يمتدان صُعداً من الكهف
السفلي. كان باستطاعته أن يعود أدراجه لإبلاغ غانيمار بما
شاهده. إلا أنه أراد أن يواصل استطلاعاه بمفرده، فسلك سلم
الوسط.

بعد ثلاثين درجة، باب آخر، وردهة أخرى أقل اتساعاً. وأمامه،
في الوسط سلم آخر الى أعلى.

ثلاثون درجة. باب. ردهة أقل اتساعاً من السابقة...

هكذا استطاع بوتروليه أن يفهم مخطط الأشغال التي نفذت
داخل المسلة. فقد كان جوف المسلة عبارة عن طبقات، كل طبقة
منها هي عبارة عن ردهة تُصبح أقل اتساعاً كلما ازداد ارتفاعها.
وتُستخدم جميعها كمخازن لذلك الركام الذي رآه.

كانت الطبقة الرابعة خالية من المصابيح، ولا يُضيئها سوى
ضوء النهار الخافت الذي يتسرب من الشقوق؛ ولاحظ بوتروليه عبر
أحد الشقوق أن هذه الطبقة تعلو سطح البحر بنحو عشرة أمتار.

في تلك اللحظة راوده الشعور بأنه ابتعد كثيراً عن غانيمار وراح القلق يتسرب إلى كيانه، وكان عليه أن يبذل الكثير من الجهد لتمالك خوفه ومقاومة رغبته في الرجوع من حيث أتى. ومع ذلك لم يكن في المكان ما يُثير الريبة، بل، على العكس من ذلك، بدا الصمت مطبقاً وثقيلاً حتى أن بوتروليه سأل نفسه سراراً عما إذا كان لو بين ورجاله ما زالوا فعلاً داخل المسلة.

«سأتابع الإستطلاع حتى الطبقة التالية ثم أعود»، قال إيزيدور في سرّه.

ثلاثون درجة، كالمعتاد، ثم باب، إلا أنه بدا هذه المرة من خشب أخفّ وحديث الطراز. ففتحه على مهل تحسباً لأية مفاجأة. لم يجد أحداً في الداخل، إلا أنه لاحظ فوراً أن الردهة تختلف عن سابقتها. فقد كُسيَت الجدران بسجادات الحائط. وفرشت الأرض بالسجاد. ولفته وجود خزانتي رائعتين للأطباق وضعت إحداهما قبالة الأخرى وصُفّت في داخلهما أنواع المصوغات المختلفة. أما النوافذ الصغيرة المستحدثة في الجدران فقد كانت مزودة بأطر زجاجية.

في وسط الغرفة طاولة كُسيَت بغطاء من الدانتيللا ووضعت عليها أوعية مليئة بمربيّات الفاكهة والكعك، بالإضافة إلى زجاجة شمبانيا في غرّافة ثلج، وورود، بل أكوام صغيرة من الورد.

وفوق الطاولة وضعت ثلاثة صحون.

اقترب بوتروليه. فوجد فوق القوط الثلاث بجانب الصحون ثلاث بطاقات كتب عليها أسماء المدعوين.

قرأ الإسم في البطاقة الأولى: أرسين لوبين.

وقبالتة بطاقة: السيّد أرسين لوبين.

وما أن قرأ الإسم على البطاقة الثالثة حتى سرت في أوصاله
رعشة ذهول. فقد كانت تحمل اسمه: إيزيدور بوتروليه.

الفصل العاشر

كنز ملوك فرنسا

فُتِحَتْ ستارة.

- «صباح الخير يا عزيزي بوتروليه، لقد تأخرت بعض الشيء.
لقد كان موعد الغداء عند الثانية عشر ظهراً. ولكن لا بأس، بضع
دقائق من التأخير... ما الأمر؟ أما عرفتنى؟ لقد تغيرتُ إذاً إلى هذا
الحدّاء».

لقد شهد بوتروليه خلال صراعه ضدّ لوبين عدداً لا بأس به من
المفاجآت، وكان، بالطبع، يتوقّع المزيد منها في اللحظات الأخيرة، إلّا
أنّ الصدمة، هذه المرّة، كانت غير متوقّعة. وما نتج عنها ليس حالة
من الذهول، بل حالة من الإنشدهاء، حالة من الرعب.

فقد كان الرجل الذي يقفُ قبالتة، الرجل الذي أرغمته قوّة
الأحداث المتلاحقة على اعتباره أرسين لوبين، كان الرجلُ الواقف
هناك فالميرا. فالميرا! هو نفسه الذي استعان به إيزيدور ذات مرّة
ضدّ أرسين لوبين. فالميرا! الصديق الشجاع الذي ساعد على
إطلاق سراح ريموند بعد أن ضرب، أو تظاهر بضرب، أحد شركاء
لوبين المزعومين في عتمة الردهة!

- «أنت.. أنت... هذا أنت إذاً! قال مُتلعثماً.

- ولمَ لا؟ صرخ لوبين. وهل كنت تحسب أنك كشفت هويتي الحقيقية لأنك رأيتني متنكراً بزّي رجل دين انكليزي أو منتحلاً شخصية السيّد ماسييان؟ للأسف الشديد، عندما يختار من هو مثلي الدور الاجتماعي الذي أَلعبه فلا بدّ أن يستغلّ تلك المواهب الاجتماعية الصغيرة. فإذا كان لوبين لا يستطيع، حين يشاء، أن يكون كاهن كنيسة انكليزية أو عضواً في أكاديمية المدونات والفنون الجميلة، فذلك يعني أن لوبين لم يَعد هو نفسه لوبين. والحال، يا بوتروليه، ان لوبين، لوبين الحقيقي يقف أمامك الآن! فانظر جيّداً يا بوتروليه...

- ولكن إذا... إذا كنت أنت لوبين، فالآنسة...

- بالضبط، يا بوتروليه، لقد قلتها أنت....

أزاح الستارة مجدداً وأشار بيده ثم قال مُعلنًا:

- «السيدة أرسين لوبين.

- آه! تتمم الفتى الذي بدا مرتبكاً... الآنسة دوسان فيران.

- لا، لا، قال لوبين معترضاً أو الأخرى، إن شئت، السيدة لويس فالмира، زوجتي الشرعيّة حسبّ الأصول المرعيّة الإجراء والقانونيّة. وكل ذلك بفضلك أنت يا عزيزي بوتروليه».

ومدّ له يده.

- «كلّ امتناني... ومن جهتك أمل أن لا تضمر لي أيّ حقد».

والمستغرب في الأمر أن بوتروليه لم يكن يشعر بالحقْد عليه، ولا بالهانة ولا بالمرارة. فقد كان يتلقّى غلبة خصمه التامة بتماسك

داخلي مذهب ولا يشعر بالخلج حبال إحساسه بالهزيمة. فصافح
اليد الممدودة لمصافحته.

- «لقد أصبح الطعام جاهزاً يا سيديتي».

كان الخادم قد وضع صينية من الأطعمة على الطاولة.

- «نرجو منك المذرة يا بوتروليه، إن الطباخ في إجازة ولذلك
سنأكل طعاماً بارداً».

كان بوتروليه لا يشعر برغبة في الطعام. ومع ذلك جلس الى
المائدة وقد استثار سلوك لوبين فضوله. فما الذي يعرفه لوبين
بالضبط؟ هل يعي خطورة الموقف الذي يتهدده؟ ألا يعلم بوجود
غانيمار ورجاله؟... وأردف لوبين قائلاً:

- «أجل، بفضلك أنت يا صديقي العزيز. لقد أحببتُ ريموند
وأحببتني بالطبع منذ لقائنا الأول. بالضبط يا بني... أمّا عملية
الخطف والإحتجاز فكانت مجرد دعابات: لقد أحببتها وبادلتني
الحب منذ البداية... إلّا أنّها أبت، كما أبيتُ أنا بالطبع، أن يقوم
بيننا ذلك النوع من العلاقات العابرة التي تتحكم بها المصادفة.
وهكذا واجه لوبين موقفاً صعباً. ولكن الصعوبة تزول إذا عاد لوبين
الى انتحال شخصية لويس فالмира التي لازمتني منذ نعومة
أظفاري. وعندئذ وحيال إصرارك على ملاحقتي واكتشافك قصر
المسئلة، قرّرت أن أستغلّ عنادك.

- وحماسي..

- دعك من هذا! أوتحسب أن الخدعة ما كانت لتتطلي على أي
شخص آخر؟

- بحيث أنك نجحت في مسعاك تحت الغطاء الذي وفّرتك لك
وبمساعدي؟

- بحق السماء! من كان ليرتاب بأن فالميرا هولوبين ما دام فالميرا
صديق بوتروليه وما دام فالميرا قد انتزع من لوبين المرأة التي كان
يحبّها؟ كم كان الأمر مُسلياً. آه! الذكريات الجميلة! رحلة
كروزون! باقات الورد: ورسالة الحبّ المزعومة الموجهة الى ريموند!
وفي ما بعد الاحتياطات التي كان عليّ، أنا فالميرا، أن أتخذها تحسباً
لأي ردّ فعل من قبلي، أنا، لوبين، قبل زواجي! ليلة المأدبة التي
أقيمت تكريماً لك، عندما تهالكت يأساً بين ذراعي! آه! يا لها من
ذكريات جميلة!...

ساد صمتٌ. التقت بوتروليه نحو ريموند. كانت تُصغي الى
لوبين دون أن تنبس بكلمة واحدة، وكانت ترمقه بنظرات مفعمة
بالحبّ والشفغف، ومفعمة بأشياء أخرى لم يستطع الفتى أن يدرك
مغزاها بالضبط، كأنها الإحساس بالحرّج المقلق أشبه بكآبة
غامضة المصدر. ولكنّ لوبين التفت ونظر اليها فابتسمت له برقة.
والتقت أيديهما على الطاولة.

- «كيف وجدت بيتي الصغير يا بوتروليه؟ سأله لوبين فجأة...
ذروة التناسق، أليس كذلك؟ لا أزعّم أنه منتهى الرفاهية... ومع
ذلك فإنّ بعضهم أحبّ الإقامة فيه، وليس هؤلاء هم الأقلّ شأنًا...
أنظر، هذه اللائحة بأسماء الأشخاص الذين تعاقبوا على ملكية
المسلة، وحرصوا على أن يتركوا أثراً لهم فيها».

التفت بوتروليه ورأى على الجدران من حوله هذه الأسماء التي
حُفرت على التوالي:

قيصر. شارلمان. رول. غيوم الفاتح، ريتشارد، ملك انكلترا.
لويس الحادي عشر. فرنسوا الأول. هنري الرابع. لويس الرابع
عشر. أرسين لوبين.

- «ومن تراه يكون التالي؟ أردف قائلاً. للأسف الشديد! لقد
تمّت اللائحة. من قيصر الى لوبين، وقضي الأمر. وقريباً جداً
ستتوافد الحشود لزيارة القلعة الغريبة. وحسبي أن يُقال في ما بعد
إنّها، لولا لوبين، لظلت مجهولة لم ترها عينُ بشر! آه! يا بوتروليه،
لو تدرك ما أحسستُ به من مشاعر الاعتزاز يوم وطئت قدمي هذه
الأرض المهجورة! أن أُعيد اكتشاف السرّ الضائع وأصبح مالكة،
مالكة الوحيد! وريث مثل هذا الميراث! وبعد هذا العدد الكبير من
الملك، أن تصبح المسلة مسكناً لي!...».

أشارت زوجته بيدها فسكت. بدت شديدة الاضطراب.

- «أسمع جلبة، قالت... مصدرها الطبقات السفلى... هلا
أصغيتما...»

- إنه صوت تقلّب الأمواج، قال لوبين.

- لا.. لا.. أنا أعرف جيداً صوت تقلّب الأمواج... إلّا أن الجلبة
مختلفة...

- ومن تحسبن أنّه قد يكون، يا صديقتي العزيزة، قال لوبين
ضاحكاً. لم أدعُ إلّا السيّد بوتروليه ليشاركنا طعام الغداء.

وخاطب الخادم قائلاً:

- «يا شاروليه، هل أوصدت أبواب السلالم بعد مجيء السيّد؟

- أجل، وأحكمتُ إقفالها».

نهض لوبيين:

- «هيا يا ريموند، لا تخافي، ما بالك ترتعدين على هذا النحو؟..
آه! وما سبب شحوبك هذا؟».

وانحنى وهمس ببعض العبارات في أذنها، وفي أذن الخادم،
وأزاح الستارة وأخرجهما معاً.

في الأسفل كانت الجلبة قد أصبحت مسموعة بوضوح. ضربات
تتكرر على التوالي بانتظام. وفكر بوتروليه:

- «لا بد أن غانيمار قد عيل صبره ويحاول الآن أن يُحطم
الأبواب».

ثم، بهدوء بالغ كأنه لم يسمع الضوضاء بالفعل، قال لوبيين
متابعاً حديثه:

- «كانت المسئلة أشبه بالخربة حين اهدت إليها! وكان من
الواضح جداً أن أحداً لم يكتشف سرّها منذ قرن من الزمن، منذ
عهد لويس السادس عشر والثورة. كان النفق على وشك الانهيار
النام، والسلالم تكاد تصبح حطاماً، وكانت المياه تتسرب بقوة الى
الجوف. وكان عليّ أن أدعم وأسند وأن أعيد البناء من جديد».

لم يتمالك بوتروليه نفسه عن القول:

- «وهل كان المكان خالياً حين وصلت؟»

- تقريباً. فلا بد أن الملوك لم يستخدموا المسئلة كمستودع كما
أفعل أنا الآن...

- استخدموه كهلال، إذا؟

- أجل، من دون شك، خلال مراحل الغزو وخلال سنوات الحروب الأهلية أيضاً. إلا أن وجهة استخدامه الفعلية فهي... كيف أقول لك؟ أن يكون خزنة ملوك فرنسا».

تسارعت الضربات وبدأت كأنها أصبحت أقرب. فلا بد أن غانيمار قد حطّم الباب الأوّل ويعمل على تحطيم الثاني.

ساد الصمت لبعض الوقت ثمّ عادت الضربات أقرب وأقرب. كان غانيمار يحطّم الباب الثالث.

ومن خلال إحدى النوافذ رأى بوتروليه الزوارق التي كانت تبحر حول المسلة، وعلى بُعدٍ منها، السفينة النشافة عائمة مثل سمكة سوداء هائلة الحجم.

- «يا لهذه الضوضاء! قال لوبين بلهجة تعجّب، أكاد لا أسمع شيئاً! هلاًّ صعدنا الى الطبقة العليا؟ فقد تجد في زيارتك للمسلة ما يُثير اهتمامك».

وانتقلا الى الطبقة العليا المحصنة كسابقاتها بباب لم يلبث لوبين أن أغلقه خلفهما.

- «معرض لوحاتي»، قال.

كانت الرسومات تُغطّي جدران الردهة، واستطاع بوتروليه أن يقرأ عليها توقيّع أشهر الرسامين. ومن بينها «عذراء آنيوس داي» لرفاييل، و«رسمة لوكريسيا فيدي» لأندريه دل سارتو، و«سالوميه» لتيتان، و«العذراء والملائكة» لبوتيتشيلي؛ ولوحات أخرى لتانتوريه وكريباتشو ورامبرانت وفيلاسكينز.

- «إنها نسخٌ جميلة!» قال بوتروليه...

فرمقه لوبين بنظرات ذهول:

«ماذا! نُسخ! هل جئنت! النسخ، يا عزيزي، هي تلك التي تُعرضُ اليوم في فلورنسا والبندقية وميونخ وأمستردام.

- أيعقل هذا؟

- إنها اللوحات الأصلية التي جمعتها من كافة متاحف أوروبا والتي استبدلتها بنسخ متقنة جداً.

- ولكن ذات يوم...

- ذات يوم سيتم فضح عملية التزوير؟ عندئذٍ سيجدون توقيعني على مقلب كل لوحة وسيعلم الجميع أنني زوّدت بلادي بهذه الروائع الأصلية. وبأية حال لم تقترف يداي إلا ما اقترفته يدا نابوليون في إيطاليا... آه! انظر يا بوتروليه هذه لوحات السيّد دوجيفر التي تحمل توقيع روبنز».

كانت الضربات تتواصل مُرددة صداها في جوف المسلة.

- «إنه أمر يفوق احتمالي! قال لوبين. لنصعد إلى طبقة أخرى».

سلم آخر. وباب آخر.

- «صالة سجادات الحائط» قال لوبين.

لم تكن السجادات معلقة على الجدران بل وضّبت كلفافات كبيرة وربّطت بسيور واعتلمت ببطاقات، ثم وُضعتُ إلى جانب لفافات أخرى من القماش القديم. وراح لوبين يقلّبها: ديباج رائع، مخمليات مذهلة، حرائر مختلفة ذات ألوان باهتة، ومطرّزات وأقمشة موشاة بالذهب والفضة...

صعد إلى طبقة أخرى، فشاهد بوتروليه صالة ساعات الحائط، ثم صالة الكتب (أوه! تلك المجلدات الفخمة والنسخ الثمينة النادرة التي سُرقَت من المكتبات الكبرى!) ثم صالة الدانتيللا، وصالة التحف والأواني المزخرفة.

وكانت مساحة كل صالة تبدو أقل اتساعاً من سابقتها. وكلما علت الطبقات ابتعدت أصداء الضربات. لا بدّ أن غانيماركان يجد صعوبةً في اللحاق بهما.

.. «الصالة الأخيرة، قال لوبين، صالة الكنز».

كانت الصالة الأخيرة تختلف عن سابقتها. فهي وإن كانت دائرية الشكل كالصالات الأخرى، إلّا أن سقفها المرتفع بدا مخروطياً. فالصالة الأخيرة تحتلّ الجزء الأعلى من الهيكل الحجري ويبلغ ارتفاعها، حتّى أعلى قمة المسلة، نحو خمسة عشر أو عشرين متراً.

لم يرَ بوتروليه نوافذَ في الجنبات الداخلية للبناء لجهة الضفة الحجرية العالية. أمّا لجهة البحر، حيث لا خشية من نظرات الفضوليين، فقد استحدثت في الجدار كوتان كبيرتان زودتا بأطر زجاجية فتبدو أرجاء الصالة مضاءةً بدفق من ضوء النهار. أما الأرضية فقد كُسيّت بالأواحِ خشبيةً من النوع النادر نُقِشت عليها دوائر متداخلة. كما نُبِتَ عددٌ من الواجهات على الجدران وفي داخلها عددٌ آخر من الزسومات.

.. «إنها تحف مجموعاتي كلّها، قال لوبين. فكلّ ما شاهدته حتّى الآن بضاعة معروضة للبيع والشراء. إنها أصول المهنة. أما هنا، في هذا الحرم، فكل شيء مقدّس. لا أحتفظ هنا إلّا بالمختار،

الجوهري، أجود الأجود، ما لا يُقدَّر بثمن. انظر الى هذه الجواهر
يا بوتروليه، تمائم كلدانية، عقود مصرية، أساور سلتية، سلاسل
عربية... انظر الى هذه التماثيل الصغيرة يا بوتروليه، فينوس
اليونانية، وأبولون الكورنثي... انظر الى هذه الطنغرات(*)، يا
بوتروليه! كل الطنغرات الأصلية موجودة هنا، وكل ما تجده منها
خارج هذه الواجهة مُزيّف. كم تستخفني الغبطة حين أجاهر بهذا
الأمرا! أتذكر يا بوتروليه لصوص الكنائس في الجنوب، عصابة
طوماس - إنهم عملائي، بأية حال - أتذكر، وما تراه أمامك الآن هو
صندوق أمباراك، الحقيقي يا بوتروليه! أتذكر فضيحة اللوفر،
عندما تبين أن التاج الفارسي مزيّف وأنه نسخة صممها مخيلة
فنان حديث... هذا هو التاج الفارسي، الأصلي، يا بوتروليه! وهذه
معجزة المعجزات، وتحفة التحف، «جوكونده» ليوناردو دي فنشي
الأصلية، اركع يا بوتروليه، الأنثى، رمز الأنثى أمامك!.

ساد صمت عميق بينهما. وفي الأسفل كانت الضربات تقترب.
بابان أو ثلاثة على الأكثر تفصلهما عن غانيمار. وفي عرض البحر
تبدو بوضوح السفينة النسّافة ومن حولها الزوارق الصغيرة التي
تقوم بأعمال الدورية. فسأل الفتى:

- «والكنز؟»

- آه! يا صغيري، تبدو متهفأ لرؤية الكنز! كأن كل الروائع التي
أنتجها الفن البشري لا يعنيك في شيء، أليس كذلك؟ كل هذه
الروائع لا تساوي، في عين الفضول، تأمل الكنز... ولا بد أن

(*) تماثيل صغيرة جميلة. تُصنع من طين تاناغرا باليونان.

لحشود العتيدة ستشاطرك الرأي!... إذا هيا، يا بني، لا نريدك
لأ راضياً!.

فضرب بإحدى قدميه الأرضية فانقلب أحد الألواح الدائرية
لتي تغطي الأرض فرفعه كما يرفع غطاء علبة، فبدا تحته تجويف
في شكل دن، مستدير، وقد حُفر في الصخر.. كان التجويف فارغاً.
نابتعد لوبين قليلاً ورفع لوحاً آخر فبدا دن آخر! وكان فارغاً أيضاً.
أعاد الكرة ثانية وثالثة. وكانت الدنان الثلاثة الأخرى فارغة.

- «ماذا ترى! قال لوبين هازئاً، يا للخيبة! لقد كانت الدنان
الخمس مليئة بالمجوهرات والمال في عهد لويس الحادي عشر وعهد
هنري الرابع، وفي عهد ريشوليو. ولكن فكّر ملياً بما صنعه لويس
الرابع عشر، وجنون فرساي، والحروب والكوارث التي توالى في
عهده! وفكّر ملياً بما صنعه لويس الخامس عشر، الملك الضال،
والبومبادورة، على طريقة بارّي! كم استنفد هؤلاء من المكنوز! حتى
حفروا الحجر بأظافرهم بحثاً عن البقية! وكما ترى، لم يبق شيء».

ثم توقف.

- «بلى، يا بوتروليه، لقد تبقى شيء ما، المخبأ السادس! لم
يُمس... لم يجرو أحد منهم على ذلك. لقد كان المصدر الأعظم
للثروة... ولنقل، إن جازت العبارة، إجازة الزاد التي تروي
الظما، يا بوتروليه». فانحنى ورفع الغطاء فبدت خزانة داخل الدن
الصخري. فأخرج لوبين من جيبه مفتاحاً وفتحها.

كان البريق المنبعث من محتوياتها يُغشي الأبصار. كل الأحجار
الكريمة متوقدة اللعان بألوان شتى، لازوردِيّ اليواقيت وحمرتها
اللاهية، أخضر الزمردات وسطوع شمس الزبرجد.

- «انظر، انظر يا بوتروليه. لقد استنفدوا كل المال، القروش والريالات والدوقان والدبلونات المذهبة، لكنَّ أحداً منهم لم يمسَّ خزانة الأحجار الكريمة! انظر الى مصوغاتها، منها ما صُنع في كافة العصور والقرون والبلدان. كل ما جمعته الملكات من بائنات تجده هنا؛ كل واحدة منهن كنزت حصتها، مرغريت الاسكتلندية، شارلوت بلاد السافوا، ماري ملكة انكلترا وكاثرين دوميديسيس، وكلَّ أرشيدوقات النمسا، إليونور، أليزابيت، ماري تيريز، ماري انطوانيت... انظر الى هذه اللآلئ يا بوتروليه! وهذه الماسات! حجم هذه الماسات. كل واحدة منها تليق بامبراطورة! إن جوهرة الوصي في تاج فرنسا ليست أجمل منها!».

نهض ومدَّ يده كأنه يهَمُّ بأداء قسم:

- «ستخبر العالم بأسره أن لوبين لم يمسَّ حجراً واحداً من هذه الأحجار الكريمة التي تحتويها الخزانة الملكية، لم أمسَّ واحداً منها، أقسم بشرفي! ليس من حقِّي أن أفعل. إنها ثروة فرنسا...».

كان غانيمار في الأسفل، يبذل ما في وسعه للإسراع في الوصول اليهما؛ وبدأ، من صدى الضربات، أنه يُعالج الباب ما قبل الأخير، ذلك الذي يُفضي الى صالة التحف والأوعية المزخرفة.

- «لنترك الخزانة مفتوحة، قال لوبين، وكذلك الأمر كلَّ الدنان الأخرى، تلك القبور الفارغة...».

طاف في أرجاء الصالة وأمعن النظر في بعض الواجهات ثم واصل روحاته وغدواته ساهماً:

- «كم أشعر بالأسى لأنني مرغم على الرحيل! آية غصة في قلبي!

أجمل ساعات حياتي قضيتها هنا، وحيداً قبالة الأشياء التي أحبها... ولن تراها عيناى بعد الآن، ولن تنعم يداى بملمسها.

كان وجهه مشدود القسماى ترتسم عليه ملامح العياء فأحس بوتروليه بشيء من الشفقة الغامضة حياه. ذلك أن الرجل الواقف قبالةى يكابد من الألم ما يفوق طاقة سواه واحتماله، وكذلك الغبطة، أو الإعتزاز أو المهانة.

ثم وقف بمحاذاة النافذة وأشار بإصبعه نحو الأفق، وقال: - «ما يدعو للأسى أيضاً، هو كل هذا، كل ما أرغمتنى الظروف على الابتعاد عنه. أليس جميلاً؟ البحر الواسع... السماء، وضفاف إترينا العالية، ذات اليمين وذات اليسار، بأبوابها الثلاثة، باب العالية وباب الساقلة، وباب الأعطيات... أقواس نصر منصوبة إكراماً لسيّد المكان... وكنت، أنا، سيّد المكان! ملك المغامرة! ملك المسلة الجوفاء! مملكة غريبة وفوق الطبيعة! من قيصر الى لوبين.. أي قدر هذا!».

واستغرق فى الضحك.

- «ملك الخرافات؟ ولم المداورة؟ لنقلها على الفور، ملك إيفوتوا أية دعاية هذه! ملك العالم، أجل، هذه هي الحقيقة! من أعلى هذه المسلة كنت أهيمن على الكون! كنت أملك به بين مخالبي كالفريسة! أرفع تاج سمايتا فرناس الفارسي، يا بوتروليه... أترى جهاز الهاتف المزدوج هذا.. لجهة اليمين الخط المباشر مع باريس وهو خط خاص - ولجهة اليسار الخط المباشر مع لندن - وهو خط خاص. وعبر لندن تتشعب الاتصالات، أميركا، آسيا وأستراليا! فى كل هذه القارّات لديّ مصارف ووكلاء وعملاء ومرشدون. إنها

تجارة غير مشروعة على المستوى الدولي. سوق الآثار الفنية والتحف، سوق العالم. آه! يا بوتروليه ثمة أوقات يستخفني فيها سلطانني فتُسكرنني الخُيلاء. أتمتع بالقوّة والسلطان حتّى الثمالة... تحطم باب الصالة السفلية. وسُمع وقع أقدام غانيمار ورجاله..

وبعد لحظات، أردف لوبين قائلاً بصوت خفيض:

– «والآن، قُضي الأمر... مرّت بي فتاة شقراء ذات عَيْنين كئيبتين وروح مُستقيمة، أجل، مُستقيمة، وقُضي الأمر... فأهدمُ بيديّ هاتين هذا الهيكل الرائع... وما تبقى يبدو في عينيّ عَبثاً لا طائل فيه... أصبحتُ لا أرى سوى شعرها.. وعينيها... وروحها الفتية المستقيمة..»

كان الرجال يصعدون السلم. وانهالت ضربات على الباب، الباب الأخير... فأمسك لوبين بذراع بوتروليه.

– «أوتدرك الآن يا بوتروليه، لماذا أطلقت يدك، ولم أعترض طريقك في الوقت الذي كنتُ قادراً فيه، ولأسابيع خلت، على سحقك! أوتدرك معنى أن تصل الى هنا؟ لقد وزّعت على الرجال حصصهم من المغانم، ولا بدّ أنّك رأيتهم يغادرون في تلك الليلة. أنت تدرك هذا، أليس كذلك؟ المسئلة الجوفاء، هي المغامرة. وما بقيت لي، أكون المغامر. وحين تُنتزع مني يكون الماضي كلّهُ قد انفصل عني، ويبدأ المستقبل، مستقبل السلم والسعادة وعندئذٍ لن يكون عليّ أن أحمرّ خجلاً كلّما طالعتني عينا ريموند بنظرة كآبة؛ مستقبل....»

واستدار مغيضاً نحو الباب:

– «هلاً أقلعت يا غانيمار، لم أنه كلامي بعد!».

تسارعت الضربات، كأنهم يحاولون كسر الباب بواسطة عارضة أو عمود خشبي. وكان بوتروليه واقفاً قبالة لوبين ينتظر، كأنه كتلة من الفضول، ما ستسفر عنه الوقائع المتلاحقة دون أن يعي تماماً ما الذي يدبره لوبين. أن يعتمد الى تسليم المسئلة أمر قد يقبله العقل، ولكن لماذا يسلم نفسه؟ ما هي الخطة التي وضعها؟ وهل كان يأمل بالإفلات من قبضة غانيمار؟ ثم الى أين ذهبت ريموند؟ ومع ذلك تابع لوبين تمتماته ساهماً:

– «مستقيم، أرسين لوبين رجل مستقيم... وداعاً للسرقا... والعيش كما يحيا الآخرون... ولم لا؟ ولدي كل الأسباب التي تدفعني للإعتقاد أنني سأحظى بقدر مماثل من النجاح... ولكن دعني وشأني يا غانيمار! ألا تعلم، يا أحمق الحمقى، أنني أدلي هنا بكلمات تاريخية وأن بوتروليه يحفظها لكي يتناقلها أحفادنا في ما بعد!».

وداح يقهقه:

– «إنها مضيعة للوقت. فلن يفهم غانيمار فائدة مثل هذا الكلام التاريخي».

وأمسك قطعة طبشور أحمر واعتلى مرقاة بجانب الحائط وكتب بالخط العريض:

أرسين لوبين يهب فرنسا كل كنوز المسئلة الجوفاء، شريطة أن توضع هذه الكنوز في متحف اللوفر وفي صالات تحمل الاسم التالي: «صالات أرسين لوبين».

«والآن أستطيع أن أغادر مطمئناً. لقد أصبحنا، فرنسا وأنا،
مُتعادلين».

عُنفَت ضربات المهاجمين واخترقت العارضة أحدَ إطاري
المصراع وامتدت من الفتحة يدٌ تبحث عن المزلاج.

- «رائع، قال لوبين، لقد استطاع غانيمار أخيراً أن يصل الى
غايته، ولو لمرة وحيدة».

وقفز نحو الباب وانتزع المفتاح من القفل.

- «طق، يا صديقي، إنه باب متين... ولدي متسع من الوقت...
والآن أقول لك يا بوتروليه الوداع.. وشكراً لك!.. فقد كنت قادراً
على عرقلة هجومي... إلا أنك أثرت التصرف بلباقة.. يا لك من فتى
لبق!».

دنا من جدارية فان درفايدن الثلاثية التي تمثل ملوك المجوس
وطوى إحدى أجزائها فبدا من خلفها بابٌ صغير، فأمسك بمقبضه
وصرخ قائلاً:

- «صيداً ثميناً، يا غانيمار، وأشياء أخرى تعرفها جيداً!».

ودوى صوتُ إطلاق نار. فقفز الى الوراء.

- «آه! أيها الوغد، إصابة في القلب! لا بد أنك تلقيت دروساً في
الرماية، أخيراً؟ أسفي على ملك المجوس! إصابة في القلب! وانكسر
مثل غليون في...»

- إستسلم يا لوبين! صرخ غانيمار وقد بدا مستدسه عبر الإطار
المخلوع، إستسلم يا لوبين!

- وهل يستسلم الحرس الملكي؟

- حركة واحدة منك فأرديك...

- دعك من هذا، لن تنال مني من هناك!..

وبالفعل كان لوبين قد ابتعد عن مرمى المسدس. فباستطاعة غانيمار أن يطلق النار، عبر الإطار المخلوع، مباشرة أمامه وفي خط مستقيم، إلا أنه لا يستطيع أن يستد نحو المكان الذي لاذ به لوبين... ولم يكن موقف هذا الأخير بأفضل، لأن المخرج الذي يتيح له الإفلات، أي الباب الصغير خلف اللوحة الثلاثية، يقع في مرمى غانيمار. وهذا يعني أنه إذا أراد الفرار فسيعرض نفسه لنار مسدس الشرطي... ورصاصاته الخمس المتبقية.

- «سحقاً، قال ضاحكاً، إنني أفقد شيئاً من مهارتي. قضي الأمر، يا صديقي لوبين، لقد أردت أن تطيل لحظة التشويق الأخيرة فانقطع بك الحبل. لقد أفرطت في ثرثرتك».

واحتفى خلف الحائط. أفلح رجال غانيمار في تحطيم إطار آخر مما زاد من قدرة غانيمار على التحكم بمرماه. ثلاثة أمتار فقط كانت تفصل بين الخصمين، وواجهة من الخشب المذهب.

- «ساعدني يا بوتروليه، قال الشرطي العجوز مغيظاً.. أطلق عليه النار.. أراك واقفاً كالمتفرج...».

وبالفعل، كان إيزيدور واقفاً هناك لا يحرك ساكناً كأنه مجرد مشاهد لم يحسم أمر الجهة التي سينحاز إليها. فقد كان يتحرق لخوض المعركة وقتل الفريسة العزلاء. إلا أن شيئاً ما في أعماقه يُثنيه عن ذلك.

أعاده نداء غانيمار الى رشده. فأمسكت يده بقبضة مسدسه.

«إن دخولي المعركة يعني القضاء على لوبين، قال في سره... ولي مطلق الحق في التدخل... إنه واجبي...».

تلاقت نظراتهما. وبدت عينا لوبين هادئتين، متيقظتين يغشاهما ألقُ الفضول، كأنه في الموقف الخطير الذي يتهدد حياته، لا يبالي إلا بالنزاع الأخلاقي الذي يكابده الفتى. فهل يقرر إيزيدور أن يطلق طلقة الرحمة على رأس عدوه المهزوم؟... وفي تلك اللحظة فُتح الباب.

— «إليَّ يا بوتروليه، لقد أطبقنا عليه» صرخ غانيمار.

فصوب بوتروليه مسدسه.

بعد ذلك جرت الأمور بسرعة خاطفة فلم يدرك حقيقة ما جرى إلا في ما بعد. رأى لوبين يركض مُنحنياً بمحاذاة الحائط ثم الباب ويمر من تحت السلاح الذي صوبه غانيمار عبثاً، وشعر بغتة، هو، بوتروليه، أن ثمة من ألقى به أرضاً، ثم أمسك به ورفع به بقدرته قادر.

كان لوبين ممسكاً به مثل أضحية بشرية يحتمي خلفها.

— «أراهنك يا غانيمار أنني سأتمكن من الإقلاط! ألا ترى أن لوبين لا تنقصه الحيلة...».

وتراجع بخطوات سريعة نحو اللوحة الثلاثية، مُمسكاً ببوتروليه بإحدى يديه وباليدين الأخرى فتح باب المخرج وتوارى. لقد كُتبت له النجاة... كان الباب يفضي الى سلم شديد الانحدار.

— «هيا، قال لوبين، دافعاً بوتروليه أمامه، لقد هُزمت الجيوش

البرية... والآن لنُجبه الأسطول الفرنسي. بعد واطرلو والطرف
الأغر... سوف ترى ما يستحق ثمن التذكرة يا بني!... آه! إنهم
يحاولون اقتحام اللوحة الثلاثية الآن. أمرٌ مضحك فعلاً.... لقد
فات الألوان يا صغاري... هيا، يا بوتروليه تقدّم....».

كان السلم المحفور في جنبات المسلة، في صلب القشرة الصخرية
يلتف حول الكتلة الهرمية محيطاً مثل لولب المزلق.

وداح الرجلان يهبطان السلم على عجل، درجتين درجتين،
وأحياناً ثلاثاً ثلاثاً. وفي بعض المواضع أثناء هبوطهما المتعجل كانا
يُصادفان فُسحات من الضوء يتسرّب عبر الشقوق العريضة، وكان
بوتروليه يلمح من خلالها زوارق الصيد التي تبحر على بعد عشرات
الأبواغ، وإلى جانبها النسافة السوداء...

كانا يهبطان ويهبطان، إيزيدور الصامت، ولوبين الذي لم يفقد
حيويته المفرطة.

ـ «كم أتحرق لمعرفة ماذا يفعل غانيمار الآن؟ هل يهبط السلم
الأخرى ليسدّ عليّ مدخل النفق؟ لا، ليس غيباً الى هذا الحدّ...
فباستطاعته، في مثل هذه الحال، أن يضع هناك أربعة رجال...
وأربعة رجال هم العدد الكافي.»

ثمّ توقّف.

ـ «إسمع... إنهم يصرخون في الأعلى... لا بدّ أنهم فتحوا
النافذة ويحاولون تحذير أسطولهم... انظر، هناك حركة تأهب بين
رجال الزوارق... تبادل إشارات... والنسافة تتحرّك... يا لبأسِ
النسافة! أعرفك جيّداً، إستقدموك من الهافر... يا سدنة المدافع

الى مراكزكم... سحقا، هوذا القبطان... صباح الخير، يا
دوغاي - تروين».

مدّ يده عبر إحدى النوافذ ولوّح بمنديله. ثمّ تابع طريقه.
- «إن أسطول العدو يُبحر متأهباً، والإنزال وشيك، يا الهي، كم
نلهو جيّداً يا صديقي!».

تناهت إليهما جلبة أصوات من أسفل، وكانا يقتربان في الأثناء
من مستوى المياه ولم يلبثا أن أفضيا الى مغارة فسيحة الأرجاء
حيث سطعت أنوار مصباحين متحركين. ثمّ فجأة انبثق خيال امرأة
من بين الظلال الكالحة وهرعت تحتضن لوبين!

- «أسرع! أسرع! لقد أقلقنتني!... لماذا تأخرت؟... ولكن، ألسنت
بمفردك؟...».

فطمأنها لوبين.

- «إنّه صديقنا بوتروليه.. تخيلي لقد كان بوتروليه من الكياسة
بحيث... ولكن في ما بعد، سأروي لك كلّ شيء في ما بعد... يجب
أن نسرّع قبل أن يداهمنا الوقت... شاروليه أين أنت؟.. حسناً..
والزورق؟...».

أجاب شاروليه: «الزورق جاهز».

- «أدر المحرك»، قال لوبين.

وفي غضون ثوانٍ سُمع هدير محرك؛ وما أن اعتادت عينا
بوتروليه قليلاً ظلمة المكان حتّى أدرك أنهم يقفون على شبه رصيف
ميناء، بمحاذاة المياه حيث يطفو قُلْك صغير.

– «إنَّه فُلُّكُ بِمَحَرِّكَ، قال لوبيين، كأنَّه أراد بذلك أن يستكمل ملاحظات بوتروليه. قُلْ، ألا يدهشك كل هذا يا إيزيدور؟... أما زلت عاجزاً عن الفهم؟... بما أنَّ المياه التي تراها ليست سوى مياه البحر التي تتسرَّب الى هذا التجويف خلال المدِّ، فإنَّ ما تراه أيضاً هو المرسى الذي ابتكرته آمناً وبعيداً عن الأنظار...

– لكنَّه مُغلَق، قال بوتروليه معترضاً. لا أحد يستطيع الدخول اليه أو الخروج منه.

– بلى، أنا أستطيع، قال لوبيين، وإليك البرهان.

وبدأ بمساعدة ريموند في الانتقال الى الفُلِّك، ثمَّ عاد لاصطحاب بوتروليه. إلَّا أنَّ هذا الأخير بدا متردداً.

– «هل أنت خائف؟ قال لوبيين.

– ممَّ أخاف؟

– من النسَّافة التي قد تغرق الفُلِّك.

– لا.

– إذا أنت تسأل في شرك إذا كان الواجب لا يقضي بأن تمكث في صفِّ غانيمار والعدالة والمجتمع والأخلاق، بدل أن تنحاز الى صفِّ لوبيين والمذلة والعار والخيانة؟

– بالضبط.

– ولسوء طالعك يا بني، ليس لك أن تختار... إذ ينبغي، في الوقت الحاضر، أن أدفعهم للاعتقاد بأننا أصبحنا، أنا وانت، في عداد الأموات... وهكذا أحظى براحة البال الضرورية لأي رجل يريد أن يصبح مُستقيماً. وفي ما بعد، حين أطلق سراحك، ستكون

لك مطلق الحرية في أن تروي ما تشاء... وعندها أكون قد أمنتُ
العواقب».

وأحسّ بوتروليه، من الطريقة التي شدّ بها لوبين على ذراعه،
بأنّ المقاومة لن تجديه نفعاً. ثمّ، لمّ المقاومة؟ ألا يحق له أن يستسلم
لذاك الودّ الطاغى الذي طالما أوجت به شخصيّة لوبين برغم كلّ
شيء؟ وكان احساسه هذا بيّناً لدرجة أنه أراد أن يقول له:

«اسمع، ثمة ما هو أكثر خطورة: إن هولز يطارذك...».

— «هيا، تعال»، قال لوبين قبل أن يحسم ايزيدور أمره.

فأطاعه ورافقه الى الفلك الذي بدا له غريباً لا يشبه الزوارق.

وما أن أصبحا على متن الفلك، هبطا درجات سلّم صغير. شديد
التحدّر، وبدا أنه سلّم خشبي صغير مثبت الى بابٍ قلاب لم يلبث
أن أقفل وراءهما.

وعند أسفل السلّم افضيا الى حجرة ضيقة جداً مضاعة بنور
مصباح، وحيث جلست ريموند في انتظارهما، فانضمّا إليها وجلسا
على مقعد لا يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص. ثمّ بادر لوبين وقال
بلهجة أمر: «انطلق يا شاروليه».

لم يلبث بوتروليه أن أحسّ بذلك الضيق الذي ينتابه عادة حين
تهبط به حجرة مصعد، إذ يتراءى له أنّ الأرض تتلاشى من تحت
قدميه مخلفة وراءها الفراغ. إلّا أنّ الأرض ليست هي التي
تتلاشى، هذه المرّة، بل المياه، بينما تُفتح أبواب الفراغ، على مهل... .

— «إذاً، أترانا نغرق؟ قال لوبين هارتاً. لا تقلق... فقط مسافة
العبور من المغارة العليا حيث نحن الآن الى مغارة صغرى، في

الأسفل، شبه مفتوحة على البحر وحيث نستطيع الدخول اليها خلال فترة الجزر... وكلّ جامعي الأصداف يعرفونها جيّداً... آه! عشر ثوانٍ من التوقف!... وها نحن نعبّر والمعبرُ ضيقٌ! بحجم الغوّاصة...

- ولكن سأل بوتروليه، كيف لا ينتبه الصيّادون الى أنّ المغارة السفليّة مزوّدة بفتحةٍ من الأعلى تفضي الى مغارة أخرى حيث يوجد طرف سلّم يُفضي بدوره الى جوف المسلة حتّى قمّتها. هكذا تكون حقيقة سرّ المسلة في متناول أوّل عابر سبيل.

- خطأ، يا بوتروليه! إنّ قبة المغارة الصغرى تُقفل خلال فترة الجزر بواسطة سقف متحرّك بلون الصخر، ترفعه مياه البحر خلال فترة المدّ ثمّ تعود وتغلّقه بإحكام فوق قبة المغارة الصغرى في تراجعها خلال فترة الجزر. ولذلك نستطيع العبور خلال فترة المدّ... أرايت! إنه تصميم مذهل... فكرة عبقرية من ابتكار بيبي... والحقيقة أنّ أحداً من أسلافي الكبار، لا قيصر ولا لويس الرابع عشر مثلاً، ما كان ليستطيع ابتكار هذه الجهازية لأنه ببساطة لا يمتلك غوّاصة... كانوا يكتفون باستخدام السلّم الذي يُفضي الى المغارة الصغرى... أمّا أنا فقد انتزعت الدرجات الأخيرة من السلّم وابتكرت هذا السقف المتحرّك. إنّها هديّتي لفرنسا... ريموند، يا عزيزتي، أطفئي المصباح... ما عدنا في حاجة اليه... بل على العكس...».

وبالفعل فما أن عبرت الغوّاصة المغارة الكبرى حتّى تسرّبت أضواء شاحبة بدّت بلون المياه عبر كوّتين من جانبي الحجرة وعبر قبة صغيرة من الزجاج استحدثت في متن القارب بحيث يتسنى

للجالس هناك أن يشاهد بوضوح طبقات المياه العليا من البحر.

وفجأة عبر ظلٌ قاتم فوق الغوّاصة.

- «سيبدأ الهجوم. إن أسطول العدو يحاصر المسلة... ولكن مهما بدت المسلة جوفاء يبقى السؤال: كيف سيدخلون إليها...».

أمسك المذيع:

- «لا تغادر القعريا شاروليه... إلى أين وجهتنا؟ لقد قلت لك من قبل.. إلى بور - لوبين.. وبالسّعة القصوى، هل سمعت؟ فلن نستطيع أن نرسو هناك إلّا إذا كان مستوى المياه مرتفعاً.. فهناك سيّدة ترافقنا».

كانت الغوّاصة تتقدّم بسرعة بمحاذاة كتلة الصخور، فتتكوّم الطحالب التي تنتزعُ بقوة عبورها كدغلٍ أسود وتتقاذفها تيارات الأعماق فتتماوج على مهل وتنبسّط كأنها خصلة شعر طافية. عبر ظلّ آخر أكبر حجماً...

- «إنّها السفينة الحربيّة، قال لوبين... سنسمع للمدفع دويّاً... ماذا سيفعل دوغاي - تروين؟ هل سيقصف المسلة؟ إنَّ أسفي لشديد يا بوتروليه لأننا لن نشهد المنازلة بين دوغاي - تروين وغانيمار! اجتماع القوى البريّة والقوى البحريّة!... هيه، يا شاروليه! هل أنت نائم...».

كانت الغوّاصة تمخر اللّجة بسرعة فائقة. وتلت الكتل الصخرية الكثبان، ثمّ رأوا كتلاً صخرية أخرى تحدّ الطرف الأيمن من إتريتا، باب العالية. وكانت الأسماك تفرّ فرعةً من كلّ صوب

باستثناء سمكة وحيدة علقت بطرف الكوة وراحت ترمقهم بعينيهما الجاحظتين الثابتتين.

- «نحو الحياة الجديدة نتقدّم، قال لوبين... ما رأيك يا بوتسروليه، أتروق لك صدفتي الجميلة؟ لا بأس، أليس كذلك؟... أتذكر مغامرة «سبعة الكبة»^(*)، ونهاية المهندس لا كومب التاعسة؛ أتذكر كيف بادرتُ، بعد الاقتصاص من أولئك القتلة، الى منح الدولة كلّ الأوراق والتصاميم الخاصة ببناء طراز جديد من الغوّاصات - هدية أخرى منحتها لفرنسا -، ولكنني احتفظت من بين هذه الأوراق بتصميم فُلك غوّاص بمحرك، وهكذا أُتيح لك شرف رفيقتي في هذه الرحلة البحرية...».

ثمّ تادى على شاروليه:

- «إصعد بنا، لقد زال الخطر...».

فطفت بهم الغواصة بسرعة ولم تلبث قبة الزجاج أن علّت فوق مستوى المياه... كانوا على بعد ميل من الساحل، فلا خوف من أن يراهم أحد؛ وهكذا استطاع بوتسروليه أن يدرك بدقّة أكبر السرعة الخياليّة التي يتقدّمون بها.

في البداية أبحروا قبالة شاطئ «فيكام» ثمّ توالى الشواطئ النورمانديّة، سان بيار، ليه بوتيت دال، فوليت، سان فاليري، فول، كييرفيل.

كان لوبين لا يكفّ عن المزاح وكان إيزيدور لا يملّ من النظر اليه

(*) أرسين لوبين، اللصّ الظريف.

وسمعه وقد أذهلته قريحة ذلك الرجل وبهجته وصبيانته
ولامبالاته الساخرة، واغتيباطه بالحياة.

وكان يراقب ريموند أيضاً. فقد مكثت المرأة الشابة صامتةً
ملتصقةً بالرجل الذي تحبّ. كانت تمسكُ بيديه الإثنتين وغالباً ما
تنظر إليه متأملّةً، ولاحظ بوتروليه مراراً أن يديها كانتا تتصلبان
فجأةً في ما تغشى عينيها نظرات كآبة عميقة. وفي كلّ مرّة كانت
نظراتها بمثابة جواب صامت وأليم لدعابات لوبين ونكاته. حتى بدا
أن مثل هذه الخفة في الكلام، وهذه الرؤية الساخرة للحياة إنّما
تثيران في روعها مشاعر الألم. أو كأنها تقول في سرّها:

«اصمت... الضحك هو تحدُّ للقدر... فقد نواجه لاحقاً مشقّات
كثيرة!».

قبالة ديب غاص الفلّك مجدّداً لكي لا تكشفه قوارب الصيد
الراسية هناك. وفي غضون عشرين دقيقة حرقوا وجهتهم وأبحروا
في اتجاه الساحل ودخلَ الفلّك الغواص إلى ميناء بحري صغير تحت
الماء، هو عبارة عن فتحة غير مستوية الأطراف بين الصخور، وتقدّم
بمحاذاة الحاجز الصخري إلى أن صعد وتبدأ إلى السطح.

– «بور لوبين»، أعلن لوبين.

وكان «بور – لوبين» عبارة عن مكان منعزل، يقع على بعد خمسة
فراسخ من «ديب» وثلاثة فراسخ من تريبور، تحدّه من اليمين ومن
اليسار كتل الانهيارات الصخرية، أما الشاطئ هناك فقد كان
مكسوّاً برملٍ ناعم.

– «إلى اليابسة يا بوتروليه... ريموند، هاتِ يدك... وأنت يا

شاروليه، عُد الى المسلة واستطلع ما يدور بين غانيمار ودوغاي - تروين، ثمّ تعود اليّ في آخر النهار. إنّ هذه القضية تثير فضوليّ.

كان بوتروليه يسأل نفسه بشيء من الفضول كيف الخروج من هذا الجوين المعزول الذي يُسمّى «بور - لوبين»، ولم يطلّ تساؤله حتى بدت له عند أسفل الضفة الصخرية العالية درجات سلّم حديدي.

- «لو كنت تحفظ جيّداً، يا إيزيدور، دروس الجغرافيا والتاريخ لأدركت أننا عند أسفل مضيق بارفونفال، في مقاطعة بيفيل. فمنذ قرن ونيف من الزمن، في ليل ٢٣ آب/اغسطس ١٨٠٣، وصل جورج كادودال برفقة ستة من أعوانه، الى هذا الشاطئ الفرنسي بقصد اختطاف المستشار الأوّل بونابرت، واستطاعوا أن يصلوا الى أعلى الضفة عبر الدرب الذي سأرشدك اليه. منذ ذلك الحين أصبح هذا الدرب غير سالك بفعل الانهيارات الصخرية المتتالية. إلّا أن فاليرا، الشهير بأرسين لوبين، أعاد تأهيله على نفقته الخاصّة، وابتاع مزرعة «نوفيليت»، حيث أمضى المتآمرون المذكورون ليلتهم الأولى، وحيثُ عقد فاليرا العزم على الإقامة بين والدته وزوجته، متقاعداً غير آبه بأمر هذا العالم. مات اللص الظريف فليحي المزارع النبيل!».

بعد السلّم، هناك ممراً ضيقاً، مجرى سيلٍ طبيعي حفرتّه مياه الأمطار يُفضي الى شبه سلّم مزوّج بدرابزين. وشرح لوبين أنّ هذا الدرابزين قد استُحدث ليقيم مقام «حبل التسلق»، وهو عبارة عن حبل طويل مثبت بوترتين كان أهل المنطقة يستخدمونه للنزول الى

الشاطئ... استغرقهم تسلق الدرب نحو نصف ساعة ثم وصلوا
الى هضبة لا تبعد كثيراً عن أحد تلك الأكواخ المحفورة في طين
الضفاف نفسها والتي تستخدم كمراكز مراقبة لجمارك الساحل.
وما أن انعطفوا قليلاً في اتجاه الكوخ حتى صادفوا أحد رجال
الجمارك.

- «أما من جديد يا غومل؟ قال لوبين.

- لا شيء يا سيدي.

- لا أحد ممّن يثيرون الشبهات؟

- لا، يا سيدي... ولكن...

- ماذا؟

- زوجتي... التي تعمل كخياطة في نوفيليت...

- أجل، أعلم... سيزارين... ما بها؟

- يبدو أنها رأت بخاراً يتسكّع في أنحاء البلدة هذا الصباح.

- ما هي أوصافه، هذا البخار؟

- ليس من الوجوه المألوفة... كأنه انكليزي.

- آه! قال لوبين متوجّساً... وهل تبلّغت سيزارين الأمر...

- ... بأن تكون متيقظة وتراقب، أجل، يا سيدي.

- حسناً، راقب عودة شاروليه في غضون ساعتين أو ثلاث...

وإذا كان لديه ما يستحق التبليغ تجدني في المزرعة».

تابع طريقه وقال لبوتروليه:

- «هناك ما يدعو الى القلق... أيكون هولز؟ آه! إذا كان هولز،

بالفعل فعلينا أن نتوقع الأسوأ، نظراً لما يعتمل في قلبه من سخطه.

ثم تردّد للحظات:

- «ربّما كان علينا أن نعود أدراجنا... بلى، إني أتوجّسُ شراً...».

كانت سهولٌ فسيحة تتراعى متماوجة على مدى البصر. وإلى اليسار ممّرات مشجّرة تقضي إلى مزرعة نوفيليت التي بدت مبانيها بوضوح... كانت تلك هي الخلوة التي أعدّها لإقامته، منتجع الراحة الموعود لحياته المقبلة مع ريموند. فهل يتخلّى عن السعادة الموعودة لحظةً بلوغها بسبب أفكار عبثية وتوجّسات؟

أمسك بذراع إيزيدور وقال له مُشيراً إلى ريموند التي كانت تسير أمامهما:

- «انظر إليها جيداً. عندما تسير تتمايل قامتها على نحوٍ يثير في القشعريرة... ولكن، الحقيقة، أنّ كلّ ما فيها يثير فيّ مقدّاراً من التأثر والحبّ، حركتها أو سكونها، صمتها أو نبرة صوتها. انظر، لجُرْد أن أقتفي أثر قدميها أشعر بغبطة لا تُضاهى. آه! يا بوتروليه، أوتظنّ أنها ستنسى ذات يوم أنني كنتُ أرسين لوبين؟ وكلّ هذا الماضي الذي تحتقره، هل سأتمكّن ذات يوم من محوه كلياً من ذاكرتها؟

ثمّ تمالك اندفاعاته، وبثقةٍ عنيدة أضاف:

- «سوف تنسى! قال جازماً، سوف تنسى لأنني بذلت في سبيلها كلّ التضحيات. لقد ضحّيت بالملاذ الحُصين في المسلة الجوفاء، بكنوزي، بسلطاني، بكبريائي.. وسأضحّي بكلّ شيء... أصبحتُ لا أريد أن أكون شيئاً... لا شيء سوى رجل يحب.. رجل مستقيم

لأنها لا تستطيع أن تحب سوى رجل مستقيم... وبأية حال، ما الذي يضيرني في أن أصبح رجلاً مُستقيماً؟ فليس عار هذا أشد من عار أي شيء آخر...».

كانت تلك دعاية أطلقها عفواً. إلا أن صوته لم يبدل من نبرته الصارمة الخالية من السخرية. ثم تمتم بنبرة عنف مكتوم:

- «آه! أترى يا بوتروليه، ما من بهجة من مباهج الحياة التي عشتها من مغامرة إلى أخرى، قد توازي البهجة التي تمنحني إياها نظرة من نظراتها التي تنم عن رضى... عندئذٍ أشعر بأنني رجل ضعيف... وأشعر بحاجة للبكاء...».

هل كان يبكي حقاً؟ بدا لبوتروليه أنه يرى دموعاً تملأ عينيه. دموع في عيني لوبين، ودموع حب!

كانوا يقتربون من بوابة قديمة عند مدخل المزرعة. توقف لوبين للحظة وغمغم قائلاً:

- «لماذا أشعر بالخوف؟... كأنه كابوس... ألم تنته بعد مغامرة المسئلة الجوفاء؟ هل أن القدر لا يُقرّ بالحل الذي اخترته لها؟». استدارت ريموند نحوهما وبدأت شديدة التوجّس.

- «هذه سيزارين. إنها تهرع إلينا...».

وكانت زوجة الجمركي تركض من المزرعة نحوهم. فهرع لوبين لملاقاتها:

- «ماذا! ما الخطب؟ هيا تكلمي!».

فقال سيزارين لاهثة مُتلعثمة:

- «رجل... رأيت رجلاً في الصالون.
- الاتكليزي الذي رأيته هذا الصباح؟
- أجل... إلا أنه تنكّر بزي مختلف...
- وهل رأيك؟
- لا. رأى والدتك. فقد بوغت بوجود السيّدة فالميرا حين كان يهّم
بالمغادرة.
- إذاً؟
- قال لها إنه يبحث عن لويس فالميرا، وإنّه صديق لك.
- إذاً؟
- عندئذٍ أجابت السيّدة أن ابنها مسافر... في رحلة تستغرق
سنوات...
- وهل غادر؟
- لا. راح يلوح بإشارات عبر النافذة باتجاه السهل... كأنّه
ينادي على أحدٍ ما».
بدا لويس حائراً. ثم انطلقت صرخة مدوية. فأنت ريموند:
- «إنها والدتك... عرفت صوتها...».
فارتدى عليها وجرحها في اندفاعه شغف مذعور:
- «تعالى.. لنهرب.. أنت أولاً...».
ولكنه سرعان ما توقّف، حائراً ومرتبكاً.
- «لا، لا أستطيع... إنه أمر فظيع... إغفري لي... يا ريموند...
الامرأة المسكينة هناك... إمكثي هنا... لازمها يا بوتروليه».

وانطلق راكضاً بين أشجار المرتفع الذي يحيط بالمزرعة ثم انعطف قليلاً وتابع في اتجاه مستقيم الى أن وصل الى السياج ناحية السهل... وما لبثت ريموند أن لحقت به ولم يستطع بوتروليه أن يعترض طريقها؛ عندئذٍ توارى خلف الأشجار وشاهد، عند الممر المقفر الذي يمتد بين المزرعة والسياج، ثلاثة رجال، يتقدمهم أطولهم قامة في ما تبعه اثنان يحملان امرأة تحاول أن تقاوم وتطلق صراخاً أليماً.

كان ضوء النهار يضمحلّ رويداً. إلا أن بوتروليه استطاع أن يتعرف الى شرلوك هولمز. كانت المرأة المحتجزة مُسنّة وبدا وجهها كآبياً إذ أحاطت به خصلات شعرها الأشيب. دنوا من باب السياج وفتح هولمز أحد مصراعيه. وعندئذٍ تقدّم لوبين وانتصب أمامه معترضاً طريقه.

بدت الصدمة هائلة الوقع، مُخيفة، فساد صمت مطبق، وتبادل العدوان نظرات الريية طويلاً دون حراك. كانت سمات الحقد المتبادل تشدّ قسماً وجهيهما. ومكثا لا يحركان ساكناً.

فقال لوبين برباطة جأش مُرعية:

— ومُر رجالك بأن يدعوا المرأة وشأنها.

— لا!..

كأن واحدهما، حيال الآخر، يخشى اندلاع المعركة القصوى أو كأنهما يستجمعان قواهما تأهباً. لذلك لم يتبادلا كلاماً لا طائل فيه أو استفزازات هازئة. الصمت فقط. صمت الميتين.

كانت ريموند تنتظر هلعاً ما ستسفر عنه المبارزة، أما بوتروليه

فقد أمسك بذراعها ليُيقِيها في مكانها. بعد ثوانٍ رَدَّ لوبين قائلاً:

«مُر رجالك بأن يَدْعُوا المرأة وشأنها

— لا!».

فهمَ لوبين بالقول:

— «اسمع يا هولز...».

إلا أنه سرعان ما أحسَّ بعدم جدوى الكلام فسكت. إذ ما
الجدوى من إطلاق التهديدات في وجه هذه الكتلة من الكبرياء
والتجبر والتي تدعى هولز؟

وبغْتةً مَدَّ يده الى جيب سترته عازماً على متابعة المعركة بأي
ثمن. فحذَّره الانكليزي وانقَضَ على رهيئته ووضع فوهة مسدسه
على مسافة اصبعين من صدغها.

— «أية حركة منك يا لوبين وأطلق النار».

وفي الوقت نفسه سارع مرافقاه الى تسديد سلاحيهما نحو
لوبين.. فتصلَّبت عضلات هذا الأخير ومكث في مكانه متمالكاً غيظه
الذي يعتمل في داخله كالبركان، ثم بلهجة هادئة وقد دسَّ يديه في
جيبي سترته وشرَّع صدره عارماً لسلاح عدوّه، قال مجدداً:

— «هولز، للمرّة الثالثة أقول لك دع هذه المرأة وشأنها».

فأجاب الانكليزي ساخراً:

— «ربّما تقصد أنه لا يحقُّ لنا أن نتعرَّض لها! هيّا، هيّا، دَعْنَا من
هذا المزاح! أنت لا تُدْعى فالْمِرا، ليس بعد الآن، كما لا تُدْعى لوبين،
فهو اسم سطوتٍ عليه كما سطوت على اسم شارموراس. وتلك التي

تزعّم أنها أمك ليست في الحقيقة سوى فيكتوار، شريكك العجوز،
ومربيّتك...».

اقترف هولز، خطأً. فقد استسلم لرغبة الثأر التي تملّكته فنظر
الى ريموند للتنبّيت من وقع كلماته عليها. فانتهز لوبين هفوة
الانكليزي وسارعه بطلقة.

- «اللعة!» صرخ هولز الذي اخترقت الرصاصة ذراعه.
فأمر رجاله:

- «أطلقا النار، ماذا تنتظران! النار!».

غير أن لوبين كان قد سارع في الانقضاض عليهما، ولم تمض
ثانيتان إلّا وكان أحدهما طريح الأرض مُحطّم الأضلاع في ما
ارتقى الآخر من فوق السياج وقد هُشم فكّه الأسفل.

- «هيا تدبري الأمر يا فيكتوار.. كبليهما.. والآن يا عزيزي
الانكليزي، أصبح الأمر بيننا، فقط أنا وأنت...».

ثم انحنى شاتماً:

- «آه! أيها الوغد...».

كان هولز قد لمّ سلاحه بيده اليسرى وصوب نحوه.

دوّت طلقة.. ثم صرخة استغاثة... كانت ريموند قد هرعت لتقف
بين الرجلين، قبالة الانكليزي. ترنّحت قليلاً ووضعت يدها على
عنقها ثم انتصبت واقفةً ودارت على نفسها ثم هوت عند قدمي
لوبين.

- «ريموند!.. ريموند!...!»

فارتقى فوقها واحتضنها.

.. «ماتت»، قال.

مكثوا جميعهم في حالة ذهول. وبدأ هولز مرتبكاً لما اقترفته يداه.
وكانت فيكتوار تتمتم:

.. «يا بُني... يا بُني...».

تقدم بوتروليه نحو المرأة الشابة وانحنى للتثبت من حالتها.
وكان لوبين يردد: «ماتت.. ماتت» بلهجة مَنْ لا يصدق عينيه، وكأنه
لم يدرك بعد حقيقة ما جرى.

إلا أن وجهه تغصن فجأة، كأن الألم يرسم ملامحه من جديد.
وعندئذ بدا وكأن نوبة جنون تسري في كيانه فتَهَزّه من الأعماق،
فراح يتصرف كمن فقد صوابه، يتلوى ويركل الأرض بقدميه كطفل
لا يُداري الألم.

.. «أيها البائس!» صرخ فجأة وقد تملكه الحقد.

وانقض كحيوان ضارٍ طارحاً هولز أرضاً، ممسكاً بخناقه وقد
غرز أصابعه المتصلبة في لحم عنقه. وكان الانكليزي يُطلق نحيباً
دون أن يبدي أية مقاومة.

.. «يا بني.. يا بني» توسلت فيكتوار...

فهرع بوتروليه، وقبل أن يصل إليه كان لوبين قد أفلت
الانكليزي وارتقى بقربه على الأرض وجعل يبكي.

منظرٌ مؤثر! كان بوتروليه يعلم جيداً أن فظاعة المأساة التي
شهدها ستظل ماثلة في ذاكرته، هو الذي يعرف حبّ لوبين لريموند،

وكلُّ ما ضحَى به المغامر الشهير من ذاتِ نفسه لكي يُضفي على
وجه حبيبته طيف ابتسامة.

كان الليلُ يبسطُ طيفاً من الظلال فوق ساحِ المعركة. وكان
الانكليزي ورفيقاه قد طُرحوا أرضاً بين الأعشاب العالية مكبلين
ومكمي الأفواه. وتناهت أصواتُ غناء هدهدت صمت السهل
الشاسع. كان غناء أهل نوفيليت العائدين من الحقول.

نهض لوبين وأصغى للأصوات الرتيبة. ثم جال ببصره على
أنحاءِ المزرعة الهائنة حيث أملّ بالعيش الرغد الى جوار ريموند. ثم
نظر اليها، هي، العاشقة المسكينة، التي قتلها الحبّ والتي بدت
نائمة، بيضاء في سباتها الأبدى.

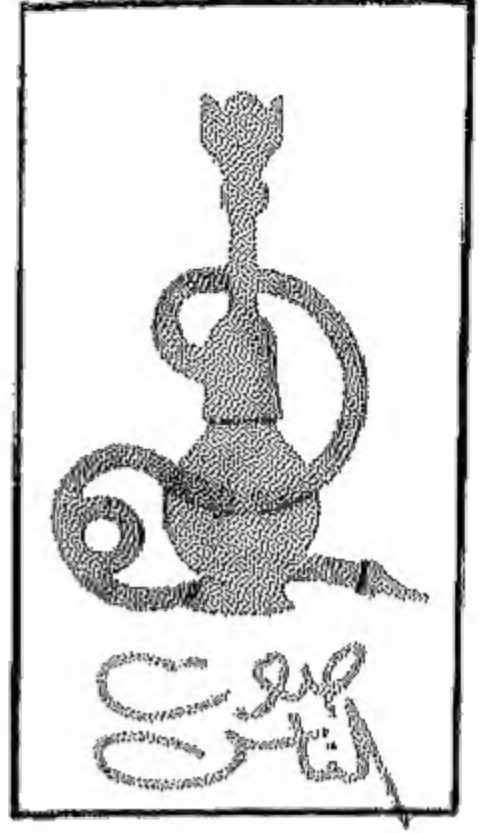
كان جمعُ المزارعين يقترب. فانحنى لوبين، وحمل الميتة بين
ذراعيه القويتين ورفعها ثم ألقي جسدها برفق فوق كتفه.

- «هيا بنا، يا فيكتوار.

- هيا بنا، يا صغيري.

- الوداع يا بوتروليه»، قال.

كان يمشي تحت وطأة حملة المأساوي والغالي، تتبعه الخادمة؛
صامتاً، حاقداً. كان يمشي في اتجاه البحر، ثم توغل مُبتعداً في عمقِ
الظلام.



كان أرسين لوبين يعيش طوال عام تقريباً في باريس منتحلاً اسماً آخر، ومدعياً أنه رحالة محترف وكان يتوارى عن الأنظار لفترات طويلة مدعياً القيام برحلة صيد بينما كان في الواقع يقوم بتنفيذ بعض مخططاته.

و ذات يوم انقطعت اخبار لوبين حيث أصيب خلال إحدى هذه العمليات بطلق ناري.

يتقمص أرسين لوبين في هذه المغامرة الجديدة أدوار شخصيات متعددة كانت تتدخل في الظاهر لمساعدة التحقيق على كشف ملابسات الجريمة بينما كان في الواقع يزيد في تعقيدها.



185513134X